

مركزية سيبويه في الثقافَة العربية

أعمال الندوة العلمية الدولية التي نظّمتها

شعبة اللغة العربية وآدابها، بكلية الآداب بتطوان

يَومي الأربعاء والخميس 14-15 ربيع الأول 1438 / 14-15دجنبر 2016

كلية الآداب – تطوان



منشورات فريق البحث الأدبي والسيميائي

بكلية الآداب والعلوم الإنسانية

تطوان ـ المغـــرب.

البريد الإلكتروني: **abderrahmane39@hotmail.com**

هاتف : (212+) 662396094

خضع هذا الكتاب قبل نشره إلى التحكيم والمراجعة

الكـتاب: مركزية سيبويه في الثقافَة العربية

إشراف:أ.د. عبد الرحمن بودرع / أ.د. محمد الحافظ الروسي

خطوط الغلاف: سهيلة بودرع

الإخراج الفني: سهيلة بودرع

الطبعة الأولى: 2017م-1438هـ

دار النشر: مطبعة الهداية - تطوان –

الإيداع القانوني:

ردمـــــــــك:

"كتاب "سيبويه" حسب مخطوطة نحوي أندلسي من القرن السادس للهجرة / الثاني عشر للميلاد"

بقلم: جينيفير همبرت[1]

ترجمه من الفرنسية: أ.د. محمد مفتاح[2]

أ.مؤنس مفتاح[3]

تمهيد:

على الرغم من أن كتاب "سيبويه" (المتوفي سنة 180/ 796) كان موضوع عدة طبعات، فإن النص الأشهَرَ الذي نقرؤه[4] به تغييرات طفيفة جدا، وعلى نحوِ ما يحدث في كثير من الأحيان بالنسبة للنصوص الصعبة والتي طال انتظار صدورِ

---

(1) جونيفيف أمبير Geneviève Humbert: أكاديمية فرنسية مهتمة بالدراسات اللغوية و النحوية– المركز الجامعي للبحث العلمي بباريس. المصدر: المخطوط العربي وعلم المخطوطات – منشورات كلية الآداب – جامعة الرباط، 1994م، ص 9–21

(2) محمد مفتاح (أستاذ التعليم العالي – جامعة عبد المالك السعدي – المغرب)

(3) مؤنس مفتاح (باحث متخصص في الترجمة)

(4) تلك هي الطبعة الأولى لديرينبورج H. Derenbiurg: كتاب سيبويه، دراسة في النحو العربي، مجلدان، باريس، المطبعة الوطنية، 1880_ 1889،(أعاد طبعه G.Olms , Hildesheim New York 1970). الطبعة المصرية الأولى، غفل، طبعت بالمطبعة الكبرى الأميرية ببولاق، 1898– 1899 (أعيد طبعها ببغداد، مكتبة المثنى، 1965). والطبعة المصرية الثانية كانت بتحقيق عبد السلام هارون، 5 مجلدات، القاهرة، الهيئة المصرية للكتاب، 1966_ 1967، هذه الطبعات كانت وراء خمول ذكر طبعة كلكتا، على الرغم من أنها طبعة على سوية طبعة ديرينبورج تاريخيا، وهي لأكبر الدين أحمد خان بهادر (كلكتا مطبعة Guide الأوردية، 1887)، ولم توزع إلا في دائرة ضيقة من الخواص. وهي مستقلة تماما عن الطبعات الثلاثة الأخرى، ومما تختص به إدخال الشروح في قلب النص، وهو حال 99٪ من المخطوطات التي وصلت إلينا.

طبعتها الورقية، فقد تم الاعتماد على النسخة الرئيسة التي أصبحت فيما بعد أساس الطبعات المقبلة.

إن عدم تجديد القاعدة المكتوبة بخط اليد[1] وغياب جهاز نقد حقيقي في الطبعات الحديثة يُعزز الوهم بين المتلقين بأن النص تمت صياغته بشكل قطعي، في حين أن جميع الطبعات و بغض النظرعن طبعة "كلكتا" التي اعتمد عليها بشكل كبير جدا في التحقيق، فقد تعرضت طبعة "ديرينبورغ" للنقد وكذا مخطوطة رئيسة اعتمد[2] عليها هذا الأخير.

إن المجلد التاسع من "تاريخ التراث العربي" و الذي نشر في عام 1984، يُظهر درجة الثقة بالمخطوطات المكتوبة باليد باعتبارها قاعدة للطبعات وذلك بالنظر إلى النفائس التي تتضمنها المكتبات، وقد أحصى "فؤادسزكين" ستا وستين مخطوطة ل"الكتاب" في حين أن "ديرينبورغ" لم يستخدم إلا أربعة منها، وقد تمكنت من العثور منذ ذلك الحين على اثنتي عشرة نسخة إضافية[3]. كما أننا نتوفر من جهة على ثلاث طبعات تعتمد بشكل وثيق على النسخة الأساسية ل"ديرينبوغ" ومن

---

(1) بينت في بعنوان ((طبعات " الكتاب" لسيبويه و أصولها من النسخ المخطوطة) في studies in the history of Arabic Grammar II éd.pae K. Versteegh et M.G. , Garter, Amestedam/ (Philadelphie, 1990)

أن الطبعة المصرية الأولى لم تستند إلى أية مخطوطة، وأن عبد السلام هارون لم يشر إلا إلى نسختين هما الأحداث من بين النسخ المخطوطة في مكتبات القاهرة. وقد أشار في مقدمته إلى أنه اتخذ طبعه ديرينبورج نسخة أساسا لنشرته.

(2) المرجع السابق: "طبعات الكتاب" لسيبويه وأصولها من النسخ المخطوطة ص 181- 186

(3) أشير إليها في آخر ما صدر من فهارس المكتبات الموجودة وأكثرها في تركيا، ولم يتح لي حتى الآن الاطلاع على العدد الأخير من الدورية المغربية " مجلة البحث العلمي" التي بلغني أنها نشرت بحثا فيه إشارة إلى اكتشاف نسخة جديدة لكتاب سيبويه.



جهة أخرى نجد ثمانا وسبعين نسخة ل"الكتاب" تم الاعتماد على ست مخطوطات منها فقط من قبل الناشرين.

لقد تبين لي بعد فحص ستين نسخة من مخطوطات " الكتاب" فحصت بعضها فحصا مباشرا وبعضها الآخر من خلال الميكروفلم، أن هناك أخطاء لا يستهان بها في الطبعات المختلفة[1]، بل إن منها ما قد يفتح الباب أمام إجراء تعديلات جوهرية على النص، وقد مكنتنا نسخة مأخوذة من مخطوطة "القيروان" في بداية القرن الخامس من تجديد معرفتنا ب "الكتاب"[2] بشكل جدي.

إن الانتقادات الأخطر التي يمكن تقديمها للناشرين الحاليين ليس لجهلهم بمكان وجود هذه النسخة المنعزلة والمعزولة، ولكن لافتقارهم إلى معرفة فائدتها وغناها في ضبط النص؛ فهناك بالفعل نسخ قديمة من "الكتاب" يمكن عَدُّها طبعاتٍ نقديةً حقيقية مستندة إلى تاريخ النصوص و دراستها، وأريد أن آخذ هنا مثالا على تلك النسخة الأكثر استثنائية منها وهي مخطوطة أصلية لنحوي أندلسي توفي في بداية القرن السادس والمعروف باسم "علي بن خروف الحضرمي"

سوف أحاول بعد الحديث عن بعض خصائصها الباليوغرافية والكوديكولوجية الأكثر إثارة للاهتمام من توضيح بعض الملحوظات الهامشية التي ستؤدي بي إلى شرح أنه يمكن الحديث عن مثل هذه النسخة أي عن نسخة حقيقية نقدية مقنعة ومرضية بالمقارنة مع الطبعات الحديثة، وسوف أبين بعد ذلك أن الدروس

---

(1) انظر على سبيل المثال بحث " طبعات الكتاب" لسيبويه وأصولها من النسخ المخطوطة، المرجع السابق ص 191-196

(2) يتعلق الأمر بمخطوطة مكتبة الأمبروزيانا بميلانو _ إيطاليا_ برقم عربي X056، وقد بينت في بحث بعنوان " مخطوطة أثرية لكتاب سيبويه" سينشر في دورية Linguistique arabe et sémitique, Développements récents, édite par G. Bohas بدمشق

المستفادة من "ابن خروف" تُمكننا من العثور على نوعين من النصوص، وفي القسم الأخير سأتحدث بإيجاز عن تاريخ تداول كتاب "سيبويه".

المخطوطة العربية رقم "6499" من مكتبة "باريس" الوطنية:

إن نسخة "الكتاب" للنحوي الإشبيلي "علي بن خروف الحضرمي" (المتوفى 609/ 1212)[1] و التي حررها وأنجزها لاستخدامه الشخصي، تم الاحتفاظ بها في المكتبة الوطنية ب"باريس" تحت رقم "6499" "الكتاب العربي"، غير أن المخطوطة التي تم الانتهاء من نسخها سنة 562هـ/ 1166-7[2] هي للأسف مبتورة وناقصة وغير مكتملة (فحوالي ثلث فصولها مفقود)[3] ومضطربة الترتيب[4]

(1) أثبت ابن خروف اسمه في نسخته على هذا النحو:
" علي بن محمد (بن علي) بن خروف وكنيته أبو الحسن"
لمزيد من التفاصيل: ابن الزبير، صلة الصلة وهو ذيل لكتاب الصلة لابن بَشْكُوال في تراجم علماء الأندلس، الرباط ص 67 و 122- 123.

(2) ليس في سنة 558ه/ 1162، كما ورد في E.Blochet(فهرس المخطوطات العربية و الاقتناءات الجديدة، باريس، Leroux، 1965، ص 280) الذي حاذ حذوه فؤاد سيزكين وآخرون. سنة 558ه هي تاريخ إجازة بالقراءة حصل عليها ابن خروف، كما ورد في حاشية مكتوبة في ورقة 164

(3) الأجزاء المفقودة من النسخة هي: نهاية الباب الثاني، والأبواب من الثالث إلى السابع، وكذلك نصف الباب الثامن، والنصف الثاني من الباب السابع عشر، والأبواب من الثامن عشر إلى الخامس و العشرين، وكذلك المثلث الأول من الباب السادس والعشرين، والشطر الأكبر من الباب 112، والأبواب من 113 إلى 181، وثلاثة أرباع الباب 186، ومعظم الباب 235، والأبواب من 236 إلى 303، وكذلك الثلثان الأولان للباب 304 من اثنين إلى أربع كراسات وأربع ورقات مفقودة.

(4) خيطت الورقة المزدوجة الخارجية للكراسة الثالثة خطأ من أعلى خلال عملية ترميم للمخطوطة أو إصلاح لها أجري في الماضي، وكذلك أقحمت الخماسية (كراسة مكونة خمس صحائف مزدوجة) التي تحمل أرقام الأوراق من 106 إلى 7115 (الكراسة الحادية عشرة الحالية) خطأ بين الورقتين 105 و 106 بينما كان ينبغي أن تقرأ بعد الورقة رقم 142. وأخيرا وضعت الورقة 123 خطأ بعد نهاية الكراسة الثالثة عشرة بينما هي التالية للورقة 153.
ترتيب القراءات: الأوراق 1-105، 116-142، 106-115، 144-153، 143، 154-165



وخطها أندلسي دقيق، تتميز في مجملها بآثار للمعرفة بعلم الخطاطة و نظام تسجيل الحركات وقد تمت مناقشته هذه القضايا في الندوات العلمية [1] المتخصصة و أذكر على سبيل المثال لا الحصر: الحركات الأفقية و نقط الحروف الساكنة، والشدة التي تأتي بين الحروف و سطر الكتابة التي تأخذ شكلا معينا حسب حروف العلة المرتبطة بها وهي: الألف و الواو و الياء.

وأريد أن أؤكد هنا على ميزة أخرى في هذا النص والتي كرس لها " فان كونينسفيلد" P.S.Van koningsveld في بحوثه بالفعل بعض الكلمات[2]، حيث ذكر أن: "الحركة غير المنطوقة في نهاية الكلمة تشبه الساكن الأول من الكلمة التالية، فعندما تكون هذه الأخيرة دولقية وهي صفة من صفات الأصوات التي تخرج من طرف اللسان، يحدث تشابه رجعي تام (الإدغام) أو جزئي(الإخفاء) و هو ما دوّنه "ابن خروف" بطريقة منهجية مهملا "السكون" على "النون" مضيفا "الشدة" على الحرف الساكن الموالي مدغما فيما بعده.

يتضح لنا ذلك من عبارة مثل: "ونحو هذا أكثر من أن يُحصى"، حيث إن بعض علامات حرف "النون" غير المنطوقة أدغمت مع "الياء" الافتتاحية ل" يحصي"، فأصبح الأمر يتعلق هنا بظاهرة صوتية فوق قطعية لا يدونها إملاء اللغة العربية إلا في القرآن.[3](*)

---

(1) انظر: P.S. Van koningsveld , The Latin-Arabic Glossary of the Leiden University Library New Rhune Publischers, Leiden 1977, p 27-31 وعرض: d'Alverny et F. Déroche Scriptorium XXXV, 198/1 p 117-120

(2) انظر المصدر السابق P.S.Van koningsvel, p 29-30

(3) وضع العلامات الصوتية بدقة على كلمات القرآنفي المصحف هو من قبيل ما قامت بع علماء اليهود على نص التوراة، وهو بمثابة دليل يستفاد منه في ترتيل القرآن على قواعد التجويد

(*) ويطلق علماء التجويد على ظاهرة إخفاء النون الساكنة في الياء المتحركة بعدها مصطلح (إدغام ناقص بغنة).

ولقد لاحظتُ وجود هذه الخاصية في الأندلس، إذ يعود ذلك ربما إلى تأثرهم بأعمال المُقرئ الأندلسي المشهور "أبي عمرو الداني" في إملاء اللفظ القرآني و ضبطه، وفي مخطوطات أخرى ل "كتاب" "سيبويه" المنسوخة في الغرب الإسلامي (المغرب أو الأندلس) و قد أشار "فانكونينسفيلد" إلى وجود ذلك الأمر أيضا في مخطوطة أخرى تحتوي على نص فريد ل"ابن رشد."

إن نسخة "إبن خروف" كتبت على ورق و بصورة مكثفة جدا تصل أسطرها إلى (36 سطرا في الصفحة) بقياس 230 x 169مم و تعديل 176 x 112مم، أما بالنسبة للحبر فهو بني داكن ثابت بدرجة أقل أو أكثر ويميل إلى الكشط والنسخة بدون تجليد مضطربة الترتيب[1].

ومن بين السمات البارزة للكتب المنسوخة بخط "ابن خروف" أود الإشارة إلى أن الأوراق المتطرفة لكل كتيب منسوخة على الرق، أما بقية النص فتتم كتابته على الورق، كما لو أن المقصود من ذلك استخدام الرق حماية للمواد التي ينظر إليها على أنها هشة وحديثة جدا أوتلك القابلة للتلاشي، وهذه التقنية على حد علمي لم تكن مستخدمة إلا في المخطوطات المكتوبة باللغة العربية في الأندلس[2].

---

(1) الأولى رباعية (كراسة مكونة من أربع صحائف مزدوجة) مبتورة حاليا، مفقودة منها أربع ورقات. نجد بعد ذلك خماسية أضيفت إليها الورقة 6، مرفوعة فوق الشريط الزائد (ورقة 15)، وتأتي بعد ذلك الكراسات الثالثة و الرابعة و الخامسة وهي خماسيات (45 ورقة)، ثم الكراسات الخمسة التالية (من السادسة إلى العاشرة) سداسيات (105 ورقة)، الكراسة الحادية عشر رباعية أضيفت إليها ورقتان (115 ورقة)، الكراسة الثانية عشر سباعية (129 ورقة)، الكراسة الثالثة عشر 6/ 7 أضيفت إليها ورقة مفردة (143 ورقة)، الكراسة الرابعة عشر خماسية (153 ورقة)، وأخيرا الكراسة الخامسة عشر سداسية (165 ورقة). يرجع التوزيع غير المتماثل للكراسة الثانية عشرة 4/ 4 بالإضافة إلى اثنتين، والكراسة الثالثة عشرة (6/ 7) إلى زمن النسخ. أما الكراسة الرابعة عشرة التي هي اليوم 5/ 5 فقد كانت في الأصل 6/ 5، وذلك لأن الورقة 143 ألحقت بباقي الكراسة الثالثة عشرة لتحقيق التماثل.

(2) لأمثلة أخرى على مزاوجة الورق و الرق، انظر الآتي:

←

يمكن للمرء أن يتسأل وباعتبار الزيارات المتكررة التي قام بها "ابن خروف" إلى المشرق ولا سيما إلى "سوريا"، ما إذا كان قد نسخ مخطوطته هذه الأندلس أو المشرق، ومع ذلك فبالإضافة إلى استخدام الرق والورق معا تبدو لنا العديد من المميزات الأخرى التي تدل على أن المخطوطة المذكورة تم نسخها على ورق أندلسي، ربما تكون صناعته قد تمت هناك.

و من بين المؤشرات الدالة على ذلك نجد شكل أوراق المخطوطة المعادة التشكيل والتي تم طيها مرة واحدة، كما أبرز ذلك "ج إيريغون"[1]، يُضاف إلى ذلك أن شكل الورق هنا أصغر من ذلك المصنوع في المشرق والمُستعمل في نسخ المخطوطات في نفس الحقب، ذلك أن المسافة الفاصلة بين السطور قد تبلغ 48 ملم في المتوسط وهذا التباعد الواسع جدا هو سمة أخرى مميزة للأوراق المصنوعة في الغرب الإسلامي.

إن ورق "U" المستخدم في نسخ المخطوطات الأندلسية سماه"أ فالس ي سوبيرا" ب " الورق المتعرج"[2] ولذلك فإن الأمر على الأرجح يتعلق بطباعة تم

_ M. Beit-Arié. Hebrew Cadicology. Paris, C.N.R.S. (I.R.H.T), 1976, P38-39
_ P.S.Van koningsveld, Op, cit., p 22-23
_ E. Gachet, Papier et Parchemin, IPLInformations. 1982/16., p 43

(1) J.Irigoin , « les types de formes utilisées dans l'Orient méditerranéen (Syrie, Egypte) du XIe au XIVe Siècle » dans Papiergeschichte 13 ,1963, p. 18-20، النماذج و الأشكال المستخدمة في شرق البحر الأبيض المتوسط (سوريا و مصر) من القرن الحادي عشر إلى القرن الرابع عشر.

(2) انظر على سبيل المثال الأوراق 86 و 95 بعنوان: « Arabian paper in Catalonia. Notes on Arabian Documents in the Royal Archives of the Kings of Aragon in Barcelona ». The Paper Maker 32, p21-30 1963 ,1، سوبيرا: الورق العربي في كتالونيا. تعليقات على الوثائق العربية في الأرشيف الملكي لملوك أرجون في برشلونة.

إنجازها بأداة غير معدنية، على ورقة لازالت مبللة للخروج بهذا الشكل، لكننا لا نعرف حتى الآن الهدف من وراء ذلك، إذ لم يُلاحظ هذا "التعرج" في ورق المخطوطات المنسوخة ما بين القرنين الثاني عشر والرابع عشر في كل من الأندلس والمغرب، فأقدم مخطوطة عربية لاحظتُ وجودها بهذا الشكل هي بالضبط نسخة "كتاب" "سيبويه" ل "ابن خروف" وأحدثها نسخة من كتاب طبع في "فاس" في القرن الرابع عشر ولذا يمكننا القول بإن لدينا مع مخطوطة "ابن خروف" منتجا آخر لتقنية صناعة كتاب قيد التداول تمت بين القرنين السادس و السابع الهجريين / الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين[1] بالأندلس.

---

(1) هي نسخة جامع مفردات الأدوية و الأغذية، لابن البيطار محفوظة بالمكتبة الوطنية بباريس برقم 9/ 4766



روعة النقد عند "ابن خروف":

وإذا كانت نسخة " ابن خروف" من كتاب "سيبويه" مثيرة جدا للاهتمام من وجهة نظر علم صناعة الكتاب في القرون الوسطى، فإنها لا تقل أهمية من حيث محتواها، والذي سوف أتطرق إليه فيما يأتي من هذا البحث.

ولتوضيح ضبط "ابن خروف" و دقته اخترت قراءة التعليقات و الطرر التي سطرها بيده و التي نجدها في الورقة العاشرة من مخطوطته أو في نهاية الفصل الواحد و الثلاثين من طبعة "الكتاب"، وحسب ترقيم "ديرنبرغ" تقع الملحوظة الأولى في الهامش الأيمن بين السطر الثالث والرابع من النص وتتألف من كلمات ل"عبد الله" الواقعة في الجملة:

"وقد يجوز أن تقول: "عبد الله أظنه منطلق" تجعل هذه الهاء على "ذاك" كأنك قلت "زيد منطلق أظن ذاك"، لا تجعل الهاء لعبد الله... "، وبالتالي ف"ابن خروف" يُقابل بعبارة "لعبد الله" التي كان قد نسخها أولا مع "لعبد الله" البديلة والتي وجدها في وقت لاحق في مخطوطة أخرى، مع ملاحظة أن النص المكتوب على الطرة يعلوه حرف "حاء" صغيرة والذي سوف نراه في الأمثلة المقبلة، كما يشير االناسخ نفسه إلى الأصل المتغير، أما التعليق الذي يتبعه ودائما في الطرة اليمنى فيذكر: "أن طريقة وضع الحركات توجد في نسخة "شين"، وإذا حاولنا أن نجد ما يشير إليه "ابن خروف"، نلاحظ أنه توجد على كلمة "يعني" الأخيرة من السطر الرابع دائرة صغيرة تم تفخيم أثرها ونفس الأمر في السطر السابع الذي يبدأ بالكلمات التالية: "إذا ألغيت أو لم تلغ فهو سواء".

نلاحظ أنه وضع فوق كلمة "سواء" دائرة ثانية مطابقة للدائرة الأولى، وبالنظر إلى نفس المقطع نجد أنه تم حذفه أو إغفاله في صفحة كاملة من طبعتي "ديرنبرغ" "الجزء الأول صفحة 51السطر 15" و "هارون " الجزء الأول، ص125"، و بهذا

فإنه يبدو واضحا جليا أن الأمر نفسه يشير إليه "ابن خروف" بشكل غير مباشر و قد تم حذفه من طبعات "كتاب""سيبويه"، مما يؤكد أنه لا يتوافق مع نص المخطوطات التي تستند عليها النسخ المطبوعة، وإذا لم نستطع معرفة النسخة المعتمد عليها، فإن ملحوظة هامشية تُشير على كل حال إلى أن "ابن خروف" استخدم على الأقل نموذجين من النماذج المعروفة وهما: نسخة اعتمدها لكتابة النص الأصلي ونسخة أخرى للمقابلة رمز إليها اختصارا بحرف "شين"، كما يمكن العثور في النص أيضا على مقطعين محاطين بدائريتين مشابهتين لتلك الموجودة في المثال السابق، فنجد واحدة منهما في منتصف السطر الثامن فوق حرف "و" و الثانية نجدها مباشرة بعد كلمة "سقيا" في السطر الذي يليه فوق كلمة "عاقل".

إذا عدنا الآن إلى الطبعات، نلاحظ أنه في طبعة "ديرينبرغ" (الجزء الأول، ص51، السطر17)، فالمقطع الذي ركز عليه "ابن خروف" يشبه المقطع الموجود في نسخة "شين" مع تغيير لحقه وهو:"وسترى ذلك إن شاء الله مبينا. وهو في ذلك.."، بينما قام "هارون" في الجزء الثاني، ص 125، السطر 7؛8؛9) بالجمع بين الروايتين.

أما بالنسبة لنسخة "ابن السراج"، فإن نسخة "شين" قريبة منها جدا، في حين أن نص هذه المخطوطات التي يُرمز إليها بحرف "حاء" و كذا نسخة "ابن السراج" تتفقان مع النص المكتوب في الصفحة الكاملة من مخطوطة "ابن خروف"، أما آخر ملحوظة ذات صلة بالفصل الواحد الثلاثين فهي كما يلي:

"المُعلم ثبت في كتاب حاء وابن السراج وهو لأبي الحسن في غيرهما"

وهذا يعني ما يلي: "إن ما يتعلق بموضوع الحركات ورد في كتاب "حاء" و "ابن السراج" غير أن نسخا أخرى ذكرت أنه يعود ل"أبي الحسن"، وفي هذا الإطار أن ما

يرتبط بالإشارات مذكور في آخر سطرين من هذا الفصل و ذلك من خلال دائرة صغيرة أولى وضعت فوق كلمة "تقول" (في السطر ما قبل الأخير) والثانية توجد في نهاية الفصل.

وعلى عكس ما حدث في الأمثلة السابقة، فقد احتفظت النسخ المطبوعة اللاحقة بنص يختلف عن النص الموجود في الصفحة الكاملة ل"ابن خروف"، وهو ما كان قد أشار إليه في الطرة من ظهور متغيرات إضافية في نهاية الفصل ومن خلال المقارنة يبدو أن هذا الأمر ظاهرة شائعة وأنه من غير المجدي محاولة العثور على تفاصيل تاريخ النص من خلال هذه النقطة بالذات.

إن الأمثلة التي ذكرتُها تكفي في الواقع لإظهار أننا نوجد بفضل تعليقات "ابن خروف" الموجودة على الطُرر داخل مفهوم نقدي حقيقي حيث المتغيرات فيه محددة بشكل جلي ومنظم، مع التأكيد أن هذه الأخيرة تشير إلى الأصول الحقيقية.

مع نص نسخة "شين" والطبعات المتداولة التي غالبا ما تتعارض مع النموذج الأصلي ل"ابن خروف" الذي نقرؤه في "المتن"، يبدو أن هناك نسختين من متن "كتاب سيبويه"، و الجدير بالذكر هنا أن مخطوطة "ابن خروف" هي التي تحافظ على كليهما في وقت واحد وبالتفصيل، وهذا الأمر يعد شاهدا مثيرا للاهتمام بتاريخ النص، غير أنه يبقى غامضا تحديد ما إذا كانت هذه النماذج السالفة الذكر ممكنة التطبيق.

نماذج "ابن خروف":

بالطريقة التي عرضت بها المخطوطة، يبدو واضحا أن "ابن خروف" قد أكمل "الكتاب" و ذلك عندما أضاف له ملحوظات و طررا هامشية، وإذا أهملنا النسخ المجهولة المصدر المذكورة في الملحوظة الرابعة وكذلك نسخة "أبي الحسن"[1] الذي لم يذكر إلا في النسخ المجهولة، فقد استخدم "ابن خروف" ثلاثة أحرف للإشارة إلى مصدر معلوماته و هي: "حاء" و "شين" و كتاب "ابن السراج "، وإذا أضفنا المخطوطة الأساسية ل"ابن خروف" (والتي اعتمد عليه لكتابة المتن)، نجد أنفسنا أمام أربع مخطوطات قد لا تتوافق أو لا تتوافق بالضرورة مع النماذج.

وقد أفادتنا ملحوظة كتبها بخط يده في نهاية مخطوطة "باريس" و الموجودة في الواقع في ورقة 164:

"انتهت المعارضة بالأصلين المذكورين و الحمد الله".

وإذا عدنا للمخطوطة و حاولنا العثور على محل ذكر "ابن خروف" لنماذجه فإننا نرى أنه يشير إلى أولها في بداية "الكتاب" في المخطوطة الأولى حيث يقول: "لقد وجدت على ظهر كتاب "أبي نصر" مكتوبا بيد القاضي "أبي بكر" (...)، الكلمات التالية: "قرأت كتاب سيبويه بأكمله على "أبي نصر هارون بن موسى النحوي" الذي قال لي: "قرأته كاملا على "أبي عبد الله محمد بن يحيى الرباحي، رحمه الله"[2]، وبما أن "ابن خروف" أتيحت له الفرصة لقراءة ما في مقدمة نسخة "كتاب

---

(1) هو أبو الحسن الأخفش، أول ناقل للكتاب. وسنلاحظ أن الأمر متعلق بمرجعية حجة، وليس نسخة كما في الحالات الأخرى.

(2) يتبع قائمة من الناقلين تصعد حتى سيبويه بوساطة سلسلة من العلماء الحجج الأثبات المشهود لهم نجدها في اللوحة رقم 2



سيبويه"[1] ل "أبي نصر هارون بن موسى"، فإنه بالتأكيد قد وضع نسخته من خلالها.

إن المخطوطة الأصلية ل "أبي نصر"هي في الواقع واحدة من النسخ الأكثر شهرة ل"كتاب سيبويه" و التي تلقاها من شخصين لا جدال فيهما وهما: "أبو عبد الله محمد بن يحيى الرباحي"، الذي يرجع إليه الفضل في إدخال مصادر جديدة أثناء قدومه للأندلس (وهو ما سوف نجده في شجرة الأنساب في اللوحة 2) و"أبو علي القالي"، مؤلف "الأمالي" الشهير،

ومن ثم فإن "ابن خروف" اعتمد في نسخته على المخطوطة الأهم و الأضبط من مخطوطات "كتاب سيبويه" التي دخلت الأندلس في عصره، وأما الإشارة إلى النموذج الثاني ل"ابن خروف" فموجودة في المخطوطة بطريقة غير مباشرة أيضا، وهو ما سطره في نهاية "الكتاب" من بيانات في (الورقة164) حيث قال: "رأيت في نسخة عتيقة شرقية "، وهي النسخة التي نلمح فيها كتابة "أبي علي الفارسي"- رحمه الله - والذي كان قد نسخ مخطوطته عن أصل "أبي بكر بن السراج"، ومن المؤكد أن "ابن خروف" يشير لهذه النسخة و يرمز لها بحرف "شين" أي نسخة شرقية.[2]

ووفقا لملحوظة "ابن خروف" فإن النسخة "الشرقية" تومئ إلى "أبي علي الفارسي"[3] الذي نعرف أنه جمع عددا هائلا من نسخ "كتاب سيبويه" القديمة التي

---

(1) هذا ما يشهد عليه، من بين شهادات أخرى، ناسخ مخطوطة الكتاب المحفوظة بمكتبة الإسكوريال (casiri 1) بقوله: " قابلت كتابي هذا بأصل الأصول، أصل الأندلس الذي بخط العالم العلم الأستاذ أبي نصر هارون بن موسى".

(2) نعلم من تراجم ابن خروف أنه سافر مرتين على الأقل إلى سورية، ولعله قد اكتشف النسخة الشرقية في ذلك البلد

(3) انظر ترجمة الحسن بن أحمد بن عبد الغفار الفارسي في: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، 1964- 1995، المجلد 1، ص 496 - 498

نسخها بنفسه أو أمر بنسخها على أصل مرفق بحروف ترمز اختصارا لمؤلفيها، لقد كان "أبو علي" يشير بصفة مختصرة[1] جدا لأستاذيه " ابن السراج"[2] و كذا "الزجاج"[3].

ولذلك فإن "ابن خروف" استطاع الاستفادة من "نسخته الشرقية"و ذلك من خلال الملحوظات التي كانت موجودة في نسختي هذين الطالبين الشهيرين ل "المبرد" و هما على التوالي "ابن السراج" و "الزجاج".

ومن هنا نرى بوضوح أن نسخة "ابن خروف"منقول متنها عن نسخة "أبي نصر هارون بن موسى"، أما "الطرر" فتشير إلى مخطوطة شرقية عتيقة كان عارفا بها وهي تعيد الاختلافات أو التعليقات لنسختي "ابن السراج" أو "الزجاج" و التي أشارلها بحرف "حاء".

أصل نماذج "ابن خروف":

ويبدو أن نموذجي "ابن خروف" يوافقان نسختين من "كتاب سيبويه" وللعثور على أصل الاختلاف بينهما يجب الرجوع إلى شجرة اللوحة 2، حيث وضحت سلسلة نسخ نموذجي "ابن خروف".

---

(1) جمعت هذه المعلومات في تعليق لأحد النساخ موجود في طبعه ديرينبورج، المرجع السابق، المقدمة، ص 7، الموجودة في نسخته 8، وكذلك في عدد كبير من النسخ الحديثة للكتاب في إبرازاته المشرقية. وحول تاريخ نص الكتاب لسيبويه، بوجه عام، انظر أطروحتي للدكتوراه التي عنوانها: (البحوث الأولى حول" الكتاب") لسيبويه، المجلد الأول: طرق الانتشار. المجلد الثاني: المخطوطات، التي ستنشر قريبا تحت عنوان (طرق انتشار " الكتاب" لسيبويه).

(2) انظر ترجمة محمد بن السري أبي بكر بن السراج في المصدر السابق للسيوطي، المجلد 1، ص 109 – 110

(3) انظر ترجمة ابراهيم بن السري أبي إسحاق الزجاج في: المصدر السابق للسيوطي، المجلد1، ص 411 – 413.

يمكن تقسيم ذلك الجدول إلى مرحلتين: الأولى من "سيبويه" إلى "المبرد" و الثانية تجمع اثنين من طلاب "المبرد أي "الزجاج" و "ابن السراج" وصولا إلى "ابن خروف"، لقد ظهرت في الواقع في بداية المرحلة الثانية نسختان ل"كتاب سيبويه": واحدة "أندلسية" وأخرى "مشرقية" حيث لكل واحدة منهما خصائص تميزها عن الأخرى.

كانوا الأندلسيون في الغالب يميلون إلى الأصول، وهو على ما ينطبق على "الزجاج"، لأنه وفقا لبعض مصادر[1] سيرته الذاتية، فقد كانت في الواقع نسخته من "كتاب سيبويه" أكثر دقة و كمالا مما دفع ب"المبرد" لإرسال طلابه إليه، فقصدوه بدورهم بغية دراسة "كتاب سيبويه" عليه، حيث رحل اثنان من طلابه المصريين "أبو القاسم بن ولاد" و"أبو جعفر النحاس"، وقد نقلا إلى مصر نسخة "الزجاج" و درّساها، كما وفد إلى القاهرة الأندلسي "الرباحي"[2] للإستفادة من هذين الأستاذين قبل أن يعود إلى الأندلس بنسخة من "كتاب سيبويه" ستشكل أصلا و أساسا لتنقيح جديد.

كما أننا نجد الناقل الأكثر شهرة لنسخة "الرباحي" من "كتاب سيبويه" المسمى " أبو نصر هارون بن موسى"، وقد كانت نسخته واحدة من اثنتين من نماذج نسخة "ابن خروف" وهي الأهم في الواقع لأنها النموذج الذي يعتمده في النص الكامل لنسخته.

إن أصل النص الشرقي المنقح هو ل"أبي علي الفارسي" الذي كان قد "قرأ" "كتاب سيبويه" تحت إشراف "ابن السراج" الطالب الثاني للمبرد، فوضع نسخته

---

(1) ذلك ما يؤكده _ على سبيل المثال_ النحوي الإشبيلي أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي في كتابه " طبقات النحويين واللغويين"، تحقسق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، 1945، ص 119

(2) انظر ترجمة عبد الرحمان محمد بن يحيى الرباحي (ت 358ه / 969م) في كتاب الزبيدي المصدر السابق ص 335 – 340

من "كتاب سيبويه" على منوال أنموذجه، ثم أضاف إلى نسخته في وقت لاحق التعليقات التي وجدها في المخطوطات المختلفة وخاصة من نسخة كانت بحوزة "الزجاج" والتي كان عليه أن يرمز إليها بحرف "حاء ".

إن قصة تينك الملاحظتين النقديتين تعززهما جميع المخطوطات التي أتيح لي الاضطلاع عليها ويتبقى لي فقط توضيح واحد هو أن المخطوطة التي اعتمدها "ديرينبورغ" أصلا تجمع في نهاية المطاف جميع الطبعات المستخدمة وهي تلك المنحدرة بطريقة غير مباشرة [1]من نسخة "أبي علي الفارسي". وهي شاهدة على النسخة "المشرقية" المنقحة ل"كتاب سيبويه" وهذا هو السبب الذي جعلنا نلاحظ وجود تقارب بين النصوص الموجودة في متن نسخة "شين" والطبعات الحديثة.

---

(1) يبين التعليق المهم للناسخ، المشار إليه بالرقم 24، أن الزمخشري نقل نسخته من الكتاب من مخطوطة نسخت من نسخة أبي علي الفارسي. نسخة الزمخشري مفقودة ولكن النسخة المحفوظة بمكتبة جوروم بتركيا (il Halk Kutuphanesi, Umumi Usul 2562-2565) هي أبو جراف (aporaphe)(نسخة تؤخذ من رواية أخرى بدون وسيط). في القرن الثامن عشر جرى نسخ من مخطوطة جوروم، من بينها النسخة A لديرينبورج.

ولي بحث حول مخطوطة جوروم بعنوان: Un manuscrit du Kitàb de Sibawayhi et ses descendants

في /Anatolia Moderna-Yeni Anadolu I, Bibliothèque de L'I.F.E.A. d'Instanbul XXXIII "Adrien Maisonneuve, Paris 1991 النسخة من "الكتاب " لسيبويه وسلالتها ".

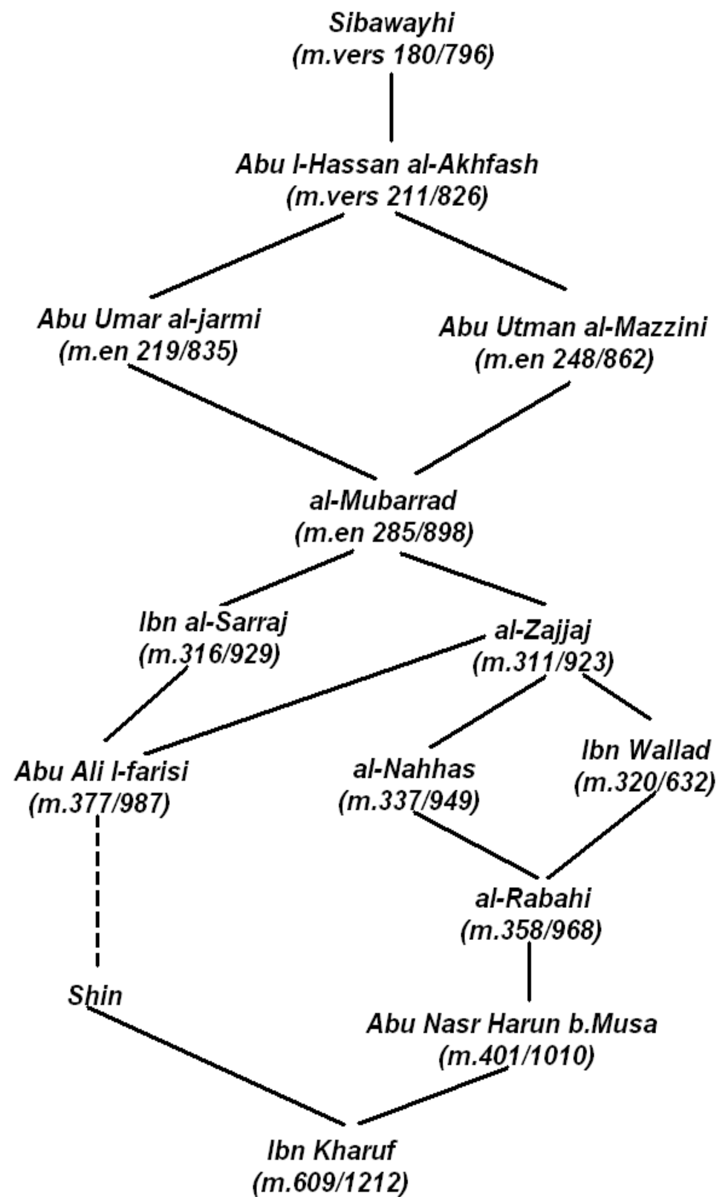
خاتمة:

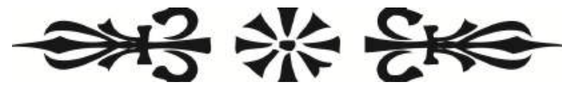
تعتبر نسخة "ابن خروف" حاليا الشاهد الأقدم و الأكثر شمولا و الأوفي لأصلين مفقودين اليوم و هما أصل الأندلسي "أبي نصر هارون بن موسى" و أصل " أبي علي الفارسي"، و باعتماد "ابن خروف" على نسخة "أبي نصر هارون" يكون قد استند على أصل نفيس يمثل أقدم نسخة معتمدة في المشرق والأندلس، ويكون الأمر كذلك عند إعادة اكتشاف نسخة "كتاب سيبويه" في المشرق ل"أبي علي الفارسي" والتي يمكن اعتبارها نسخة نقدية مشرقية أخرى و مرجعا نفيسا كذلك.

تشكل النسختان اللتان احتفظ لنا بهما "ابن خروف" بشكل آني في متنهما، النسختين اللتين نجدهما بشكل منفصل في الغالبية العظمى من المخطوطات المحفوظة لدينا أي في تسعة وخمسين من ستين نسخة من نسخ "كتاب سيبويه" التي اطلعت عليها لحد الآن، ويبدومن خلال ما سبق ذكره أن نسخة "ابن خروف" هي أقدم نسخة نقدية يُمكن أن يجدها المرء للنسختين النقديتين المنقولتين عن"المبرد"[1]، كما أن نسخة "ابن خروف" تُمثل دون ريبة و لا شك وفقا للمصادر الأكثر حجية في النقد المشرقي والأندلسي أفضل نسخة من النسخ الكلاسيكية ل"كتاب سيبويه"على الإطلاق، كما يمكنها أن تنافس أفضل النسخ الحديثة بالنظر إلى تناسقها و دقتها وتميزها.

(1) نلحظ أن الدروس التي أولاها ابن خروف تنتهي عند المبرد، على حين نعلم من طريق شواهد أخرى أن "الكتاب" قد انتشر منذ القرن الثالث للهجرة / التاسع للميلاد، عبر طرق أخرى غير تلك التي سارت من الأخفش إلى المبرد مرورا بالمازني والجرمي، وأكثر تلك الشواهد ظهورا هي مخطوطة ميلانو (انظر هامش (4)، ص 220) التي تتضمن رواية أصلية ل "الكتاب" هي الوحيدة المعروفة اليوم بأنها لم تقع تحت التأثير القوي لنسخة المبرد. وعلى ذلك ينبغي ألا تغيب عن أذهاننا حدود عمل "ابن خروف".




Planch2
Sibawayhi
(m.vers 180/796)
Abu l-Hassan al-Akhfash
(m.vers 211/826)
Abu Umar al-jarmi
(m.en 219/835)
Abu Utman al-Mazzini
(m.en 248/862)
al-Mubarrad
(m.en 285/898)
Ibn al-Sarraj
(m.316/929)
al-Zajjaj
(m.311/923)
Abu Ali l-farisi
(m.377/987)
al-Nahhas
(m.337/949)
Ibn Wallad
(m.320/632)
al-Rabahi
(m.358/968)
Shin
Abu Nasr Harun b.Musa
(m.401/1010)
Ibn Kharuf
(m.609/1212)



المحور الثانِي

كتاب سيبويه وعُلوم القُرآن

لُغَةُ القُرآن الكَريمِ في نَظَرِيَّةِ سِيبَوَيْهِ النَّحْوِيَّةِ

د. نَصْر الدّين وهّابي

أُسْتاذُ اللُّغَة العَرَبِيّة والقُرْآنِ الكَريم بِكُلِّيَّةِ الآدابِ واللُّغاتِ

بِجامِعَةِ الوادي بالجَزائر

مُقَدِّمَة:

إِنَّ الكلامَ عَنْ سِيبويهِ يَفُوقُ، فِي مَقامِهِ، الكلامَ عَنْ غَيْرِهِ مِنَ النُّحاة؛ فالبَحْثُ في الواحدِ مِنْهُمْ هُوَ بحثٌ في جُهُودِهِ في اللُّغةِ وعُلُومِها، وفي مُشاركتِهِ في الإجابَةِ عَنْ أَسْئِلَتِها، أمّا البَحْثُ عَنْ سِيبوَيْهِ فَفي شَيْءٍ آخَر، هُوَ بحثٌ في إمَامَتِه، وفِيما يُفَسِّرُ ارْتِقَاءَهُ المَقامَ الأَعْلى في اللُّغَةِ وعُلُومِها، وفِيما أَعْيا العُلَماءَ مِنْ بَعْدِهِ عَنْ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ مَا أَتى بِهِ في كِتابِهِ العَجِيب.

ونُؤَسِّسُ لِكَلِمَتنا فِيه عَلى أَنَّ الرَّجُلَ إِنَّما بَلَغَ ما بَلَغَ بِما مَعَهُ مِنْ عِلْمِيَّةٍ في التَّفْكير، ورَصَانَةٍ في المَنْهَجِ، وعُمْقٍ في التَّنْظِير، وإِحْكامٍ في التَّطْبِيق.

وَاعْتِقادُنا أَنَّ خَيْرَ ما يَعْتَمِدُهُ الباحِثُ لِتَفْسيرِ إمامَةِ سِيبَوَيْهِ هُوَ مَبادِئُ التَّفْكيرِ العِلْمِيِّ عِنْدَه، وأُسُسِ التَّطْبِيقِ لَدَيْه، ولَقَدْ رَأَيْنا لِغَيْرِ واحِدٍ مِنَ النُّحاةِ، واللُّغَوِّيينَ شَيْئًا مِنَ الوَهَنِ في هَذا الأَمْرِ بالذَّاتِ، وبخاصَّةٍ إذا تَعَلَّقَ الأَمْرُ بِبَحْثِ لُغَةِ القُرْآنِ الكريم، فَإِنَّ كَثيراً مِنْهُمْ لَمْ يَكُنْ في مُسْتَوى كافٍ مِنْ ضَبْطِ الصِّلَةِ بَيْنَ ثَقافَتِهِ اللُّغَوِيَّةِ، وصِناعَتِهِ النَّحْوِيَّة، وبَيْنَ ما يَجِبُ في حَقِّ القُرْآنِ الكَريم مِنْ جِهَةِ بحثِ لِسَانِهِ، ودَرْسِ بَيَانِه، في الوَقْتِ الذي لَمْ نَرَ مِنْهُ شَيْئًا عِنْدَ سِيبَوَيْه؛ فَالرَّجُلُ ذُو مَنْهَجٍ،

وصَاحِبُ نَظَرِيَّةٍ هِيَ مِنَ الانْضِباطِ العِلْمِيِّ، ومِنْ وُضُوحِ الحُدُودِ، بِحَيْثُ لَمْ نَلْقَهُ تَجَاوَزَ فِي حَقِّ لُغَةِ القُرْآنِ وَلَوْ بِأَقَلِّ قَدْرٍ.

وَبَعْدُ، فَهَذِهِ كَلِمَةٌ فِي الكَشْفِ عَنْ رَصانَةِ سِيبَوَيْهِ المَنْهَجِيَّةِ التي تُقَدِّمُ لَنا وَجْهاً مِنْ وُجُوهِ إِمَامَتِهِ، وجَانِباً مِنْ جَوانِبِ رِئاسَتِهِ، وَغَايَتُنا هِي الاِجْتِهادُ فِي تَفْسِيرِ هذِهِ المَرْتَبَة، لا فِي إِثْباتِها؛ فَمَقامُ سِيبَوَيْه أَظْهَرُ مِنْ أَنْ يُؤْتَى فِيه بِمَزِيدٍ.

المَبْحَثُ الأَوَّلُ:

1/ المُطَّرِدُ قَبْلَ القُرْآنِ الكَرِيم:

نُؤَسِّسُ القَوْلَ هُنا عَلى أَنَّ مَدَنِيَّةَ الإِنْسانِ بِطَبْعِهِ[1] تَقْضِي، لِزاماً، بِأَنْ تَكونَ لَهُ مَنْطِقَةٌ جَامِعَةٌ فِي كُلِّ شَأْنٍ مِنْ شُئُونِ حَياتِهِ العَامَّةِ التي تَجْمَعُهُ بِغَيْرِه؛ فَفِي الاِقْتِصادِ سُوقٌ جامِعَة، وفِي السِّياسَةِ عاصِمةٌ جَامِعة، وفِي الثَّقافَةِ مِنْبَرٌ إِبْداعِيٌّ جَامِع، وهَكَذا، ويَفْتَرِضُ حُصولُ ذَلِكَ وُجودَ مَدِينةٍ جَامِعة.

ولَمّا كانَ العربيُّ مِمَّنْ يَصْدُقُ عَلَيْهِ قَانونُ التَّمَدُّنِ بِالطَّبْعِ فَقَدْ عَرَفْنا لَهُ:

- أَسْواقًا كَثيرةً تَأْتيها القَبائِلُ مِنْ كافَّةِ جِهاتِ الجزيرةِ العَرَبيَّة؛ لِما فِي مَكَّةَ مِنَ الأَمْنِ عَلَيْهِمْ، وعَلى أَموالِهِمْ، ولَقَدْ أَحْصى القُرْآنُ الكريمُ عَلَيْهِمْ هَذِهِ النِّعْمَةَ فِي قَوْلِهِ تَعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ ۝٤ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٥﴾[2]، وقَالَ أَيْضاً: ﴿وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن

(1) يَقُولُ ابْنُ خَلْدون: "يُعَبِّرُ الحُكماءُ عَنْ هَذا بِقَوْلِهِمْ: "الإِنْسانُ مَدَنِيٌّ بِالطَّبْع"؛ أَيْ لابُدَّ لَهُ مِنْ الاِجْتِماعِ الذي هُوَ المَدَنِيَّةُ فِي اصْطِلاحِهِم"، يُنْظَر: عَبْدُ الرَّحْمن بْنُ خَلْدون، المُقَدِّمة، تحقيق: أَحْمد جَاد، رَاجَعَه وقدَّمَ له: أ.د/ عَبْد الباري محمد الطّاهر، دارُ الإِمامِ البُخاري، دارُ الغَدِ الجديد، القاهرة، الطَّبْعَة الأُولى، 2007، ص: 53.

(2) سُورةُ قُرَيْش: الآياتُ كُلُّها.



لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾[1]، وَأَبْرَزُ أَسْواقِ قُرَيْشٍ سُوقُ عُكاظ؛ ولَقَدْ كَانَتْ كَما قِيلَ فِي وَصْفِها: "السُّوقُ التِّجارِيَّةُ الكُبْرى لِعَامَّةِ أَهْلِ الجزيرَة، يُحْمَلُ إِلَيْها مِنْ كُلِّ بَلَدٍ تجارَتُهُ، وصِناعَتُهُ، كَما يُحْمَلُ إِلَيْها أَدَبُه؛ فَإِلَيْها يُجْلَبُ الخمْرُ مِنْ هَجَرَ، والعِراق، وغَزَّةَ، وبُصْرى، والسَّمْنُ مِنَ البَوادي، ويَرِدُ إِلَيْها مِنَ اليَمَنِ البُرُودُ الـمُوَشَّاةُ، والأَدَمُ، وفِيها الغَالِيَةُ، وأَنْواعُ الطِّيبِ، وأَدَواتُ السِّلاح، ويُباعُ فيها الحريرُ، والوِكاءُ، والحذاءُ، والـمَسِيرُ، والعَدَنيّ، يَحْمِلُها إِلَيْها التُّجَّارُ مِنْ مَعادِنِها، وفِيها مِنْ زُيُوتِ الشَّام، وزَبِيبِها، وسِلاحِها ما اعْتادَتْ قُرَيْشٌ أَنْ تَحْمِلَهُ فِي قُفولِها إِلى مَكَّة، ويُعْرَضُ فيها كَثيرٌ مِنَ الرَّقِيق، الذي يَنْشَأُ عَنِ الغَزْوِ، وسَبْيِ الذَّراري؛ فَيُباعُ فِيها الـمَتاعُ التِّجاريّ، ويَبِيعُ فيها كُلُّ غَازٍ سَلَبَه[2]."

– دَوْرُ أَعْيانِ قُرَيْشٍ وبُيُوتاتِها في الشَّأْنِ السِّياسِيّ؛ فَأَوَّلُ سَادةِ قُرَيْشٍ، وهُوَ قُصَيُّ بْنُ كِلابٍ كَانَ أَوَّلَ ما ابْتَدَأَ بِهِ مَجْدَ مَكَّةَ بِأَنْ "مَكَّنَ دَعائِمَ قُرَيْشٍ، ونَظَّمَ أُمُورَهُمْ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ دَارِهِ التي اتَّخَذَها لِنَفْسِهِ، وجَعَلَ بابَها إِلى الكَعْبَةِ مَجْلِسَ شُورى لِقُرَيْشٍ، ودَارَ حُكومَةٍ مَعـًا، وسَمَّاها دَارَ النَّدْوَة"[3]

– وعُكاظُ فِي الشَّأْنِ الثَّقافِيِّ هِيَ كَما يَلي :"عُكاظُ هِيَ الـمَعْرِضُ العَرَبيُّ العامُّ أَيَّامَ الجاهِلِيَّة، مَعْرِضٌ بِكُلِّ ما لهِذِهِ الكَلِمَةِ مِنْ مَفْهوم لَدَيْنا، نحنُ أَبْناءَ هَذا العَصْر؛ فَهِيَ مُجَمَّعٌ أَدَبِيٌّ لُغَوِيٌّ رَسْمِيٌّ، لَهُ مُحَكَّمُونَ تُضْرَبُ عَلَيْهِمُ القِباب، فَيَعْرِضُ شُعَراءُ كُلِّ قَبِيلةٍ عَلَيْهِمْ شِعْرَهُمْ، وأَدَبَهُم، فَما اسْتَجادُوهُ فَهُوَ الجَيِّدُ، وما بَهْرَجوهُ فَهُو الزَّائِف، وحَوْلَ هَذِهِ القِبابِ الشُّعَراءُ، والرُّواةُ مِنْ عَامَّةِ الأَقْطارِ العَرَبِيَّةِ، فما يَنْطِقُ الحَكَمُ بِحُكْمِهِ حَتى يَتَنَاقَلَ أُولَئِكَ الرُّواةُ القَصِيدَةَ الفَائِزَةَ فَتَسِيرَ فِي أَغْوارِ الجزيرةِ وأَنْجادِها، وتَلْهَجَ بها الأَلْسُنُ فِي البَوادي والحواضِر، يَحْمِلُ إِلى هَذِهِ

(1) القَصَص: 57.

(2) سَعِيدُ الأَفْغاني، أَسْواقُ العَرَبِ فِي الجاهِلِيّة والإِسْلام، دارُ الفِكْر للطِّباعةِ والنَّشْرِ والتَّوزيع، القاهِرة، الطَّبْعةُ الأُولى، 1974، ص:277.

(3) سَعِيدُ الأَفْغاني، أَسْواقُ العَرَبِ في الجاهِلية والإِسْلام، ص 98.

السُّوقِ التِّهاميُّ، والحجازِيُّ، والنَّجْدِيُّ، والعِراقِيُّ، واليَمامِيُّ، واليَمَنِيُّ، والعُمانيُّ، كُلَّ أَلْفاظِ حَيِّه، ولُغَةِ قُطْرِه، فَما تَزَالُ عُكاظٌ بهذهِ اللَّهَجاتِ نَـخْلاً، واصْطِفاءً، حتى يَتَبَقَّى الأَنْسَبُ، والأَرْشَقُ، ويُطْرَحُ الـمَجْفُوُّ الثَّقِيلُ"[1]

– والكَعْبَةُ الـمُشَرَّفَةُ كانَتْ، في الشَّأْنِ الدِّينيِّ مَهْوًى لأَفْئِدَةِ النّاس، وحَسْبُكَ في ذلكَ الخبرُ الصَّادِق، ولَقَدْ بَلَغَ مِنْ حُبِّ العَرَبِ مَكَّةَ، وكَعْبَتَها الـمُشَرَّفَةَ أَنْ قَدْ كانَت الحالُ عَلى نحوِ ما وَصَفَ ابْنُ الكَلْبيِّ في كِتابِهِ الأَصْنام، قَال: "كَانَ لا يَظْعَنُ مِنْ مَكَّةَ ظَاعِنٌ إِلّا احْتَمَلَ مَعَهُ حَجَراً مِنْ حِجارَةِ الحرَم ، تَعْظيماً لِلْحَرَم، وصَبابةً بِـمَكَّة، فَحَيْثُما حَلُّوا وَضَعُوه، وطَافُوا بِهِ كَطَوافِهِمْ بالكَعْبَةِ تَيَمُّنًا مِنْهُمْ بها، وصَبابَةً بِالحرَمِ، وحُبّاً لَه"[2]

وذَلك كُلُّهُ أَلْفَيْناهُ مَجْموعاً في بَلْدةٍ جَامِعةٍ: هِي مَكَّة؛ ومَكَّةُ سَمَّاها القُرْآنُ الكريمُ: "أُمَّ القُرى"، قَالَ تَعَالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾[3] ؛ قَالَ ابْنُ مَنْظورٍ: "وَأُمُّ القُرى: مَكَّةُ؛ شَرَّفَها الله تَعَالى؛ لأَنَّها تَوَسَّطَتْ الأرضَ، فِيما زَعَمُوا، وقِيلَ: لأَنّها قِبْلَةُ جميعِ النَّاسِ يَؤُمُّونها، وقِيلَ: سُمِّيَتْ بِذَلكَ لِأَنَّها كانَتْ أَعْظَمَ القُرى شَأْنًا، ...، وكُلُّ مَدينةٍ هِيَ أُمُّ ما حَوْلها مِنَ القُرى"[4]

وطَبيعةُ الفِعْلِ التَّمْدينيِّ تَقْضي بأنْ تُمارَسَ كلُّ تلكَ الشُّؤُونُ بلغةٍ جامِعةٍ، وهيَ، ولابُدَّ، لُغةُ البَلْدةِ الجامعة؛ لُغةُ قُرَيْش؛ بما هي الأَقْوى؛ فَلُغةُ قُرَيْش، بِالاعْتِبارِ الاقْتِصاديِّ هِيَ لُغَةُ العُقُودِ، والـمُعامَلات، ولُغَةُ قُرَيْشٍ، بالاعْتبارِ الاجْتِماعيِّ، هِيَ

---

(1) أَسْواقُ العربِ في الجاهِلِيّة والإِسْلام، ص: 277.

(2) أَبُو الـمُنْذِر هِشامُ بْنُ محمَّدِ بْنِ السَّائبِ الكَلْبيّ ، كِتابُ الأَصْنام، ، تحقيقُ الأُسْتاذِ أَحْمد زكيّ باشا، دارُ الكُتُبِ الـمِصْريّة بالقاهِرة، الطَّبْعة الثّالثة، 1995، ص: 06.

(3) الشُّورى: 05.

(4) ابْنُ مَنْظور، لِسانُ العَرَب، تحقيق: ياسِر سُلَيْمان أبو شادي، ومَجْدي فَتْحي السَّيِّد، الـمَكْتَبَةُ التَّوْفِيقيَّة، مصر، (د-ت)، 1/ 263.

لُغَـةُ التَّواصُـلِ الـمُشْتركِ الـمُصَفَّى مِـنَ الخُصُوصِـيَّاتِ اللَّهَجِيَّـةِ القَليلـةِ الحـظِّ مِـنَ الفَصاحةِ؛ بما هِيَ قَليلةُ الحظِّ مِنَ الفَهْم؛ إِذْ فَهْمُها محصورٌ ضِمْنَ حُدودِ القبيلةِ التي تَتكَلَّمُ بها، وهَذِهِ اللَّهَجاتُ هِـيَ، بهـذا الاِعْتِبـارِ، مَوْصـوفةٌ بِنُعـوتٍ دالَّـةٍ عَلـى هُبـوطِ القِيمةِ الاجْتِماعِيَّةِ مِنْ مِثْلِ: رَدِيئة، قَبِيحة، هَابطة، ... ، قَـالَ ابْـنُ فَـارِسٍ: " أَجْمَـعَ عُلَماؤُنا بِكلامِ العَرَبِ، والـرُّواةُ لأَشْـعارِهِم، والعُلَمـاءُ بِلُغـاتِهِم وأَيّامِهِم، أَنَّ قُرَيْشـًا أَفْصحُ العربِ أَلْسِنةً، وَأَصْفاهُم لغةً، وذَلِـك أنَّ الله، جَـلَّ ثَنَـاؤُهُ اخْتـارَهُم مِـنْ جميـعِ العربِ واصْطَفاهُم، واخْتارَ مِنْهُم نبيَّ الرَّحمةِ محمداً صـلى الله عليـه وسـلم، فَجَعَـلَ قُرَيْشـًا جِيـرانَ بَيْتِـه الحـرامِ وَوُلاتِـه، فكانَـتْ وُفُـودُ العَـرَبِ مِـنْ حُجَّاجِهـا، وغَيْـرِهِم، يَفِدونَ إلى مَكَّةَ لِلْحَجِّ، ويَتَحاكَمونَ إلى قُرَيْشٍ في أُمـورِهِم، وكانَـتْ قُـرَيْشٌ تُعَلِّمُهُـم مَناسِـكَهُم، وتـَحْكُمُ بَيْـنَهم، ..، وكَانـتْ، عَلـى فَصـاحَتِها، وحُسْـنِ لُغاتهـا، ورِقَّـةِ أَلْسِـنَتِها، إِذا أَتَـتْهُمُ الوُفـودُ مِـنَ العَـربِ تَخَيَّـروا مِـنْ كَلامِهِـمْ، وأَشْـعارِهِمْ، أَحْسَـنَ لُغاتِهم، وأَصْفى كَلامِهِم، فاجْتَمَعَ ما تَخَيَّرُوا مِنْ كَلامِهِم، وأَشْعارِهِمْ إلى نَحائِزِهِم، وسَلائِقِهِمْ التي طُبِعُوا عَلَيْها فصَاروا بِذَلِكَ أَفْصَحَ العَرَب"[1]

ويَنْبَغي أَنْ نَعْرِفَ أَنَّ فَصاحَةَ لُغةِ قُرَيشٍ مَبْنِيَّةٌ على الخُلُـوِّ مِـنْ هَـذِهِ الخُصُوصِـيَّاتِ اللَّهَجِيَّة، وأنَّ فَصاحةَ اللَّهَجاتِ العَرَبيَّةِ الأُخْـرى مَبْناهـا عَلـى الخُلُـوِّ مِـنَ الأَعْجَمـيّ، يَقُولُ الدُّكْتورُ مُـخْتار الغَوْث: "إنَّ اللُّغَوِيِّينَ إذا نَسَبُوا الفَصـاحةَ إلـى قَـيْسٍ، وَتَمـيمٍ، وأَسَدٍ، وهُذَيْلٍ، أَوْ أَزْدِ السَّراة، أَوْ هَوازِنَ، أَوْ ثَقِيف، أَوْ جَرْم، أَوْ قُعَيْنِ نَصْـرٍ، أَوْ نَصْـرِ قُعَيْنٍ، يَعْنُونَ بِالفَصاحةِ مَعْناهـا الثّـاني؛ أي الخُلُـوصُ مِـنَ التَّـأَثُّرِ بلُغـاتِ العَجَـم؛ لأَنَّ مَساكِنَ هَذِهِ القَبائِلِ نَائِيَةٌ عَنِ الحواضِـرِ، وعَـنِ الأُمَـمِ الأَجْنَبِيَّـةِ مِـنْ جَمِيـعِ الجِهـاتِ، ...، فَدَلالةُ الفَصَاحةِ حِينَ تُنْسَبُ إلى قُرَيْشٍ غَيْرُ دَلالتِها حِين تُنْسَبُ إلى واحدةٍ مِـنْ تِلك، ويُسْتَخْلَصُ مِنْ هذا أَنَّ لُغةَ أَهْلِ الحَضَرِ هِـيَ اللُّغـةُ الـمُهَذَّبَةُ التي سَـلِمَتْ مِـنَ

---

(1) ابْنُ فارس، الصّاحِبيُّ في فِقْهِ اللُّغة، ص: 32، وانْظُرْ: د/ عَبْدُ الجليلِ عَبْدُ الرَّحِيم، لُغَةَ القُرْآنِ الكريم، مَكْتبةُ الرِّسالةِ الحديثة، عَمّان، الأردن، (د-ت) ، ص: 43.

الـمَنْطِقِ الأَعْرابيِّ الجافي، وتَـمَيَّزَتْ بالرِّقَّةِ، والعُذوبَة، وأَنَّها هِيَ الـمَثَلُ الأَعْلى الـذي يُـحاكَى، يُـحاكِيهِ الـمُتَأَدِّبون، ويُصْطَفَى لِلْمُتَعَلِّمِين"[1].

وهَذا التَّهْذيبُ الذي يَذْكُرُهُ الأَسْتاذُ، هُنا، هُو الذِي قَضى بِأَنْ تُخْتارَ لُغةً لِلْأدبِ، والإِبْداعِ، فَهَذِهِ الـمُعَلَّقاتُ، مَثلاً، قَدْ نَظَمَها شُعَراءُ يَنْتَمُونَ إِلى قَبائِلَ مُخْتَلِفةٍ، ومَعَ ذَلك لُغَتُها واحِدَة، وتَفْسِيرُه هُو الخُرُوجُ مِنَ الخُصُوصِيَّةِ اللَّهْجِيَّةِ التي تَـجْعَلُها جَافِيَةً مُسْتَغْرَبَةً، والدُّخولُ في لُغةِ الأَدَبِ، والفَنِّ؛ يَقولُ الدُّكْتورُ عَبْدُ الجليلِ عَبْدُ الرَّحيم، في ذِكْرِ أَسْواقِ العَرَبِ: "وَهَذِهِ الأَسْواقُ التي كانَ يَحْضُرُها عَدَدٌ كَبيرٌ مِنْ أَفْرادِ كُلِّ قَبيلَةٍ، قَدْ كَانَتْ مَيْدانَ سَبْقٍ بَيْنَ الشُّعَراءِ، والأُدَباء، يَأْتُونَ إِلَيْها مِنْ كُلِّ صَوْبٍ، لِيُلْقُوا فِيها ما جَادَتْ قَرائِحُهُم مِنْ شِعْرٍ، أَوْ نَثْر، ويَـحْكُمُوا فِيما بَيْنَهُم أَهْلُ الرَّأْي، ...، وَحِرْصـًا مِنْهُمْ عَلى مَرْضاةِ السَّامِعين وثَنائِهِمْ، كانَ يَتَحاشَى كُلٌّ مِنْهُمْ خَوَاصَّ لَهْجَتِه، ويَنْظِمُ شِعْرَهُ، ويُلْقِي خِطابَهُ بِما يَفْهَمُهُ الجَمِيع"[2]

ولُغَةُ قُرَيشٍ، بِالِاعْتِبارِ السِّياسِيِّ، هِيَ لُغَةُ الـمَواثِيقِ الرَّسْمِيَّةِ، والـمُكاتَباتِ الـمُتَّصِلَةِ بِشُؤونِ السِّلْمِ والحرْبِ، وهِي، بِالِاعْتِبارِ الأَدَبِيِّ، لُغةُ الإِبْداعِ؛ شِعْرِهِ ونَثْرِه، وهِيَ، بجمِيعِ ذَلكَ اللُّغَةُ الفُصْحى؛ لِأَنَّها الأَقْدَرُ عَلى تَأْدِيَةِ كُلِّ تِلْكَ الشُّؤُونِ بحظٍّ أَوْفَرَ لِكُلِّ العَرب، قَالَ القُطامِيُّ:

فَإِنْ لَـمْ تَأْتَمِرْ رُشْداً قُرَيْشٌ   فَلَيْسَ لِسائِرِ العُرْبِ ائْتِمارُ[3]

(1) د/ مُخْتارُ الغَوْث، لُغَةُ قُرَيْش، دار الـمِعْراجِ الدَّوْلِيةِ لِلنَّشْر، الـمَمْلكةُ العَرَبِيَّةُ السُّعودِيَّة، الطَّبْعةُ الأُولى، 1997، ص:336.
(2) د/ عَبْدُ الجليلِ عَبْدُ الرَّحِيم، لُغةُ القُرْآنِ الكريم، ، ص: 51.
(3) القُطاميُّ، دِيوانُه، تحقيقُ: الدُّكْتور إِبْراهيم السّامَرَّائيُّ وأَحْمدُ مَطْلوب، دارُ الثَّقافة، بَيْرُوت، 1960، ص: 142.



وإِذَنْ؛ فَالكلامُ يَتَعلَّقُ باللُّغةِ التي يَلْتَقي عِنْدَها كلُّ الناسِ في الحياةِ العامَّة، يَفْتَرِضُ بصورةٍ ضِمْنيَّةٍ افْتراقَ هَؤُلاءِ الناسِ أَنْفُسِهِمْ، في حَياتِهِمْ الخاصَّةِ، بِلُغاتٍ خاصَّة؛ إِنَّها لُغاتُ العربِ، ولَهَجاتُهُمْ.

ثُمَّ إنَّ هاهُنا وَجْهَ اتِّفاقٍ بَيْن مَفْهومَيْنِ أَساسِيَّيْن؛ هُما لُغَةُ قُرَيْشٍ الـمَوْسُومَةُ بِصِفَةِ الاِشْتِراك، والاِطِّرادِ الذي هُو الاِشْتِراكُ عَيْنُه؛ فالـمُطَّرِدُ هُو الغالِبُ بَيْن النّاس، الكثيرُ بَيْنَهُم، الـمُنْتَشِرُ فِيهم، وفي الـمُطَّرِدِ يَقولُ ابْنُ جِنِّي: "وَأَصْلُ مَواضِعِ (طَرَدَ)، في كَلامِهِم، التَّتابُعُ، والاِسْتِمْرارُ؛ مِنْ ذَلِك: (طَرَدْتُ الطَّرِيدَةَ)؛ إذا تَتَبَّعْتَها واسْتَمَرَّتْ بَيْن يَدَيْك، ومِنْه: مُطارَدَةُ الفُرْسانِ بَعْضِهِم بَعضًا، واطَّرَدَ الجدْوَلُ؛ إذا تَتابَعَ ماؤُهُ بالرِّيح، وزَادَ فَقالَ: "فَجَعَلَ أَهْلُ العِلْمِ ما اسْتَمَرَّ مِنَ الكلام، في الإعْرابِ، وغَيْرِهِ مِنْ مَواضِعِ الصِّناعَةِ مُطَّرِداً"[1]، ورَبَطَ العُلَماءُ بَيْنَ الاِطِّرادِ والكَثْرة، والكَثْرة تَنْتُجُ عَنِ الاِسْتِمْرار، والـمَعْنَيانِ آخِذانِ مِنْ بَعْض، فالشَّيْءُ لا يَكْثُرُ إلا إذا اسْتَمَرّ، ولا يَسْتَمِرُّ إلا بِأَنْ يَكْثُر[2].

ويُفَرَّعُ عَلى هذا أنَّ النُّحاةَ، حِينَ بَنَوْا عَمَلَهُم التَّقْعِيديَّ عَلى الأَكْثَر، وجَعَلُوا مِنْ ذَلكَ شَرْطًا صِناعِيًّا، فَقَدْ كانَ هذا الشَّرْطُ مِنْهُمْ مُوافِقًا لِلُغةِ قُرَيْش، فَاعْتِقادُنا، أَنَّ النَّحْوَ هُوَ التَّسْمِيَةُ العِلْمِيَّةُ (=الصِّناعِيَّة) لِلُغةِ قُرَيْشٍ التي هِي صُورةٌ لِلْمَدَنِيَّةِ الطَّبيعِيَّةِ التي تُرافِقُ الإِنْسانَ بالجِبِلَّةِ والخِلْقَة.

(1) أَبُو الفَتْح عُثْمانُ بْنُ جِنّي، الخَصائِص، تحقيقُ محمد عَلِيّ النجّار، الـمَكْتَبة العِلْمِيّة، الطّبْعة الثّانية، 1952، 1/ 196.

(2) د/ محمد إبْراهيم عُبادة، النَّحْوُ العَرَبِيُّ، أُصُولُه، وأُسُسُه، وقَضَايَاهُ، وكُتُبُه، مَعَ رَبْطِهِ بالدَّرْسِ اللُّغَوِيِّ الحديث، مَكْتبةُ الآداب، القاهِرة، الطَّبْعة الأولى، 2009، ص: 33.

2/ الـمُطَّرِدُ والقُرْآنُ الكَريم:

يُنَوِّهُ القُرْآنُ الكريمُ، في غَيْرِ ما مَوْضِعٍ مِنْهُ، باليُسْرِ الذي هُو حِلْيَةٌ لِخِطابِه، وهُو قَدْ عَبَّرَ عَنْ هذا اليُسْرِ بِثلاثِ صُوَرٍ تَعْبِيريَّةٍ؛ هِي الوَصْفُ بالإبانَةِ: كَقَوْلِ الله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾(1)

ونُحِبُّ، هُنا، أنْ نَعْرِضَ لَنا رَأْيًا في هذا الوَصْفِ بِالإبانةِ؛ إذْ نَحْسَبُ أَنَّه إذا قِيلَ عَنْ لِسانِ القُرْآنِ بِأَنَّهُ عَرَبِيٌّ مُبينٌ لَزِمَ مِنْهُ أنْ يكونَ هُناكَ لِسانٌ عَرَبِيٌّ غَيْرُ مُبِين، وهَذا الذي نَقُولُهُ، هُنا، هُوَ مِنْ بابِ القَوْلِ في مَوْضوعِ الاِقْتِضاء، والدَّلالةِ الضِّمْنِيَّة، وَمُفَادُ القَوْلِ أنَّ عِبارةً مِثْلَ: "قُرْآنٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ" تَتَوَفَّرُ عَلى:

1- هُناكَ خِطابٌ هُوَ القُرْآنُ.
2- خِطابُ القُرْآنِ مُعَرَّفٌ بِالوَصْفِ، وهُوَ: "مُبِين".
3- خِطابُ غَيْرِ القُرْآنِ غَيْرُ مُبِينٍ(2).

ونَسْتَدِلُّ لَه بِأَنْ لَوْ كانَ اللِّسانُ العَرَبِيُّ كُلُّهُ عَلى دَرَجَةٍ واحدةٍ مِن البَيَانِ عِنْد عامَّةِ العَرب، لَكانَ مِن الظُّهورِ بِما يَجْعَلُ النَّعْتَ بِهِ لَغْواً، ولكنَّ لَفْظَ الإبانةِ، هُنا، مَسُوقٌ للغايةِ الحجاجيَّةِ؛ والحجاجيةُ قِيمةٌ مُقَرَّرَةٌ لِكُلِّ كلمةٍ قُرْآنيّةٍ،(3) والقيمةُ الحِجاجيَّةُ المحقَّقَةُ بِنَعْتِ القُرْآنِ بالبَيانِ في أَنَّهُ جاءَ باللُّغَةِ التي تُتيحُ لِكُلِّ عَرَبِيٍّ فَهْمَ خِطابِهِ، ولَوْما ذَاكَ لاسْتَحَقَّ أنْ يُرْمى بِأَنَّهُ كِتابُ مُغالَطة، يَنْتَهِجُ سَبيلَ التَّعْمِيَةِ والتَّلْبيسِ، لَكِنَّهُ بِانْتِخابِهِ لُغَةَ كلِّ النَّاسِ يُظْهِرُ مُكافحَتَه لهمْ بالمنطِقِ الظَّاهِرِ، والخطابِ الجَلِيّ. ثُمَّ

(1) المَائدة: 17، والنّحل: 103، يس: 69، الدّخان: 13، يُوسُف: 02، الشّعراء: 02، القَصَص: 02، الزُّخْرُف: 02، الدّخان: 02، الأَنْعام: 59، يُونس: 61، هود: 06، الحِجْر: 01، الشّعراء: 195، النّمل: 01، النِّساء: 174، وغَيْرُها كثير.

(2) د/ رِيم الهمّامي، الاِقْتِضاءُ وانْسِجامُ الخِطاب، دارُ الكِتابِ الجديدِ المُتَّحِدة، بَيْروت، لُبْنان، الطَّبْعة الأُولى، 2013، ص: 30.

(3) يُنْظر مُفَصَّلاً في: د/ عَبْدُ الله صَوْلة، الحِجاجُ في القُرْآنِ مِنْ خِلالِ أَهَمِّ خَصائِصِهِ الأُسْلوبِيَّة، ، ص: 68.



إنا لا نَرى هَذا اللِّسانَ العَرَبيَّ غَيْرَ المُبينِ إلّا كُلَّ لَهْجَةٍ مُوغِلَةٍ في الخُصُوصِيَّة، فَلا تَكادُ تَظْفَرُ بِبَيانٍ سِوى ما تَبِينُ به لِأَهْلِها دُون سِواهُم. ويَقِيني أنَّ اللِّسانَ العَرَبيَّ المُبينَ مُرادِفٌ لِلِسانِ قُرَيْشٍ، على ما تَأَدَّى به فَهْمُنا لِلْمَوْضوع؛ يَقُولُ الدُّكْتورُ مُخْتارٌ الغَوْث: "اللُّغةُ المُتَخَيَّرَةُ مِنْ لُغاتِ العربِ لُغةُ أَهْلِ الحِجاز، ومَا يَخْتارُهُ فُصَحاءُ أَهْلِ الأَمْصارِ مِنَ اللَّهَجاتِ الأُخْرى، أَمَّا سَائِرُ لُغاتِ العَرَبِ فَقَبيحٌ ومَرْفوضٌ لَكِنَّ اللُّغَوِيِّينَ سَجَّلُوهُ لِغايةٍ عِلْمِيَّةٍ، لا لِيُسْتَعْمَل". [1]

- والوَصْفُ باليُسْر: قَالَ تَعالى: (ولَقَدْ يَسَّرْنا القُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ)[2]

والرَّأْيُ عِنْدَ العُلَماءِ أنَّ هذا اليُسْر، وهَذا البَيَانَ، مُرادٌ بِهما إلى الإِفْهامِ بِغَيْرِ تَلْبيسٍ، ولا تَعْمِيَة، وهُو أَمْرٌ واجِبٌ اعْتِقادُهُ في كلامِ الله تَعالى، ومِنْ أَجْلِهِ قَرَّرَ العُلَماءُ وُجوبَ الصُّدورِ في تَفْسيرِهِ عَنْ قاعِدَةٍ ضابِطَةٍ هي حَمْلُ خِطابِهِ على الإِفْهامِ والتَّفْهِيم[3]، والسُّؤالُ الواجِبُ، هُنا، هُوَ: ما السَّبَبُ المَوْضوعِيُّ لِتَحَقُّقِ هَذا الإِفْهام؟ ونَرَى في الجوابِ أنَّ النُّزولَ عَلى وِفاقِ اللُّغةِ الجامعةِ هُوَ السَّبَب، ونُؤَيِّدُهُ بِكَمِثْل:

- عَدَمُ وُرودِ الخبرِ بانْبِهامِ الخطابِ القُرْآنيِّ عَلى قَبائِلِ العَرَب، مِنْ غَيْرِ قُرَيْش، بَلْ ما كانَ أَيْسَرَ عَلى خُصُومِهِ مِنْ أنْ يَتَّخِذوا مِنْ انْبِهامِهِ مَعَرَّةً يَرْمُونَهُ عَبْرَها بِكُلِّ نَقيصة.

- ثُبُوتُ انْتِقالِ الصَّحابَة، رِضْوانُ الله تَعالى عَنْهُم، إِلى مختلِفِ أَرْجاءِ البِلادِ لِتَعْليمِ القُرْآن، وتَفْسِيرِ بَعْضِ أَلْفاظِهِ مِمَّا يُعْرفُ بالغَريب، ومُفادُ هَذا أنَّ الأَصْلَ فيه اللُّغةُ المُشْتَركة، وأنَّ هَذا الغَريبَ هُو بَعْضُ ما خَرجَ عَنِ اللُّغةِ الجامِعةِ لِحِكْمَةٍ يَتَوَلَّى حُذَّاقُ التَّفْسِير الكَشْفَ عَنْها.

---

(1) لُغَةُ قُرَيْش، ص: 277.

(2) القَمَر: 17 والقَمَر: 22، والقَمَر: 32، والقَمَر: 40.

(3) يُنْظر: د/ نَصْر الدّين وهّابي، التّوْجيهُ النَّحْويُّ للشَّاذِّ في لُغةِ القُرْآنِ الكَريم، المَتْبُوعُ مِنْه والمَدْفُوع، سَامي للطِّباعَةِ والنَّشْرِ والتَّوْزيع، الوَادي، الجَزائِر، الطَّبْعةُ الأُولى، 2016، ص: 65.

- انْحِصارُ أَقْدَمِ وُجوهِ التَّفْسِيرِ فِي بَيَانِ الغَرِيب، وهُو، كَما تَقَدَّمَ، أَلفاظٌ مَعْدودةٌ تَرْجِعُ إلى اخْتِلافِ لُغاتِ العَرَب، أَوْ إلى بَعْضِ مَا عَرَّبَهُ القُرْآنُ الكريمُ مِنَ اللَّفْظِ الأَعْجَمِيّ.

وإنَّ في وُسْعِنا أنْ نَأْتِيَ بِمَزِيدٍ عَلى هَذا.

والخُلاصَةُ الضَّروريَّةُ أَنَّ لُغَةَ العَرَبِ الجامعةَ لَمْ تَكُنْ غَيْرَ لُغَةِ قُرَيْشٍ، بِما كانَتْ الـمَرْكَزَ في حِياتِهِم، وأنَّ لُغَةَ قُرَيْشٍ هِي الـمُوافِقَةُ-مَوْضوعِيّاً- لحكمةِ تَيْسيرِ القُرْآنِ لِلذِّكْر؛ فَلُغةُ القُرْآنِ هِيَ لُغَةُ قُرَيْشٍ، يَقُولُ الدُّكْتُورُ مُخْتارٌ الغَوْثُ، وقَدْ جَعَلَ القُرْآنَ الكريمَ عَلى رَأْسِ مَصادِرِهِ لِدِراسَةِ لُغَةِ قُرَيْشٍ: "أَمَّا المَصادِرُ التي اعْتُمِدَ عَلَيْها في دِراسَةِ هَذِهِ اللُّغَة، فَهِي: 1/ القُرْآنُ الكَرِيم: فَقَدْ ثَبَتَ في الأَحاديثِ الصَّحيحَةِ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ بِلُغَةِ قُرَيْشٍ"[1]

كَما هِيَ لُغةُ النَّحْوِ مِنْ بَعْدِ ذَلك، بِما أَنَّ النَّحْوَ هُو مَنْظومَةُ قَواعِدِ التَّواصُلِ العام، وبِما أنَّ التَّواصُلَ العامَّ لا سَبيلَ إِلَيْهِ إلا عَبْرَ الاِشْتِغالِ عَلى الغالِب، والعَمَلِ عَلى الأَكْثَر، وَإِذَنْ: [لُغَةُ قُرَيْشٍ=لُغَةُ القُرْآنِ الكَريم=لُغَةُ النَّحْو=لُغَةُ دَوْلَةِ الإِسْلامِ الرَّاعِيةُ لِلشَّأْنِ العَامّ].

3/ المُطَّرِدُ وعَمَلُ النُّحَاةِ:

- أَوَّلاً: مَرْحَلَةُ مَا قَبْلَ الحَضْرَمِيّ: لَمْ يَكُنْ العملُ اللُّغَوِيُّ، في مَرْحلةِ مَا قَبْلَ الحضْرَمِيِّ، دَرْساً نحويّاً بالـمَفْهوم الصِّناعيّ، أَعْني الـمَفْهومَ الذي يُجيدُ تَقْديمَ خَصائِصِه، وأُسُسِهِ الدُّكْتورُ تَمَّامُ حَسَّانٍ في أُصُولِه[2]، إنَّما كانَ عَرْضاً لِـمُقَدِّماتِ الدِّراسَةِ اللُّغَوِيَّةِ بِمَفْهومِها العامِّ التي تُمَهِّدُ لِلْخُروجِ بِالـمُمارَسَةِ اللُّغَوِيَّةِ مِنَ الحالِ الطَّبِيعيَّةِ إِلى الدِّراسَةِ العِلْمِيَّةِ عَلى نَحْوِ ما نَرى في كُلِّ صِناعةٍ يُنْتِجُها عَقْلٌ نَاظِم،

(1) لُغَةُ قُرَيْش، ص: 15.

(2) د/ تَمَّامُ حَسّان، الأُصُول، دِراسةٌ ايبِسْتمُولُوجيّة لأُصولِ الفِكْرِ اللُّغَوِيِّ عِنْد العَرب، دارُ الثّقافة، الدّارُ البَيْضاء، المَغْرب، طَبْعة 1411ه-1991، ص: 14.

ومَنْهَجٌ قَائِم، ورُبَّما أَمْكَنَنا أَنْ نُسَمِّيَ هَذِه الـمَرْحَلةَ بمرحلةِ مَا قَبْلَ التَّخَصُّصِ؛ ذَلِكَ لأَنَّهُ عَلَيْنا أَنْ نُؤْمِنَ بأَنَّ اللُّغَةَ تَسْتَجِيبُ لِلدِّراسَةِ فِي ضَوْءِ مَنْظُورَيْن، أَوْ شُعْبَتَيْن، هُما مَا سَيَغْدُوانِ تَخَصُّصَيْن؛ هُما اللُّغَةُ الوَصْفِيَّةُ، والنَّحْوُ الـمِعْيارِيُّ، وسَيُعَبَّرُ عَنْهُما فِي تُراثِ العَرَبِيَّةِ بِمَذْهَبَيْن هُما: البَصْرَةُ والكُوفة.

وعَلى هَذا، فَمَرْحَلَةُ ما قَبْلَ الحَضْرَمِيِّ هِيَ مَرْحلةُ تَعْليم عامٍّ تُوَجِّهُ الغَايةُ التَّعْليمِيَّةُ فِيه إِلى إِكْسابِ الـمُتَعَلِّم أَوَّلِيَّاتِ العِلْمِ، ومَفاهِيمِهِ القَاعِدِيَّةِ التي تَتَمَثَّلُ فِيما يَلي:

1/ تَرْسِيمُ الشَّأْنِ اللُّغَوِيِّ: نَرى مِنَ الضَّروريِّ أَنْ نَعُودَ بِأَوَّلِ مَفْهومِ تَرْسِيم الشَّأْنِ اللُّغَوِيِّ، في الحضارةِ الإِسْلاميَّة، إلى عَهْدِ النُّبُوَّةِ، والخلافةِ الرَّاشِدة؛ إِذْ إِنَّهُ العَهْدُ الـمَرْجِعُ لِفَهْمِ نَظَرِيَّةِ الإِسْلامِ في بناءِ الحضارةِ وتَشْيِيدِ الـمَدَنِيَّة، ما دُمْنا نَنْطَلِقُ مِنْ أَنَّ أَوَّلَ الشَّأْنِ الحضاريِّ، والعَمَلِ التَّمْدينيِّ، هُو العَمَلُ التَّواصُلِيُّ الذي يُبْنى عَلَيْه ما بَعْدَه، فَتَرْسِيمُ الشَّأْنِ اللُّغَوِيِّ مِنْ مَشْمولاتِ نَظَرِيَّةِ الدَّوْلةِ في الإِسْلام، وعَلَيْنا أَنْ نُبْرِزَ مَكانَ هَذا الأَمْرِ مِنْ خِطابِهِ:

- قَالَ النَّبِيُّ، صَلَّى الله عَلَيْهِ وسَلَّمَ: (أَنَا أَفْصَحُ العَرَبِ بَيْدَ أَنِّي مِنْ قُرَيْشٍ)[1]، ونُؤَسِّسُ فَهْمَنا لهذا النَّصِّ الحديثيِّ عَلى اسْتِحالةِ أَنْ يكونَ الغَرَضُ مِنْهُ التَّفاخُرُ، والتَّباهِي، بَلْ نُنَزِّهُ النَّبِيَّ، صَلَّى الله عَلَيْهِ وسَلَّمَ، مِنْ هذا؛ بما هُوَ مُعَلِّمٌ، وبما هُوَ قُدْوةٌ، وأُسْوَة، وهُو فِي غَيْرِ حاجةٍ إِلى التَّفاخُرِ بِفَصَاحَتِه؛ لأَنَّها مِمّا يَظْهَرُ مِنْهُ بالحالِ والـمَقال، إِنّما حَدِيثُه هَذا محمولٌ على أَنَّهُ، صَلَّى الله عَلَيْهِ وسَلَّمَ، إِنَّما يَأْمُرُ، ويُوَجِّهُ باكْتِسابِ الفَصاحة، والفَصاحةُ الظُّهُورُ والبَيَان؛ أَيْ بِاكْتِسابِ اللُّغَةِ الـمُبَرَّأَةِ مِنْ إِبْهامِ الخُصُوصِيَّةِ اللَّهْجِيَّة، وتِلْك مَزِيَّةٌ فِي لُغَةِ قُرَيْشٍ؛ بما هِي مِصْفَاةٌ، و بِما هِي مُصَفَّاة، وبِهِ نَرى أَنَّ عُمْقَ الحديثِ هُو: تَعَلَّمُوا -أَيُّها الـمُواطِنُون- لُغَةَ قُرَيْشٍ واجْتَهِدوا فِي أَنْ تَكونُوا مِنْ تَعَلُّمِها عَلى قَدْرِ ما تَرَوْنَ مِنِّي، وتَسْمَعُون، حَتَّى تَكُونوا مِنْ مُؤَسَّساتِ

(1) يُنْظر البَحْثُ فيه مُفَصَّلاً في: أ.د. محمد حَسَن حَسَن جَبَل، مِنَ القَضايا الكُبْرى في القِراءاتِ القُرْآنيّة، مَكْتبةُ الآداب، القاهِرة، الطَّبْعة الأُولى، 1433هـ-2012، ص: 26.

دَوْلَتِكُمْ النَّاشِئَةِ بمحلِّ العالِمِ بِلُغةِ الحقوقِ، والواجبات، وإذَنْ، فَقَوْلُهُ: بَيْدَ أَنِّي مِنْ قُرَيْشٍ مَعْناهُ الإحالةُ عَلى مَرْجِعِ الفَصاحةِ، ونَبْعِها. هَذا في العَهْدِ النَّبَوِيِّ.

- وفي الخلافَةِ الرَّاشِدةِ لَمْ يَكُنِ القائمونَ عَلى الدَّوْلَةِ غَافِلِينَ عَنْ هذا التَّوْجيهِ النَّبَوِيِّ، بَلْ لَقَدْ كانتْ لهمْ إِجْراءاتٌ عَمَلِيَّةٌ في تَرْسيم الشَّأْنِ التَّواصُلِيِّ؛ نَرَى ذَلِك في عَدِّ التَّجَاوُزِ اللُّغَوِيِّ تجاوُزاً (قَانُونيًّا)، لابُدَّ مِنْ أَنْ تُوَاجِهَهُ الدَّوْلةُ بالعِقاب: رَوَوْا أَنَّ أَحَدَ وُلَاةِ عُمَرَ –رَضِيَ الله عَنْه– كَتَبَ إِلَيْهِ كتاباً لَحَنَ فِيه، فَكَتَبَ إِلَيْه عُمَرُ أَنْ قَنِّعْ كاتِبَكَ سَوْطًا[1].

2/ <u>إِجْراءاتُ التَّرْسِيمِ الأَوَّلِيَّة:</u> لَا يُمْكِنُ أَنْ نَتَكَلَّمَ عنْ إجراءاتٍ ترسيميةٍ في الفِتْرةِ النَّبَوِيّة؛ لأنَّ ذلك يَقْتَضِي الدَّاعِيَ المَوْضوعيَّ (=الاِجْتماعيَّ)، والدَّافعَ الخارجيَّ الذي تُمَثِّلُهُ ظاهرةُ اللَّحْن، ومَعْلومٌ أنّها ظاهرةٌ مُقْترنةٌ بالفُتوحِ الإِسْلامِيَّة، وهُوَ ما يُفَسِّرُ بَدْءَ الكلامِ في إجراءاتِ التَّرْسيمِ في آخِرِ الخلافةِ الراشدةِ، وهُنا يَحْسُنُ أَنْ نَقُولَ في الحالةِ الاجتماعيةِ ما يجبُ لِتَفْسيرِ الحالةِ التَّعْليميَّة:

- المُجْتَمَعُ الإسلاميُّ الناشِئُ مُكَوَّنٌ مِنْ نَوْعَيْنِ مِنَ المُتَعَلِّمِين:

- الأَوَّلُ: عَرَبيٌّ حَظُّهُ مِنَ العَرَبيَّةِ السَّليقةُ (=الاِسْتِعْمالُ الطَّبيعيُّ)، ويَلْزَمُ لهذا اكْتِسابُ العربيةِ الصِّناعيَّةِ؛ بِما هِيَ عِلْمٌ، وبما هِيَ تَأْدِيةٌ لُغَوِيَّةٌ مَوْصوفةٌ، سَلَفًا بطريقةٍ مخصوصةٍ في الأَداء، وبِلُغةٍ صِناعِيَّةٍ مُصاحِبَةٍ لِلُغَتِهِ الطَّبيعية؛ وهِي مَنْظُومةُ القَواعِدِ، والمُصْطَلَحاتُ، والتَّعْليلاتُ، و ...، ونَسْتَطيعُ أنْ نحكُمَ عَلى هذا العربيِّ بِأَنَّهُ مُبْتَدِئٌ في العَرَبيَّةِ الصِّناعِيَّةِ؛ لأَنّها لَيْسَتْ مِنْ كَلامِهِ[2].

---

(1) مُحَمَّدُ الطَّنْطاوِيّ، نَشْأة النَّحْوِ وتاريخُ أَشْهَرِ النُّحَاة، دَارُ المَعارِف، مِصْر، الطَّبْعَةُ الثَّانِية، ص: 17.

(2) رَوَوْا أَنَّهُ: "وَقَفَ أَعْرابيٌّ عَلى مَجْلِسِ الأَخْفَشِ فَسَمِعَ كلامَ أَهْلِهِ في النَّحْوِ، وما يَدْخُلُ مَعَه، فَحار، وعَجِب، وأَطْرَقَ وَوَسْوَس، فقالَ لَه الأَخْفَش: ما تَسْمَعُ يا أَخا العَرَب؟ قالَ: أَراكُمْ تَتَكَلَّمُونَ بِكلامِنا، في كَلامِنا، بِما لَيْسَ مِنْ كَلامِنا"، يُنْظر: الإِمْتاعُ والمُؤانَسَة، لِلتَّوْحِيدي، 2/ 139.



- الثَّاني: مُسْتَعْرَبٌ بالإسْلام، وهُوَ لا يَنْقُصُ عَنِ الآخَرِ بِسِوى التَّوَفُّرِ على الحُجَّةِ اللُّغَوِيّةِ الطَّبيعِيَّة، فالعَرَبيُّ إزاءَ المُسْتَعْرَبِ هُو حالةٌ حُجِّيَّة، لا صِناعِيّة، وهُوَ يَسْتَوي مَعَه في الحالةِ التَّعْليميَّةِ الصِّناعِيَّة؛ فَكِلاهُما يَنْطَلِقُ مِنْ مُسْتوى تَعْليميٍّ واحِدٍ.

وهُنا يَجْمُلُ أنْ نَطْرحَ هذا السُّؤالَ: مَا مَعارفُ الاِبْتِدائيةِ الصِّناعِيَّة؟ هَذِه المعارفُ هِي ما سَمَّيْناهُ هُناكَ إجراءاتِ التَّرْسيمِ الأَوَّلِيَّةُ، وهِيَ:

1- التَّنْبيهُ عَلى اللَّحْنِ، واعْتِبارُهُ مخالفةً يَتَرَتَّبُ عَلى ارْتِكابِها عِقابٌ.
2- تَعْليمُ النَّقْطَيْن: نَقْطِ الإعرابِ، ونَقْطِ الإِعْجام[1].

فلإجراءُ الأَوَّلُ بَيَانٌ لابْنِ الحضارةِ النَّاشِئةِ الوَضْعيَّةَ الرَّسْمِيَّةَ لِلشَّأْنِ اللُّغَوِيّ، والإجراءُ الثَّاني بَيَانٌ للمَدْخلِ إلى تحصيلِ اللُّغةِ الرَّسْميةِ التي بها تُنَالُ الحقوقُ، وتُؤَدَّى الواجبات.

ثُمَّ مَضى أَمْرُ الحالةِ التَّعْليميةِ عَلى هذا المُسْتَوى إلى أنْ غَدا مُسْتَوى عامّـًا، لا فَرْقَ بَيْنَ عَرَبيٍّ، ومُسْتَعْرَبٍ، إنّما بَيْن مُتَعَلِّمٍ، وغَيْرِ مُتَعَلِّمٍ، وهو ما سَيَأْذَنُ للعامِلين في الحقْلِ اللُّغَوِيِّ بالعملِ على الارْتِقاءِ بالمجتمَعِ النَّاشِئِ إلى مُسْتَوى التَّخَصُّصِيَّةِ، وهُو ما كَانَ له عَبْدُ الله بْنُ أبي إسْحاقِ الحَضْرَمِيُّ.

- <u>ثانيـًا: مَرْحَلَةُ الحَضْرَمِيِّ: (=مَرْحَلَةُ التَّخَصُّصِ):</u>

يُذْكَرُ لِلْحضرميِّ أَنَّه: "أَوَّلُ مَنْ بَعَجَ النَّحْوَ، ومَدَّ القِيَاسَ، وشَرَحَ العِلَلَ، وكانَ مَائِلاً إلى القِياسِ في النَّحْو"[2] ولعلَّ الذي جعلَ الحضرميَّ أَقْرَبَ نحاةِ عَهْدِهِ إلى تَبَنِّي تَنْفيذِ مَشْروعِ الترسيمِ صِلَتُهُ المُباشرةُ بِلُغةِ قُرَيْشٍ؛ قَالَ الدُّكتورُ مُختارُ الغَوْثُ: "هُوَ مَوْلى لآلِ الحَضْرَمِيِّ؛ فَهُوَ مَكِّيُّ المَوْطِنِ، قُرَشِيُّ الوَلاءِ"[3]

---

(1) يُنْظرُ مُفَصَّلاً في: د/ صَلاح رَوّاي، النَّحْوُ العَربيّ، نَشْأَتُه، تَطَوُّرُه، مَدارِسُه، رِجالُه، دَارُ غَريب، القاهِرة، 2003، ص: 123 و 131.
(2) أَبُو بَكْرٍ الزَّبيديّ، طَبقاتُ النّحْويّين اللُّغَوِيّين، مَكْتبة الحلبيّ، مِصْر، (د-ت)، ص: 31.
(3) لُغَةُ قُرَيْش، ص: 22.

ونحنُ نَفْهمُ مِنْ نَظَرِنا، وبَحْثِنا، ومِمّا أَفَدْناهُ مِنْ أساتذةِ هذا المجالِ اللّامِعينَ أنَّ الحضرميَّ هُو أبو النَّحْوِ العربيِّ مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ:

– نَبَّهَ عَلى ضَرورةِ التَّخَصُّصِ في بحثِ اللُّغة، كمطلبٍ مِنْ مَطالبِ المَرْحلةِ الحضاريَّةِ التي يَشْهَدُها المجتمَعُ الإسْلاميُّ في عَهْدِه هو؛ فإمّا أنْ يَتَناولَ الباحِثُ اللُّغةَ لِذاتِها مَعَ اسْتِضْمارِ الغايةِ الثَّقافيةِ المُتَمَثِّلةِ في حِفْظِ تُراثِ الأُمَّةِ بِشَتَّى تَنَوُّعاتِها اللُّغَوِيَّةِ المعروفةِ في واقِعِها اللِّسانيِّ، وتلكَ هِيَ شُعْبَةُ اللُّغةِ التي لا تَفْتَرِضُ مِعْياراً سَابقًا، اكتفاءً بالوَصْفِ، فلا تَعْمَلُ على فَرْزِ مُسْتوى لِسَانيٍّ على مُسْتوى آخَرَ. وإمّا أَنَّهُ يَتَناوَلُها بغايةِ المشاركةِ في الحَراكِ التَّمْدينيِّ المُتَمَثِّلِ في تَدْوينِ الدَّوَاوينِ بضبطِ لُغةِ الدَّواوين، وتِلْك هِيَ شُعْبَةُ النَّحْوِ التي تَفْتَرِضُ، في الفَرْزِ اللُّغَوِيِّ، مِعْيارَ الاطِّرادِ والقِياس[1].

– نَبَّهَ على أنَّ الشُّعْبَتَيْنِ لَيْسَتا سَواءً في الضَّرورةِ بالنَّظَرِ لطبيعةِ المَرْحلةِ الحضاريَّة، فالمرحلةُ مرحلةُ العمَلِ على بِناءِ الدَّوْلة، وتَأْسِيسِ التَّمَدُّنِ الإسْلاميِّ، لذا فالنَّحْوُ مُقَدَّمٌ، في العِناية، على اللُّغة: رَوَوْا أنَّ يُونُسَ بْنَ حبيبٍ سَأَلَ الحَضْرَميَّ: أَفي العربِ مَنْ يقولُ الصَّويق، قَال: نَعَمْ، عَمْرو بْنُ تميمٍ تَقُولُها، ومَا تُريدُ إلى هَذا؟ عَلَيْكَ ببابٍ مِنَ النَّحْوِ يَطَّرِدُ ويَنْقاسُ"، يقولُ الدُّكْتورُ تمّامُ حَسَّانٍ مُعَلِّقًا: "أَيْ عَلَيْكَ بالنَّحْوِ ودَعْ فِقْهَ اللُّغَةِ لِفُقَهاءِ اللُّغة"[2].

– العَمَلُ على مجابهةِ كلِّ ما يحولُ دُونَ التَّمْكينِ لِلْقِياس، وهُوَ ما نَفْهَمُهُ في مِثْلِ هَذِهِ القِصَّة: "حَضَرَ الفرزدقُ، يومًا، مَجْلِسَ عبدِ الله بْنِ أبي إسْحقَ فقالَ له عَبْدُ الله: كَيْفَ تُنْشِدُ هذا البَيْتَ:

وعَيْنانِ قالَ اللهُ كُونا فَكانَتا ... فَعُولانِ بالألبابِ مَا تَفْعَلُ الخَمْرُ

(1) يُنْظَرُ مُفَصَّلاً في: الأُصول، تَمّام حَسّان، ص: 98.
(2) الأُصُولُ، ص: 98.



فَأَنْشَدَهُ الفَرَزْدقُ: فَعُولان، فقالَ عَبْدُ الله: مَا كانَ عَلَيْكَ لَوْ قُلْتَ: فَعُولَيْن؟ فَقَالَ الفَرَزْدَقُ: لَوْ شِئْتُ أَنْ أُسَبِّحَ لَفَعَلْتُ، ونهضَ وانْصَرَفَ، ولَمْ يَعْرِفُوا مُرَادَه، فَسَأَلُوا عَبْدَ الله، فَقَالَ: لَوْ قالَ: فَعُولَيْن لأَخْبَرَ أَنَّ الله خَلَقَهُما، وأَمَرَهُما، ولَكِنَّهُ أَرادَ أَنَّهما تَفْعَلانِ مَا تَفْعَلُ الخَمْرُ"[1]

وسَمِعَهُ يُنْشِدُ:

وَعَضُّ زَمانٍ يَا ابْنَ مَرْوانَ لَمْ يَدَعْ مِنَ المَالِ إِلّا مُسْحِتًا أَوْ مُجَلَّفُ

فَقالَ لهُ عبدُ الله: بِمَ رَفَعْتَ (مُجَلَّفُ)؟ فَقَالَ الفَرَزْدقُ: عَلى ما يَسُوؤُك ويَنُوؤُك، عَلَيْنا أنْ نقولَ، وعَلَيْكم أنْ تَتَأَوَّلُوا".[2]

ويقولُ الدُّكْتورُ تَمَّامُ حَسَّانٍ عَن الحضرميِّ: "يَبْدو أنَّ غايةَ الحضْرميِّ كانتْ الوُصولَ إلى آلةٍ نحويَّةٍ لها مِنَ الاطِّرادِ، والبُعْدِ عَنِ التَّوَسُّعِ والشُّذُوذ ما يَعْصِمُ الأَلْسِنَةَ مِنَ الخَطأَ واللَّحْن، وبَلَغَ مِنْ شَغَفِهِ بالاطِّراد، وحِرْصِهِ عَلَيْه، أَنَّه لَمْ يَكُنْ يُطِيقُ أَنْ يَسْمَعَ كلامًا لا تَصْدُقُ عَلَيْهِ قواعِدُهُ التي تَوَصَّلَ إِلَيْها، ...، لهذا كانَ يَطْعَنُ على العربِ الفُصَحاء، إذَا خالَفُوا القَواعِد، ولَهُ مَعَ الفرزدقِ قِصَصٌ مَشْهُورَة"[3]

وأَبْرَزُ مَا نَتَجَ عَنْ تعاليمِ الحضرَميِّ شَيْئانِ:

١/ إِكْسابُ النَّحْوِ (=القِياس) وظيفةَ تمثيلِ الشَّأْنِ اللُّغويِّ الرسميِّ مِنْ خِلالِ تَسْمِيَتِهِ (العَرَبِيَّة)؛ سَأَلَ أحدُهُم أَبا عَمْرِو بْنَ العَلاء: "أَخْبِرْني عَمَّا وَضَعْتَ ممّا سَمَّيْتَه عَرَبِيَّةً، أَيَدْخُلُ فيها كلامُ العربِ كُلُّه؟ فقالَ: لا، فَقَال: كيفَ تَصْنَعُ فِيما خالَفَتْك فيهِ العربُ، وهُمْ حُجَّة؟ قالَ: أَعْمَلُ عَلى الأَكْثَر، وأُسَمِّي ما خالَفَني

---

(1) الزّجّاجيّ، مَجَالسُ العُلَماء، تحقيق د/ عَبْدُ السّلام هَارون، طَبْعةُ الكُويت، 1962، ص: 66.

(2) يُنْظر: ابْنُ الأَنْباريّ، نُزْهةُ الأَلِبّاء في أَخْبارِ الأُدَباء، تحقيقُ محمد أبو الفَضْلِ إبْراهيم، نَهْضة مِصْر (د-ت)، ص:24، و د/ عَلي النَّجْدي ناصِف، سِيبَوَيْهُ إِمامُ النُّحاة، مَكْتبةُ نَهْضةِ مِصْر بالفُجالة، مَطْبعةُ لَجْنةِ البَيانِ العَربيّ، القاهرة، 1953، ص: 17، والنَّحْوُ العربيّ، د/ صَلاحُ رَوّاي، ص:133.

(3) الأُصُول، ص: 34.

لُغـاتٍ"، وَيَنْبَغـي أنْ نُلاحِـظَ بوُضـوحٍ أنَّ مَـا لا يَـدْخُلُ فيـه كـلامُ العـربِ كُلُّـهُ هُـو: العَرَبِيَّة[1].

2/ ظُهورُ التَّأْليفِ الصِّناعيِّ الـمَبْنيِّ على الأَكْثَرِ مَع التـالينَ للحَضْـرميِّ، وَيَصْـلُحُ لِلتَّمْثيلِ له قِصَّةُ أبي عَمْرِو بْنِ العَلاء الـمَسُوقَةِ آنفـاً.

ثم إنَّ خَصائصَ التَّأْليفِ الصِّناعيِّ ما يَلي:

- صَوْغُ القانونِ النَّحْويِّ على وِفاقِ الكلامِ الـمَوْصوفِ بالاِطِّراد.
- فَرْزُ الـمُطَّرِدِ عَنِ الشَّاذِّ، والكثيرِ عنِ القَلِيل.
- صَوْغُ النَّمَطِ التأليفيِّ على وِفاقِ الطَّرِيقةِ التعليميَّةِ مُراعاةً لِلْمَطْلَبِ التّمـدينيِّ الـمَوْكولِ لعلمِ النَّحْو.
- إِكْسـابُ القـانونِ الــمُضَمَّنِ في عِلْـمِ النَّحْـوِ الطـابعَ الــمِعْياريَّ، والصِّـفةَ الرَّسْمِية؛ فالـمِعْياريَّةُ لغايةِ توحيدِ الـمُمارَسَةِ اللُّغَوية، والصِّفةُ الرَّسْميةُ لغايـةِ الإلـزامِ بلغةِ الدَّوْلة.

وهُنا يَتَعَيَّنُ أنْ نَسْأَلَ عَنِ المادَّةِ اللُّغَوِيَّةِ الخارجـةِ عَـنْ مَشْـمولاتِ النَّظَـرِ التقعيـديِّ النَّحْويّ، وبعبارةٍ أُخْرى:

- مَا حُكْمُ غَيْرِ الـمُطَّرِد؟
- مَا مَكانُهُ؟
- مَنْ يُعْنى بِبَحْثِه؟
- بِمَ تَرْتَبِطُ دِراسَتُه؟

ونقولُ في الجوابِ: إنَّ غَيْرَ الـمُطَّرِدِ مَوْكولٌ إلى رجلٍ غيـرِ النَّحْـويّ؛ بمـا هُـو غَيْـرُ قِيَاسيّ، فَهُوَ مِنْ مَشْمولاتِ نَظَرِ اللُّغويِّ الذي يَنْظُرُ في اللُّغَةِ بكلِّ مُكَوِّناتهـا اللَّهْجِيَّـةِ،

(1) طَبَقاتُ النَّحْوِيّين واللُّغَوِيّين، الزَّبيدي، ص: 39.



وتَنَوُّعِ صُوَرِها الأَدائِية، ومَكَانُ غَيْرِ الـمُطَّرِدِ هُو شُعْبَةُ بَحْثيةٌ غَيْرُ شُعْبةِ النَّحْو، وهِي شُعْبَةُ فِقْهِ اللُّغة، ومجالُهُ الـمَعْرفةُ، لا الصِّناعَة.

ولَعَلَّ مِنْ أَقْدَمِ التأليفِ الصِّناعيِّ الذي وَرَدَ الذِّكْرُ عَنْهُ مُرافقـًا لِتَفْسيرِهِ الـمَنْهَجيِّ كتابُ أبي عَمْرِو بْنِ العَلاء الذي أَشَرْنا إِلَيْه هُناك.

ولكنَّ آخِرَ تأليفٍ صِناعيٍّ وَردَ خبراً ومادَّةً هُو كتابُ سِيبَوَيْه، ونحنُ نُسَمِّيهِ آخراً لأنّه تمثيلٌ لِبُلوغِ العملِ النَّحْويِّ كمالَه، ولبلوغِ العَمَليةِ الترسيميةِ مُنْتَهاها، وهُو ما نُفَسِّرُ به قَوْلَ الـمَازِنِيِّ: "مَنْ أرادَ أنْ يَعْمَلَ كتابـًا كبيراً في النَّحْوِ بَعْدَ كتابِ سِيبَوَيْهِ فَلْيَسْتَحِ"[1]؛ ذلكَ لأنَّ مَعْنى "يَعْمَل" هُو الخروجُ بالأداءِ اللُّغَويِّ مِن الحالِ الطَّبيعيةِ البَدَوِيَّـةِ إلى الحالِ المدَنِيَّةِ المحكومةِ بالشَّرْطِ العِلْمِيِّ، الـمَدَنيةِ التي يَلْزَمُ لها "دُسْتُور"، ولَعَلَّهُ الذي يُفَسِّرُ تَسْمِيَةَ كتابِ سِيبَوَيْهِ "قُرْآنَ النَّحْو"[2]

الـمَبْحثُ الثَّاني: الحملُ عَلى الأَكْثرِ في نَظَرِ سِيبَوَيْهِ النَّحْوِيّ:

أَوَّلُ هذا الـمَبْحثِ مَوْصولٌ بآخِرِ الذي تَقَدَّمَهُ، وقَدِ انْتَهى الـمُتَقَدِّمُ إلى الرَّبْطِ بينَ كِتابِ سِيبَوَيْهِ والنَّحْوِ بما هُوَ صِناعَةٌ، وعَمَلٌ عِلْمِيٌّ، يَقَعُ تَفْسِيرُهُ الإِبْسِتمولوجيّ، وكَذا الحضاريُّ، ضِمْنَ إِجْراءاتِ تَرْسِيمِ لُغَةِ الدَّوْلة، اسْتِكْمالاً لِأَعْمالِ التَّمْدينِ الإِسْلاميّ، ويُحيلُ هذا بِصُورةٍ مُباشِرةٍ إلى ضَرورةِ البحثِ في كِتابِ سِيبَوَيْهِ عمَّا يَصِلُهُ بأساسِ النَّظَرِيَّةِ النَّحْويّةِ وهُوَ صَوْغُ القانونِ النَّحْويِّ على وِفاقِ الـمُطَّرِد، أَوْ بِعِبارةٍ أُخْرى، وَصْلُ الكتابِ بقاعدةِ العملِ عَلى الأَكْثر، أو الحملِ عَلى الأَكْثر:

(1) سِيبَوَيْه إِمامُ النُّحَاة، ص: 193.
(2) أَبُو الطَّيِّبِ اللُّغَوِيّ، مَراتِبُ النَّحْويّين، تحقيقُ محمد أَبُو الفَضْلِ إِبْراهيم، نَهْضةُ مِصْر، 1950، ص: 106.

- قالَ سِيبوَيْهُ: "وَلَوْ قَالتِ العَرَبُ: اضْرِبْ أَيٌّ أَفْضلُ لَقُلْتُه، ولَمْ يَكُنْ بُدٌّ مِنْ مُتابَعَتِهِم، فَلا يَنْبَغي أَنْ تَقِيسَ عَلى الشَّاذِّ، أَوْ المُنْكَرِ في القِياس" (1)

- وقالَ: "تَقولُ: هَذِهِ نَاقَةٌ وفَصِيلُها رَاتِعَيْن، وقَدْ يَقُولُ بَعْضُهُم: هَذِهِ ناقَةٌ وفَصِيلُها راتِعان، ... والوَجْهُ: هَذهِ ناقةٌ وفَصيلُها رَاتِعَيْن؛ لأنَّ هَذا أَكْثَرُ في كَلامِهِم، وهُو القِياسُ، والوَجْهُ الآخَرُ قالَهُ بَعْضُ العَرَب" (2)

- وقالَ: "وَقَدْ جاءَ عَلى فُعْلانٍ نحوُ: الشُّكْرانِ، والغُفْران، وقَالوا: الشُّكورُ، كما قالوا: الجُحُود، فَإِنَّما هَذا الأقلُّ نَوادِرُ تُحْفَظُ عَن العَربِ، ولا يُقاسُ عَلَيْها، ولكنَّ الأَكْثَرَ يُقاسُ عَلَيْه"(3)

- وقالَ: "وسَأَلْتُهُ عَنْ: (عَلى كَمْ جِذْعٍ بَيْتُك مَبْنِيٌّ؟) فقالَ: القِياسُ النَّصْبُ، وهُوَ قَوْلُ عَامَّةِ النَّاس"(4)

- وقالَ: "فَإِنَّما هَذا الأقلُّ نَوادِرُ تُحفظُ عَنِ العَربِ، ولا يُقاسُ عَلَيْها، ولكنَّ الأكثرَ يُقاسُ عَلَيْه" (5)

- وقالَ: "وَحَدَّثَنا أَبو الخطّابِ أنّه سَمِعَ مِن العربِ مَنْ يُقالُ لَه: إِلَيْك، فَيَقولُ: إِلَيَّ، كَأَنَّهُ قِيل لَه: تَنَحَّ، فقالَ: أَتَنَحَّى، ولا يُقال: دُوني، ولا عَلَيَّ، هَذا إِنَّما سَمِعْناه في هَذا الحرفِ وَحْدَه"(6)

---

(1) أَبُو بِشْرٍ عَمْرُو بْنُ عُثْمانَ بْنِ قَنْبَر سِيبَوَيْه، الكِتاب، تحقيقُ د/ محمد عَبْدُ السّلامِ هارُون، مَكْتبةُ الخانجيّ، القاهِرة، الطَّبْعة الثَّالثة، 1408هـ، 1988، ص: 2/ 402.

(2) الكِتاب، 2/ 82.

(3) الكِتاب، 4/ 8.

(4) الكِتاب، 1/ 293.

(5) الكِتاب، 2/ 215.

(6) الكِتاب، 1/ 249.

وغيرُ هذا كَثيْرٌ فِي كِتابه، مِمَّا يجدُ فيه الباحِثُ وَصْلاً وثيقـًا بين نظريّةِ سِيبَوَيْه التقعيديّةِ، وبينَ قاعِدة العملِ على الأَكْثر، ومِمَّا هُو اتِّباعٌ تَنْفيذيٌّ لِتعاليمِ الحضرميِّ مِنْ قَبْلِه فِي سِياقِ التَّفْريقِ بينَ العملِ اللُّغَويِّ، والعمَلِ النَّحْوِيّ.

ونحنُ، هُنا، نَنْظُرُ لِلْكتابِ عَلى أَنَّهُ خاتمةُ مَنْهَجِ التَّمَسُّكِ بالقِياس، وإلّا فَقَدْ كانَ بينَ سِيبَوَيْه، وبَيْنَ الحضرميِّ رجالٌ عَمِلوا عَلى بِناءِ الـمَنْطِقِ النَّحْويِّ على وِفاقِ الشَّرْطِ الصِّناعيِّ، ذلكَ هُو القِياسُ عَلى الـمُطَّرِد.

قالَ الدُّكْتورُ محمد حُسَيْن آل يَاسِين: "وعِيسى بْنُ عُمَر، تِلْميذُ بْنِ أَبي إِسْحق دَرَسَ النَّحْوَ، وتَوَسَّعَ فِيه آخِذاً بِمَنْهَجِ أُسْتاذِهِ فِي التَّمَسُّكِ بالقِياس، وقِيلَ: إِنَّهُ وَضَعَ فيه كِتابَيْنِ هُما: الجامِعُ والإِكْمالُ، بحثَ فِيهِما مَسائِلَ النَّحْوِ، وقَوَاعِدَه، ...، وكِتاباهُ يُمَثِّلانِ اسْتِقْلالَ النَّحْوِ فِي التَّأْليفِ أَوَّلَ مَرَّة" (1)

وقالَ الدُّكْتورُ حَسَنُ خميسٍ الـمَلْخ: "أَمّا عِيسى بْنُ عُمَرَ الثَّقَفيُّ، فَقَدْ كانَ ثِقةً فَصيحـًا عالمـًا بالعَرَبِيَّةِ والنَّحْوِ، والقِراءة، شَافَهَ الأَعْرابَ، وأَخَذَ عَنْهم، ولَمْ يَكُنْ يَدَعُ الإِعْرابَ لِشَيْءٍ، ولَهُ كِتابانِ فِي النَّحْو: أَحَدُهما الإِكْمالُ، والآخَرُ الجامِع، وهُما فِيما يَبْدو مُحاولةٌ أَوَّلِيَّةٌ لِتَحْليلِ كلامِ العربِ بَعْدَ جَمْعِه؛ إِذْ بَنى قَوانينَهُ النَّحْويّةَ فِي كِتابَيْهِ عَلى الأَكْثرِ الـمُطَّرِد" (2)

وحينَ نَعودُ إلى قِصَّةِ يُونُسَ عَنِ اللُّغةِ القليلةِ نَفْهَمُ أنّه كانَ مَعْنِيّـًا باللُّغةِ فِي الـمَقام الأَوّل، وإنّما النَّحْوُ عِنْدَه تالٍ لها، ومِنْ هُنا قِيلَ فِي حَقِّهِ: "ويُونُسُ بْنُ حَبيبٍ تِلْميذُ عِيسى بْنِ عُمَرَ، وأَبي عَمْرِو بْنِ العَلاء اشْتُهِرَ بِاللُّغةِ، والغَريبِ حَتَّى أَلَّفَ كِتابـًا فِي

---

(1) د/ محمد حُسَيْن آل ياسِين، الدّراساتُ اللُّغَويّةُ عِنْدَ العَربِ إلى نِهايةِ القَرْنِ الثّالِث، مَنْشوراتُ دارِ مَكْتَبةِ الحَياة، بَيْروت، لُبْنان، الطَّبْعة الأُولى 1980، ص: 80.

(2) د/ حَسَن خَمِيسُ الـمَلْخ، التَّفْكيرُ العِلْميُّ فِي النَّحْوِ العَربيّ، الاِسْتِقْراء-التَّحْليل-التَّفْسير، دارُ الشُّروق للنَّشْر والتَّوْزيع، الطَّبْعةُ الأُولى، 2002، ص: 83.

اللُّغات، ورَوَى عَنْه أَبُو عُبَيْدَةَ فِي الغَرِيب، ونَقَلَ عَنْهُ سِيبَوَيْه فِي الكتابِ شَواهِدَ لُغَوِيَّةً كَثِيرة" (1)

وعَلى الرَّغْمِ مِنْ أنّه مَعْدودٌ فِي النُّحاةِ إِلّا أنّه لَمْ يَكُنْ فيه كالنَّحْوِيِّينَ فِي التَّمَسُّكِ بالقِياس، ونحنُ نَلْقى لَه تَفْسيراً في غَلَبَةِ عَقْلِيَّةِ فَقيهِ اللُّغةِ عِنْدَهُ على مَنْهَجِ النَّحْوِيّ، فَقَدْ قِيلَ فِيه: "كانتْ لِيُونُسَ مَذاهِبُ وأَقْيِسَةٌ تَفَرَّدَ بِها" (2)

ولَكِنَّا حِينَ نَبْلُغُ سِيبَوَيْهِ نَلْقى الدّارسَ يقولُ عَنْه: "وسِيبَوَيْهُ تِلْميذُ الخليلِ اشْتُهِرَ بالنَّحْوِ أَكْثَرَ مِن اشْتِهارِهِ باللُّغةِ، والغَريبِ، والرِّوايَةِ، والشِّعْرِ، والقِراءة، عَلى طُولِ بَاعِهِ فِي جَمِيعِها" (3)

إنّ الدّليلَ على أنّ التَّمَسُّكَ بالقِياس، والبِناءَ على الأَكْثرِ هُوَ الأساسُ فِي الصِّناعةِ النَّحْوِيَّةِ كَوْنُهُ مَفْهوماً قارّاً في كُتُبِ الأُصُول، في القَديم والحديث؛ قالَ ابْنُ جِنّي: "فَجَعَلَ أَهْلُ عِلْمِ العربِ ما اسْتَمَرَّ مِنَ الكلامِ في الإعْرابِ، وغَيْرِهِ، مِنْ مَواضِعِ الصِّناعةِ مُطَّرِداً، وجَعَلوا ما فارَقَ عَلَيْهِ بَقِيَّةَ بابه، وانْفَرَدَ عَنْ ذلكَ إلى غَيْرِهِ شَاذّاً" (4)

وقالَ الدُّكْتورُ محمدٌ حَسَنٌ عَبْدُ العَزيز: "بَعْدَ أنْ جمعَ اللُّغَوِيُّونَ كلامَ العرب، ونَظَروا فِيه، وفَتَّشُوا، وجَمَعُوا النّظائِرَ والأَشْباه، وتَبَيَّنَتْ لهم مَواضِعُ الخلاف، واسْتَبانَتْ أمامَهُم العَلاقةُ بَيْنَ الأَبْنِيةِ والمَعاني، أَرادُوا أنْ يَصُوغوا مَا اسْتَقْرَؤُوهُ في قَواعِدَ وأَقْيِسَةٍ، ولمّا كانتْ المادّةُ التي جَمعوها -وهَذا أَمْرٌ غَيْرُ مُسْتَغْرَبٍ- تَسْتَعْصي عَلى الاطِّراد، أَوْ لا تَسِيرُ عَلى وَتيرةٍ واحدةٍ لا تَتَخَلَّفُ جَعَلوا القاعِدة، أو

---

(1) مُحَمَّدُ حُسَيْن آلِ ياسِين، الدِّراساتُ اللُّغَويةُ عِنْدَ العَرَبِ إلى نِهايةِ القَرْنِ الثالثِ، ص: 81.
(2) أَخْبارُ النَّحْويّين البَصْريين، ص: 33، وجلالُ الدّين السُّيوطِيُّ، بُغْيةُ الوُعاة في طَبَقاتِ اللُّغَويينَ والنُّحاة، تحقيقُ محمد أَبُو الفَضْل إِبْراهِيم، مَطْبعة الحلبيّ، مِصْر، (د-ت)، ص: 426.
(3) الدِّراساتُ اللُّغَوِيَّةُ عِنْدَ العَرَبِ إلى نِهايةِ القَرْنِ الثّالِث، ص: 82.
(4) الخَصائِص، 1/ 97.



القِياسَ، أو البابَ على الغالِب، أوْ الأكْثر، واتَّفَقُوا في ذلك، واخْتَلَفوا في تَسْمِيَة ما عَدَاهُ، وفي القِياسِ عَلَيْه" [1]

ويقولُ الدُّكْتورُ حَسَن هِنْداوي: "يَتَلَخَّصُ مَنْهجُ نُحاةِ البَصْرةِ في القِياسِ في أَنَّهُ يكونُ على كلامِ العربِ، وأنَّ ما يُقاسُ على كلامِهِم يُعَدُّ مِنْه، ولا يجوزُ القياسُ عَلى مَا لَمْ يَرِدْ عَنِ العَرب، ويَنْبَغي أنْ يكونَ القِياسُ عَلى الأكْثر، والأقلُّ نَوادِرُ تُحْفَظُ، ولا يُقاسُ عَلَيْها، ولا يُعْتَرضُ بالشَّاذِّ والرِّوايَةِ الضَّعيفةِ على السَّماعِ الصَّحيح، والقِياسِ المُطَّرِد" [2]

وبهذا يَظْهَرُ جَلِيّاً أنَّ كِتابَ سِيبَوَيْهِ هُو تمثيلٌ لِبُلوغِ المنهجِ البَصْريِّ الصِّناعيِّ غايَتَه التي أَمَّها.

- <u>آثارُ التَّمَسُّكِ بالقِياس، أَوْ تَجاذُبُ اللُّغةِ والنَّحْو:</u>

غَيْرُ يَسيرٍ حَمْلُ الناسِ على خِلافِ الطَّبيعةِ مِنْ أَمْرِهِم الذي أَلِفُوا، وهَذا النَّحْوُ إِلْزامٌ لهم عَلى اسْتِعْمالِ اللُّغةِ عَلى صُورةٍ مَخْصوصة، وإنْ كانَ ذلكَ محصوراً ضِمْن مُتَطَلَّباتِ الشُّؤونِ الإداريّةِ العامّة، وهذا المجتمَعُ قَدْ غَبَرَ في حَياةِ الباديةِ مِئاتٍ مِن السِّنين، ويَرُومُ النُّحاةُ الخروجَ بِهِ إلى حالِ التَّمْدينِ عَبْرَ مُمارَسَةِ حَياةٍ مُنَظَّمَة، ومعَ ذلك عَلَيْنا أنْ نَفْهَمَ أنَّ هذا التَّخْطيطَ لَمْ يَكُنْ ثقافةً عامَّةً مُنْتِشَرةً في النّاسِ بالقَدْرِ الذي يجعَلُهُم يَفْهَمون عَنِ النُّحاةِ مَقاصِدَهُم، فَهَلْ كانَ على النُّحاةِ أنْ يُصَرِّحوا بخُطَّةِ عَمَلِهِم لِشُركائِهِم الاِجْتِماعِيِّين؟ نحسَبُ أنَّ الجوابَ عَنْ هذا غَيْرُ سَهْلٍ، وغَايةُ ما عِنْدَ الباحِثينَ في النَّظَرِيَّةِ النَّحْوِيَّةِ العَرَبِيَّةِ أنَّ النُّحاةَ مارَسُوا الأُصولَ بصُورَةٍ تَطْبيقيَّةٍ؛ يقولُ الدُّكْتورُ محمدٌ سالم صَالح: "وتَجْدُرُ الإشارةُ إلى أنَّ الأُصولَ

---

(1) د/ محمد حَسَن عَبْدُ العَزيز، القِياسُ في اللُّغَةِ العَرَبية، دارُ الفِكْرِ العَرَبيّ، مِصْر، الطَّبْعةُ الأُولى، 1995، ص: 25.

(2) د/ حَسَن هِنْداوي، مَناهِجُ الصَّرْفِيِّين ومَذاهِبُهُمْ في القَرْنَيْن الثّالِثِ والرّابِعِ مِنَ الهِجْرة، دارُ القَلَم، دِمَشْق، الطَّبْعة الأُولى، 1989، ص: 260.

كانَتْ عِنْدَ الـمُتَقَدِّمِين مَبَادئَ يَسِيرةً تَتِمُّ بِصورةٍ تَطْبيقِيَّةٍ فِي مُؤَلَّفاتِهِم، ولَـمْ تَكُنْ لهـذِهِ الـمَبادِئِ أُصولٌ نَظَرِيَّةٌ إلّا نادراً فِي بَعْضِ الإشاراتِ القَلِيلَة" [1]

- النُّحاةُ والقُـرّاء: تَصـدّى كثيـرٌ مِـنَ الدّارسـين لِـمَوْقِفِ نحـاةِ البصـرةِ مِـن القِراءاتِ القُرْآنيةِ، وإقْدامِهِم على تخطِئةِ مـا لا يُوافِـقُ قواعـدَهم مِنهـا، ونحسـبُ أنّ غالبَهم لم يهتدِ إلى كشفِ الأسـاسِ المنهجيِّ الـذي يحُمَـلُ عَليه الأَمْر، والمـدخلُ الضّـروري لفهـم هـذا الأمـر هـو التّفريـقُ بـين منْهَجَيْ القُـرّاء والنّحـاة في الاشـتغال بالقراءة، فأمّا القرّاء فإنّ الـمُعْتَمَدَ لَدَيْهم، في ذلك، هو الـمُعَبَّرُ عَنه بالأركان الثّلاثة:

- صِحّة السّند.
- مُوافقةُ الرّسْم العُثْمانيّ، ولو احْتمالاً.
- مُوافقةُ العَرَبيةِ، ولَوْ بِوَجْهٍ [2].

وذلك لأنّ القراءةَ عندهم هي نقلٌ محكومٌ بشروط، والسّند رأسُها، ثـم لا يعنـيهم بعد ذلك أنْ وافقت الكثيرَ من كلام العرب (= المطّرد = القياس النحوي = القواعـد الصّناعية)، أم لم توافق، وفي هذا شاعت عبارةُ ابن الجزريّ المعروفة فيما يَنْقُلُه عَـنْ أبي عَمْرٍو الدّاني: "وأَئِمّةُ القُرّاءِ لا تَعْمَلُ في شَيءٍ مِن حُروفِ القُرْآنِ على الأفْشى في اللُّغة، والأقْيَسِ في العَربية، بَلْ على الأثْبتِ في الأثَـر، والأصـحّ في النّقـل والرّوايـة، إذا ثَبَتَ عَنْهُم لَـمْ يَرُدَّها قِياسُ عربيّةٍ ولا فُشُوُّ لغة، لأنّ القراءةَ سُنّةٌ متّبعة فَلَزِم قَبُولُها" [3]

(1) د/ محمد سَالم صَالح، أُصُولُ النَّحْو، دِراسةٌ في فِكْرِ الأَنْبـاريّ، دَارُ السَّـلام، مِصْـر، الطَّبْعَـةُ الأُولـى، 1427هـ، 2006، ص: 43.

(2) يُنْظرُ مُفَصَّلاً في: أُصُولِ النَّحْو، دِراسَةٌ في فِكْرِ الأَنْباريّ، ص: 168.

(3) ابْنُ الجَزَرِيّ، النّشْرُ في القِراءاتِ العَشْر، أَشْرَفَ عَلى تَصْحِيحِه ومُراجَعَتِه الشَّيْخُ عَليّ محمد الضّـبّاع، دارُ الفِكْرِ للطِّباعةِ والنَّشْرِ والتَّوْزيع، مِصْر، (د-ت)، 1/ 67.



وعَلى هذا، فإنّ بِناءَ رَدِّ القِراءة عَلى أَسَاسِ الاطّرادِ والشُّذوذ لا اعْتِبارَ له عِنْدهم، وهُوَ تَفْسِيرُ إنكارِهم عَلى النُّحاةِ هَذا الصَّنيع، لأنّهم لا يتوفّرون، ولا هُمْ مُلْزمُون بِثقافةِ التَّقْعِيد اللّغوي.

وأمّا النُّحاة، وبخاصّة مِنهم، نُحاةَ البَصْرة، فإنّ القراءةَ عندهُم لا تأخُذ الحجّيّة النّحوية، إلا بأن يُفْحص فيها ما يأتي:

- ثُبوتُ القُرْآنية، ومَرْجِعُه السَّنَد .
- ثُبوتُ العَرَبية، ومَرْجِعُه لَهَجاتُ العَرب.
- ثُبوتُ النّحْوية، ومَرجُعُه الاطّراد.

فردُّ النّحويِّ لقراءةٍ ما لا يعني الطّعنَ في قرآنيّتها، ولا هو يليقُ بالعامّة مِنَ المُسْلمين فَضْلاً عَنْ عُلَمائِهم، كما أنّ الأمر غيرُ موكولٍ إليه، ولا يعني فعلُه ذاك الطّعن في عربيّتها طالما وافقت لهجةً ما، إنما يعني شذوذَها، وهو لا يبني قانونَه على الشّاذّ، لأنّ القانونَ إنما جُعِل لأنْ يُقَاسَ عليه، والشّاذُّ يحفظُ ولا يُقاسُ عليه، ويقدّم دارسٌ شيئًا من هذا في قوله: "إنّ التّضعيفَ الموجَّهَ إلى القراءات نوعان : نوعٌ موجّهٌ إلى اللغة التي جاءت عليها القراءة، مع احترام القراءة، والتّسليم بصحّتها، وهو نوعٌ مقبول، إذ لا يُؤَدّي تضعيفُ القراءة إلى تضعيف القراءة ذاتها، ونوعٌ آخرُ موجّهٌ إلى القراءة ذاتها، وهو الذي يُؤْخذُ على النّحويّ "[1]

ومن هذا يتّضح أنّ النُّحَاةَ لم يكونوا على مستوى واحدٍ مِن البَصَر بالأصولِ المَنْهجيّة التي ينبغي التزامُها عند تعلّق التقعيد بالقراءة القرآنية.

- فهل كان على القرّاء أنْ يعْلموا هذا عن النُّحاة؟

نُقَدّر أنّ القرّاء، كذلك، قد كانوا في هذا على درجاتٍ متفاوتةٍ بحسبِ دَرجةِ القُرْبِ من الثّقافة اللّغوية، وهو ما نظنّ أنّه يشمل النّحاة كذلك، وبخاصّة منهم

---

(1) أُصُول النّحْو، دِراسةٌ في فِكْرِ الأَنْباريّ، ص:224.

الأتباع المتأخرين، فإنّه لم يُنْقل عن رعيل المؤسّسين شيءٌ من التّخطئة، وحتّى وإن نُقِل فمدارُ التّخْطئة عنده عدم ثبوت نحويّة القراءة، ونعتُ هذا بالخطأ هو توجيهٌ لمتعلّم النّحو بإفْهامه أنّه لو قاس على غير المطّرد لكانَ قِياسُه هو الخطأ، فالحكمُ على قِراءةٍ ما بالخطأ مُتلبِّسٌ بالقِياسِ عَلَيْها، لا بِالقِراءةِ نَفْسِها.

ومِنْ هُنا نَخْلُصُ إلى ما يُعِينُنا عَلى فَهْمِ ألا يَكونَ في البَصْرِيّين غَيرُ قارِئٍ واحدٍ مِنْ طبقةِ السّبعة، هُو أَبُو عَمْرِو بْنُ العَلاء، فَلِأنّ القارئَ لا يَطْمَئِنُّ إلى وضعٍ منهجيٍّ يتجاذَبُهُ فيه المَصيرُ إلى المَنْقول عَلى قاعِدَة السُّنّة المُتّبَعَة في الإقْراء، والمصيرُ إلى النّحوية على قاعدةِ العملِ على الأكثر، وهم قد نقلوا عن أبي عمرو قولَه: "والله لولا أنّه ليس لي إلا أنْ أقْرأَ بما قُرِئَ به لقرأت حرف كذا كذا، وحرف كذا كذا"[1]

هذا أوّلاً، ومن جهة ثانيةٍ، نفْهَمُ أنْ يكونَ في الكوفِيّين ثلاثةٌ مِنْ كِبارِ القُرّاءِ وأئمّة الإقْراء، هُمْ: حَمْزة، وعاصِم، والكِسائِيّ [2].

– النُّحاةُ والشُّعَراء: والأمرُ ذاتُه يَنْسَحِبُ على علاقةِ النّحاة بفريق الشّعراء، ويفسّر لنا توتّر ما بينهما، فالنّحاة يَرومُون حمْلَ الشُّعراء على المُطّرِدِ في ما يجري عَلى أَلْسِنَتِهِمْ مِنَ الشِّعْر، في حين يأبى الشُّعراءُ ذلك، لأنّه أمرٌ ينالُ مِنْ مَوْهِبَتِهِم، ويتمسّك النّحاة بملاحقتهم خشيةَ أن يُفْسِدوا عَلَيْهم عَملَهم؛ وهو حَمْلُ المجتمع على المُطّرِدِ الذي هُو لِسانُ الدَّوْلَةِ الرّسميّ، بما هُمْ، أيْ الشّعراء، ذَوُو تأثيرٍ بالغٍ في النّاس.

ومِنْ هُنا يَتَأَتّى لَنا أنْ نُفَسّر أنْ انْتَخَبَ لنا تاريخُ النّحو والنّحاةِ خَيْرَ مُمثّلين لهذا التجاذب، وهُما مُمَثِّلُ النُّحاةِ عبدُ الله ابنُ أبي إسْحق الحضْرميّ، وممثّلُ الشُّعَراء الفَرَزْدق:

---

(1) أُصُولُ النّحْو، دِراسةٌ في فِكْرِ الأنْباري، ص:224.
(2) الأُصُولُ، ص: 40.



- قِيل فِي حقِّ الأوّل: "إنّه أوّلُ من بَعَجَ النّحو، ومَدّ القياسَ، وكَشَفَ العِلَل "، وقِيلَ عَنْهُ أَيْضـًا: " كانَ شَديدَ التّجْريدِ لِلْقِياس"[1]
- وقيل في حقِّ الثّاني: "لَوْلا شعرُ الفرزدق لَضَاعَ ثُلُثُ لغةِ العَرب "[2]

وذلك مِنْ مَعْناه التّنبيهُ على نموذجيّة العقليّة النّحويّة، والنّزعة المعيارية الرّسمية عند الحضرميّ، تلك التي تُرى في حرصِه على القياسِ عَلى الكثير، وإِبْعادِ القَليل، والنادر والشّاذّ، وفي هذا الـمَعْنى يقولُ ابنُ جنّي: "فَجَعَلَ أهلُ علمِ العربِ ما استمرَّ مِنَ الكلامِ في الإعْراب، وغَيْرِه مِنْ مَواضِعِ الصّناعةِ مُطّرداً، وجَعَلوا ما فارقُوا عَلَيْه بَقِيّةَ بابه، وانْفَرَدَ عَنْ ذَلكَ إلى غَيْره، شاذّاً"[3]

وبَيْن فَريقِ النُّحاةِ والشُّعراء يَبْقى النُّحاةُ العربُ الـمُسْلمون الطّرفَ الثّابتَ الـمُتَمَسِّكَ بضَرورةِ العَمَلِ على إنْجاحِ مَشْروعِ الدَّوْلةِ الـمَدنيّة، مِنْ خِلالِ الإصْرارِ عَلى صُنْعِ لُغَتِها الرَّسْمية النَّمُوذَجِية التي بها يقومُ شأنُ الـمُسْلِمينَ العامّ في السِّياسَة، والاِقْتِصاد، والثّقافة، والآدَاب.

الـمَبْحَثُ الثَّالِثُ: لُغَةُ القُرآن الكريمِ في نَظَرِ سِيبَوَيْهِ النَّحْويّ

تقعُ لُغةُ القُرْآنِ الكريم مِنْ عِنايةِ اللُّغَوِيِّينَ والنُّحاةِ في الـمَقامِ الأوَّل، ولهمْ في دَرْسِها عُلومٌ وفُنُون، مِنْها عِلْمُ إعرابِ القُرْآن، وهُو محلُّ عِنايتِنا في هَذِه الوَرقة، و لَـمْ نَلْقَ لِما يُلائِمُ أَغْراضَ بحثِنا هذا خَيْراً مِنْ تعريفِ الدُّكْتور أَحْمَدَ سَعْدٍ الخطيبِ: يقولُ: "عِلْمُ إعْرابِ القُرْآنِ أَحَدُ عُلومِ القُرْآنِ، ....، ويُطْلَبُ هذا الإعْرابُ مِنْ عِلْمِ النَّحْو، وهُو مُهِمٌّ جِدّاً لِـمُفَسِّرِ كتابِ الله تعَالى؛ لأنَّ الإعرابَ فَرْعُ الـمَعْنى، وهُو يُؤَثِّرُ عَلى

(1) طَبقاتُ النّحويّين واللّغويين، للزّبيدي، ص: 31.
(2) الأغَـــــاني، 21 / 419
(3) الخَصَائِص، 1 / 98.

مَعْنى الآية، ولِذلكَ قَدْ يختلِفُ تَفْسيرُ الآيةِ تَبَعـًا لاخْتِلافِ إعْرابها، فَبَيْن التَّفْسِير والإعْرابِ ازْدِواج، فالـمُفَسِّرُ لازمٌ عَلَيْه مَعْرفةُ إعرابِ الآيَة، والـمُعْرِبُ لازمٌ عَلَيْه مَعْرفةُ تَفْسيرِ الآيَة" (1)

وقالَ السُّيوطيُّ في ضَرورتِهِ للتَّفْسِير: "عَلى النَّاظِرِ في كتابِ الله تَعالى الكاشِفِ عَنْ أَسْرارِه، النَّظَرُ في الكلمَةِ، وصِيغتِها، ومَحَلِّها، كَكَوْنِها، مُبْتَدأً، أو خَبَراً، أوْ فاعِلاً، أو مَفْعولاً، أو في مَبادِئِ الكلامِ، أوْ في جوابٍ، إلى غَيْرِ ذلك" (2)

كما يُقَيِّدُ صِلةَ الإعْرابِ بالتَّفْسيرِ ببَعْضِ ما يُوصي به في قَوْلِه: "ويجبُ عَلَيْه-أَيْ مُعْرِبُ القُرْآن- أنْ يَفْهَمَ مَعْنى ما يُريدُ أنْ يُعْرِبَهُ مُفْرداً، أوْ مُرَكَّبًا قَبْلَ الإِعْرابِ؛ فإِنَّهُ فَرْعُ الـمَعْنى"(3)

ولَقَدْ خَلُصْنا مِنْ بحثِ صِلَةِ التَّفْسِيرِ بالإعْرابِ إلى ما يَلي:

- الإعرابُ تَطْبيقٌ تِقْنيٌّ لِـمَقولاتِ النَّحْو، أو هُوَ تَنْزيلٌ لها عَلى النُّصوصِ العَرَبِيَّة.
- إِعْرابُ القُرْآنِ الكريمِ غَايَتُهُ فَحْصُ اسْتِجابةِ تَراكيبِهِ لِـمُقْتَضى مَقولاتِ الصِّناعةِ النَّحْوِيّة.
- لُغةُ القُرْآنِ الكريم آخِذةٌ مِنَ اللُّغةِ، اطِّراداً وشُذوذاً، مَعَ أَغْلَبِيَّةِ الاِطِّرادِ على الشُّذوذِ بموجِبِ اتِّفاقِها الأَغْلبيِّ مَع لُغةِ قُرَيْشٍ التي كانتْ لُغةَ العربِ الجامِعة.
- إعرابُ القُرْآنِ الكريمِ يَتَعَلَّقُ بِغالِبِه، لا بِكُلِّه.

---

(1) أ.د/ محمد سَعْدٍ الخَطيب، مَفاتِيحُ التَّفْسِير، مُعْجَمٌ شَامِلٌ لِما يَهُمُّ الـمُفَسِّرَ مَعْرِفَتُه، مِنْ أُصُولِ التَّفْسيرِ، وقَواعِدِه، ومُصْطَلَحاتِه، ومُهِمّاتِه، دارُ التَّدْمُريّة، دارُ ابْنِ حَزْمٍ، الـمَمْلكةُ العَرَبيّة السُّعُودية، الطَّبْعة الأُولى، 1431هـ-2010، 1/ 149.

(2) السُّيوطيّ، الإِتْقانُ فِي عُلُومِ القُرْآن، تحقيقُ عَبْدِ الرَّحْمن فَهْمي الزّواوي، دارُ الغَدِ الجديد، القاهِرة، الطَّبْعة الأُولى، 2006، 2/ 215.

(3) الإِتْقان، 2/ 215.



- افْتِراضُ اسْتِجابَةِ كُلِّ تراكيبِ القُرْآنِ لِـمَقولاتِ النَّحْوِ هُو مَوْقِفٌ خاطِئٌ مَنْهَجِيًّا.
- لُغَةُ القُرْآنِ أَوْسَعُ مِنْ قَواعِدِ النُّحاةِ.
- المَوْقِفُ الحقُّ مَعَ شاذِّ لُغةِ القُرْآنِ عَنِ القياسِ والاطِّرادِ هُو العَوْدُ به إلى اللُّغَوِيِّ يَنْظُرُ فيه بِإِعْمالِ مَقولاتٍ أُخْرى مِنْ مِثْلِ: التَّرَخُّصِ[1] والتَّوَهُّمِ[2]، والتَّوَسُّع.[3]

وإلى هُنا نُحِبُّ أنْ نُجيبَ عَنْ السُّؤالِ الواجبِ طَرْحُهُ:

- إِلَى أيِّ مَدى كانَ سِيبَوَيْهُ عارفًا بحدودِ صَنْعَتِهِ في أَثْناءِ نَظَرِهِ في لُغَةِ القُرْآنِ الكَريم؟ أَوْ هَلْ كانَ سِيبَوَيْهُ يَصْدُرُ عَنْ مَبادِئَ مَنْهَجِيَّةٍ في بحثِهِ لغةَ القُرْآنِ الكَريم؟

ولَسَوْفَ نجيبُ عَنْ هذا بِبَسْطِ القَوْلِ في مَسْأَلَتَيْنِ مِنْ مَسائِلِ مُشْكِلِ الإِعْراب، ثـمّ نَفْحَصُ مَوْقِفَ سِيبَوَيْهِ فِيهِما، سَعْيًا لِلْكَشْفِ عَنْ مَكانِ لُغةِ القُرْآنِ الكريمِ في نَظَرِ سِيبوَيْه النَّحْوِيِّ كما صَرَّحْنا في عُنْوانِ هَذِه الوَرَقة:

- <u>أَوَّلاً: المَسْأَلَةُ الأُولى: في تَعْيينِ وَجْهِ (إنَّ) مِنْ قَوْلِهِ تَعالى: (إنَّ هَذانِ لَسَاحِرَان):</u>

---

(1) يُنْظَرُ مُفَصَّلاً في: د/ تَمّام حَسّان، اللُّغَةُ العَرَبيّة مَعْناها ومَبْناها، عَالَـمُ الكُتُب، القاهِرة، الطَّبْعةُ الثّالثة، 1418ه، 1998، 233، واجْتِهاداتٌ لُغَوِيَّةٌ، لَه، عَالَـمُ الكُتُب، القاهِرة، الطَّبْعة الأولى، 2007، ص: 100.

(2) يُنْظَرُ مُفَصَّلاً: في: د/ راشِد أَحْمد جَرّاري، التَّوَهُّم، دِراسةٌ في كِتابِ سِيبَوَيْه، المجلّة العَربيّة لِلْعُلومِ الإِنْسانية، تَصْدُرُ عَنْ مجلسِ النَّشْرِ العِلْميّ، جامِعة الكُويت، العدد: 66، السنة: 17، رَبيع 1999، ص: 76. و د/ عَبْدُ الله أَحْمد جادُ الكَريم، التَّوَهُّم عِنْدَ النُّحاة، مَكْتبة الآداب، القاهِرة، الطَّبْعة الأُولى، 1422ه، 2001، ص: 34. و د/ نَصْر الدّين وهّابي، التَّوْجيهُ النَّحْويُّ لِلتَّشابُهِ اللَّفْظِيِّ في لغةِ القُرْآنِ الكَريم، المَتْبوعُ مِنْه والمَدْفوع، دَار سَامي، الوادِي، الجَزائر، الطَّبْعة الأُولى، ص: 69.

(3) يُنْظَرُ مُفَصَّلاً في: د/ عادِل هادي حمّادي العُبَيْدي، التَّوَسُّعُ في كِتابِ سِيبَوَيْه، مَكْتَبةُ الثَّقافةِ الدِّينِيَّة، القاهِرة، 2004، ص: 07.

قَالَ الله تَعَالى، في القصّةِ عنْ فرعونَ يصفُ موسى وهارونَ، وما أظْهَرا له من المُعْجزة: ﴿فَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ﴾[1].

والشّاهدُ في (هذان)، والشاهدُ فيه هذه الألفُ التي هي علامةٌ للمرفوعِ مِن المُثنى، وهي هُنا فيما حقُّه النّصب، وعلامةُ النصبِ الياء، فكانَ القياسُ: (إنّ هذين)، قال في الألفيّة[2]:

و(ذَانِ) (تَانِ) للمُثَنّى المُرْتَفِع ....

والهاءُ حرفٌ للتنبيه[3]، ويقالُ في تثنيةِ (ذا) ذانِ، فيلتقي ألفان؛ ألفُ (ذا)، وألفُ التثنية، فتحذفُ إحداهما، واختُلِفَ في أيّهما تحذف، وسيأتي في مَوْضِعِه:

وقد جاءوا في توجيهِ هذا بأقوالٍ، مِنها:

- القولُ الأوّل: أنّ (إنّ) جوابيةٌ، بمعنى (نعم)، فجعلوها حرفًا هاملاً، فارتفع (هذان) بالابتداء؛ لخروجِ (إنّ) عنْ أنْ تكون عاملةً ناصبة، وأيّدوه بقولِ الشّاعر:

بَكَرَ عَلَيَّ عَوَاذِلي ... يَلْحَيْنَني وأَلُومُهُنَّهْ
ويَقُلْنَ شَيْبٌ قد عَلا ... كَ، وقَد كَبِرْتَ فقلتُ: إنَّهْ[4]

(1) سُورةُ طَه: 62.

(2) ابْنُ مالكٍ، مَتْنُ الأَلْفِيَّة في النَّحْوِ والصَّرْف، دارُ ابْنِ حَزْم، بَيْروت، لُبْنان، الطَّبْعة الأُولى، 2002، ص: 23.

(3) الرُّمَّاني، مَعَاني الحُرُوفِ، حَقَّقَه، وخَرَّجَ حَديثَهُ، وعَلَّق عَلَيْه الشَّيْخُ عِرْفانُ بْنُ سُلَيْمان العَشَا حَسُّونة الدِّمَشْقي، المَكْتَبَةُ العَصْرية، صَيْدا، بَيْروت، الطَّبْعة الأولى، 2005، ص: 69.

(4) البَيْتُ لعبيدِ الله بْنِ قيسٍ الرُّقيّات، ديوانُه، تحقيق وشرح د/ عزيزة فوال بابتي، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، 1995، ص: 212. وهُو مِنْ شَوَاهِدِ كتابِ سِيبَوَيْه، 3/ 151، ويَنْبَغي التَّفَطُّنُ إلى أنّ سِيبويه لَمْ يُوَجِّهْ بِه الآية، وسَيَأْتي لاحِقًا، وخزانةُ الأدَب، 4/ 487.



وبِقَوْلِ ابنِ الزُّبَير، لِمَنْ قال له: "لعنَ الله ناقةً حملتني إليك" قال: إنّ، وراكبَها؛ يريدُ: نعم، وراكبَها.

ورَدُّوا الاستدلالَ بالبيتِ بكونِ (إنّ) فيه ناصِبة، والهاءُ اسمها، لا للسَّكْت، وخبرُها في تقدير: إنّه كذلك.

وأما قولُ ابنِ الزّبير فغيرُ جائزٍ فيه ذلك؛ لأنّ فيه حذفًا لجزئَيْ (إنّ)، وهو غيرُ جائزٍ، كما رأوا جعلَ (إنّ) بمعنى (نعم) ضعيفًا لقلّةِ وروده، وعلى التَّسْليمِ لثبوتِه لم يَرَوْا لها وجهًا في هذا الموضعِ لعدمِ تقدُّمِ ما يقتضي استعمالها[1]. كما رُدَّ هذا بأنّ اللامَ في الخبر هي المُسَمَّاةُ المُزَحلقة، وقيل: يجوزُ أنْ تكون زائدةً كما زيدتْ في قولِ الشّاعر:

أُمُّ الحُلَيْسِ لَعَجُوزٌ شَهْرَبَه ... تَرْضَى مِن اللَّحْمِ بعظْمِ الرَّقَبَه

وقولِ الشّاعر:

خَالي لأنْتَ، ومَنْ جريرٌ خالُه ... يَنَلِ العُلا ويَكْرُمِ الأَخْوالا[2]

أو أنّها على التّسليمِ بأنّها لامُ توكيدٍ داخلةٌ على مبتدأٍ محذوف؛ أي إنّ هذانِ لهما ساحران، فلمْ تدخلْ على خبر المبتدأ، ورآهُ الزّجّاج، وعرضَه على المُبَرِّد وغيره، فقَبِله، وذكرَ له أنّه أَجْودُ ما سَمع في هذا[3].

(1) يُنْظَر: شِهابُ الدِّين الآلُوسي، رُوحُ المَعَاني، تَحْقيقُ وتخريجُ السَّيِّد مُحمّد السَّيِّد وسَيِّد إبراهيم عِمْران، دَارُ الحديث، القاهِرة، 1426ه، 2005، م8، 16/ 741.

(2) أَبُو إِسْحق الزَّجّاج، مَعَاني القُرْآنِ وإعْرابُه، شَرْح وتحقيق عَبْدُ الجليلِ عَبْدُه شَلَبي، خَرَّجَ أَحادِيثَه الأُسْتاذُ عَلي جمَال الدِّين محمد، دارُ الحديث، القاهِرة، 1424ه، 2004، 3/ 296.

(3) مَعَاني الزّجّاج، 3/ 296. و أَبُو مَنْصورٍ الثّعالبي، فِقْهُ اللُّغَةِ وسِرُّ العَرَبيّة، تحقيقُ خالِد فَهْمي، مَكْتَبَةُ الخانجي، القاهِرة، الطَّبْعةُ الأُولى، 1418ه، 1998، ص: 357.

وحملوهُ على غيرِ هذا، بأنّ جعلوا دخولَ اللامِ على خبر (إنّ)، وإنْ لمْ تكنِ النّاصبة، لشَبَهِها بها لفظًا[1]، ورأَوْا في دخولِ اللامِ على الخبر بُعْدا؛ لأنّه خاصٌّ بالشِّعْر[2]، لكنَّ الألوسيَّ أيّده بدخولها عليه بروايةِ التّرمذيّ، وأحمد، وابنِ ماجة: (أَغْبطُ أوْليائي عِنْدي لَـمُؤْمِنٌ خفيفُ الحاذِ)، وجعلَه أصْدقَ شاهدٍ في الـمَسْألة، ولكنّ هؤلاءِ الأئمّةَ رَوَوْه بدخولِ (إنّ)، لا كما زعمَ الألوسيُّ[3].

وأمّا في قراءةِ (إنْ هذان)، بتخفيفِ نونِ (إنّ) فهي النّافية، واللامُ بمعنى (إلّا)، والمعنى: (ما هذان إلّا سَاحران)[4]، وصحّحه الأزهريُّ[5]، ورأى مَكّيُّ بنُ أبي طالبٍ القيسيُّ أنَّ في جعلِ اللّام بمعنى (إلا) ادِّعاءً أنْكرهُ البَصْريون[6].

- القولُ الثّاني: أنّ (إنّ) عاملة، مُفيدةٌ للتّوكيد، لكنّ اسْمَها ضميرُ الشّأنِ المحذوف، والتّقدير: (إنّه هذان)، والجملةُ (هذان لَسَاحران) خبرُها[7]، وحسَّنَه مكيُّ مع احترازِه بكونِ دخولِ اللام على الخبر، هنا، بعيدا[8]، ولـمْ يُعَلِّق الزّجّاجُ عليه، واكْتفى بعَزْوِه لقُدَماء النّحويين[9]، ورَوى الألوسيُّ أنّهم ضعّفوه بأنّ ضميرَ الشَّأْنِ موضوعٌ للتّقوية، وما كان كذلك لا يناسِبُه الحذف، وحكَموا على ما رُوِيَ في

---

(1) رُوحُ الـمَعَاني، م8، 16/ 742.

(2) مَكّي بنُ أبي طالبِ القَيْسيّ، مُشْكِلُ إعْرابِ القُرْآن، حقَّقَه وعلّق عَلَيْه ياسين محمد السّواس، اليَمامة لِلطّباعةِ والنَّشْرِ والتَّوْزيع، بَيْروت، الطَّبْعة الثّالثة، 1423ه، 2002، ص: 439.

(3) رَوَاهُ التّرمذيُّ في "باب ما جاءَ في الكفافِ والصَّبْر عليه"، (حَدِيث رقم: 2347)، ص: 431، ورَواهُ ابْنُ مَاجة بلفظِ (إنّ أَغْبَطَ النّاسِ عِنْدي مُؤْمِن)، بغير لامٍ، في "بابِ مَنْ لا يُؤْبَه له"، (حديث رقم: 4117)، ص: 428.

(4) ابْنُ زَنْجِلة، حُجّة القِراءات، تحقيقُ سَعِيد الأفْغاني، مُؤَسَّسةُ الرِّسالة، بَيْروت، لُبْنان، الطَّبْعة الخامِسة، 1997،، ص: 456.

(5) الأزْهَريّ، مَعَاني القِراءَات، تحقيق محمد بْنُ عِيد الشَّعْباني، دارُ الصّحابة للتُّراثِ بِطَنْطا لِلنَّشْر والتَّحْقيقِ والتَّوْزيع، 2007، ص: 310.

(6) مُشْكِلُ إعرابِ القُرْآن، ص: 440.

(7) رُوحُ الـمَعَاني، م8، 16/ 742.

(8) مُشْكلُ إعرابِ القُرْآن، ص: 440.

(9) مَعَاني القُرْآنِ وإعْرابُه، 3/ 295.



حذفه بالضّرورةِ والشُّذُوذ[1]، وأنه ليس حذفُه، هنا، كحذفِه مِنْ أنَّ الـمَفْتوحةِ الـمُخَفَّفَة؛ لأنّ الكلامَ معها مَبْنِيٌّ على التخفيف، ولو رُدَّ الضّميرُ لزمَ تشديدُ النّون؛ لأنّ الضميرَ يَرُدُّ الأشياءَ إلى أُصُولها[2].

وعلى التّسليمِ له يظلُّ بحثُ دخولِ اللّام، وقد جعلَها أبو حيّانٍ فارقةً بين (إنّ) الـمُخَفَّفَة و(إنْ) النّافية؛ فضَعُف بذلك أنْ تكونَ نافية[3].

- القَوْلُ الثّالث: أنّ (إنّ) مع تشديدِها مُلْغاة، حملاً لها على الـمُخَفَّفة في عملِها، فكما أَعْمَلوا الـمُخَفّفةَ أهملوا الـمُشَدّدة، أو أنّ إهمالها مِن بابِ الحطِّ مِنْ رُتْبَتِها؛ فإنّ عملَها ليس لها على الأصالة، إنما لِشَبَهِها بالفعل، وما بعدَها مُبْتَدأٌ وخبر، ويَرِدُ بحثُ دخولِ اللّامِ على ما تقدّم، وعَزَاهُ الألوسيُّ للرُّمّاني[4]، ولَمْ أجِدْه[5].

- القولُ الرّابعُ: وهو قولٌ نقلَهُ ابْنُ منظورٍ في اللِّسَان، قال: "وإنْ ثَنَّيْتَ (ذا) قلتَ: (ذان)؛ لأنّه لا يَصِحُّ اجتماعُهما لِسُكونِهما، فتسقطُ إِحْدى الأَلِفَيْن، فمَنْ أسْقطَ ألفَ (ذا) قرأَ "إنّ هذيْنِ لسَاحران"[6]، فأعربَ، ومَنْ أسقَطَ ألفَ التَّثْنِيةِ قرأَ "إنّ هذانِ لَسَاحران"؛ لأنّ ألفَ (ذا) لا يقعُ فيها إعْرابٌ"[7].

---

(1) رُوحُ الـمَعَاني، م8، 16/ 742.

(2) رُوحُ الـمَعَاني، م8، 16/ 742.

(3) أَبُو حَيّانٍ الأَنْدَلُسِي، النَّهْرُ الـمَادّ، تَقْديم وضَبْط، بُوران وهَـدْيان الضّنّاوي، مُؤَسَّسةُ الكتابِ الثّقافية، دارُ الجِنان، بَيْروت، لُبْنان، الطَّبْعة الأُولى، 1987، 2/ 427.

(4) رُوحُ الـمَعَاني، م8، 16/ 743.

(5) مَعاني الحُرُوف، ص: 123.

(6) قَرَأَ بها أَبُو عَمْرو بْنُ العَلاء، يُنْظَرُ: القُرْطُبي، الجامِعُ لأَحْكامِ القُرْآن، تقْديم هاني الحاج، حَقَّقَهُ وخرّج أحاديثَه عِماد زكيّ البارُودي، وخَيْري سَعيد، الـمَكْتَبَة التَّوْفيقيّة، القاهِرة، مِصْر، الطَّبْعةُ العاشِرة، 2012، 11/ 157، ومَعَاني القِرَاءات، ص: 310، ورُوحُ الـمَعَاني، م8، 16/ 744.

(7) لِسَانُ العَرب، 5/ 03

وأبَاه ابْنُ بَرِّي بأنّ ألفَ التّثنيةِ إنّما زِيدَتْ لمعنى، وما زيد لـمَعْنى لا يجمُلُ به الحذفُ[1].

– القولُ الخامِسُ: وهو أنْ تكونَ على لغةِ قومٍ مِن العرب، وهمْ بنو الحارثِ بنِ كعبٍ، وغيرهِم مِنْ كِنانةَ؛ كخثعمٍ، وبني العنبر، وبني الهجيم، ومُرادٍ، وعُذْرة[2]؛ فإنّهم يأتون بالـمُثَنّى على صورةِ الألِفِ حيثما وقع مِن الإعراب، فيقولون: جاء الزّيدان، ورأيتُ الزّيدانِ، ومَرَرْت بالزّيدان، قال شاعرُهم:

تَزَوَّدَ مِنا بَيْن أُذْنَاهُ ضربةً دَعَتْه إلى هابي التُّرابِ عَقِيمُ[3]

كمَا أَنْشَدُوا:

فأَطْرقَ إطْراقَ الشُّجَاعِ، ولو رَأى مَسَاغًا لِنَابَاهُ الشُّجَاعُ لصمَّمَا[4]

وغيرَ هذا، ومُفَادُه أنّ الآيةَ محمولةٌ على لغةٍ مِنْ لغاتِ العرب، وفي القرآنِ مِنْ لغاتِ العربِ الكثير.

وهذا التوجيهُ، هو عِند أهلِ العلمِ، في واحدةٍ مِن مَرْتَبَتَيْن:

- أنّهُ أجْودُ الأقوال؛ فقد اكتفى به أبو حيّانٍ في النّهر الـمادّ[5]، فدلَّ على الاختيار، والكَرْمانيُّ في مَفاتيح الأغاني[6]، وردَّ به الزَّجّاجُ أقوالَ غيرِه بأنْ وصفَ ناقلَه

(1) لِسَانُ العَرب، 5/ 03.
(2) النَّهْرُ الـمَادّ، 2/ 427، ورُوحُ الـمَعَاني، م8، 16/ 743.
(3) مُشْكلُ إعْرابِ القُرْآن، ص: 439.
(4) مَعَاني القُرْآنِ وإعرابُه، 3/ 295، والبيتُ للمُتَلَمِّس، يُنْظَرُ: شَرْحُ الـمُفَصَّل، 3/ 128، ولِسَانُ العَرب، مادّة (صمّم)، والنَّهْر الـمَادّ، 2/ 427، ومَعَاني القِراءاتِ، ص: 311. ومُشْكِلُ إعْرابِ القُرْآن، ص: 439.
(5) النَّهْرُ الـمَادّ، 2/ 427.
(6) أَبُو العَلاء الكَرْمانيّ، مَفَاتيحُ الأغَاني في القِراءاتِ والـمَعاني، دِراسةُ وتحقيقُ د/ عَبْدُ الكريم مُصْطَفى مُدْلِج، تَقْديم: مُحْسِن عَبْد الحميد، دَارُ ابْنِ حَزْم، مِصْر، الطّبْعة الأولى، 2002، ص: 273.



ناقلَه بأنه رأسٌ في رواية اللّغة[1]، وقدّمه مَكِّيٌّ فصدَّرَ به أقوالَ التّوجيه[2]، وصرّح به الألوسيُّ، فقال: "وهُوَ أَجْوَدُ الوُجُوهِ وأَوْجَهُها"[3].

- أنّهُ ثاني أَجْوَدِ الأقوال؛ وهو عِند الزَّجَّاج؛ فقد قدّمَ عليه رأيًا له رآه، وهو الـمَصِيرُ بـ (إنّ) إلى معنى (نعم)، وجعلُ اللامِ داخلةً على مُبتدأ محذوفٍ؛ أي: (لهما ساحِران)، قال بعد أنْ أَظْهَر قولَه، وزكّاه برضا الـمُبرّد والجوهريِّ، عنه: "والذي يَلي هذِه (يُشيرُ إلى كلمَتِه في التَّخْريج) في الجَوْدةِ مذهبُ بني كنانةَ في تركِ ألفِ التثنيةِ على هيئةٍ واحدةٍ"[4].

والذي نراه، والله تعالى أعْلم، أنّ الحملَ على اللُّغةِ الكنانيةِ هُو أوْلى ما في الـمَسْأَلة، وأنّ ما سِواه، هو جميعُه آتٍ من خللٍ منهجيٍّ كبيرٍ في بحثِ لغةِ القرآنِ الكريم، وذلك مِنْ وَجْهَيْن أَسَاسيّين:

- أَوَّلُهُما: تحكيمُ الضّيّقِ في الواسِع؛ على معنى تحكيمِ قواعدِ النّحو، مع انحصارِها في مستوى الاطّراد، وهو بعضُ اللّغة، وإنْ كان بعضَها الغالب، والـمقرَّرُ عندهم أنّ قواعدَ النُّحاةِ أَضْيَقُ مِن كلامِ العرب، وأنّ شُيُوعَ القاعدةِ لا يعني مُطابقتَها لسُلوكِ اللّغة[5]؛ فمفهومُ الإصرارِ على توجيهِ الآيةِ مِنْ داخلِ الـمنظومةِ النّحويّةِ يقعُ على الضِّدِّ مِن التَّسْليمِ لِكَوْنِ الحكمِ على لغةِ القرآنِ بالقُرَشيّةِ حكمًا أَغْلَبِيًّا، لا

(1) مَعَاني القُرآنِ وإعْرابُه، 3/ 295.
(2) مُشْكِلُ إعْرابِ القُرْآن، ص: 439.
(3) رُوحُ الـمَعَاني، م16،8/ 743.
(4) مَعاني القُرْآن، 3/ 296، ويُنْظَر: مَعَاني القِراءاتِ، ص: 311.
(5) مَجْموعةٌ مِنَ الباحِثين، تمّام حَسّان، رَائِداً لُغَويّا، بُحُوثٌ ودِراساتٌ مُهْداةٌ مِنْ تَلامِذَتِه وأَصْدِقائه، (=كِتابٌ تِذْكاريّ)، إِعْدادُ وإشْراف: الدُّكْتور عَبْدُ الرّحْمنِ حَسَن العارف، عَالَـمُ الكُتُب، مِصْر، الطبعة الأولى، 1423ه، 2002، ص:37، والقَاعِدةُ اللُّغَويّة، دِراسةٌ نَقْدِيّةٌ تَحْليلية، د/ أَحْمدُ عَبْدِ العَظيم عَبْد الغَني، كُلِّيَّة دارِ العُلوم، دارُ الثَّقافةِ للنَّشْر والتّوْزيع، القاهِرة، 1410ه، 1990، ص: 21.

إِطْلاقيّاً[1]. ويُفَسِّرُ هذا الإصرارَ المَيلُ إلى إرضاءِ أُصُول الصّنعةِ النحويّة على حِسابِ المَعْرفةِ اللّغوية.

لذا، فالأَيْسَرُ مِنْ كلِّ أقوالهم، والأدنى للتَّسْليم، هو الحملُ على لغةِ بني الحارثِ بنِ كعبٍ، كما تقدّم؛ لأنّ تفسيرَ الآيةِ واقعٌ في اللّغةِ، لا في النّحو.

وأمّا قولُ الزّجّاجِ بأَجْوَدِيَّةِ رأيه، فمفهومُه حملُ القرآنِ على النّحوِ، لا على اللّغة، وإنْ بَدا له أنّ رأْيَه مُزَكًّى مِن إمام، أو إمامين جَلِيلَيْن، فهي تزكيةٌ فيها مَرضاةٌ لأصولِ الصّناعةِ النحويّةِ، لا مَرْضاةَ فيها لأصولِ التّفسير بعامّة، وأصولِ التَّفْسيرِ اللّغوية منها بخاصّة؛ وذلك على هذا البَيَان:

- لـمْ نَرَ في عُلماءِ الوجوهِ والنّظائر، والكلّياتِ مَنْ قرّرَ أنّ كلَّ (إنّ)، في القرآنِ، هي بمعنى التوكيدِ ثمّ اسْتثنى التي في آيةِ طه، هذه.
- ظُهُورُ انحرافِ هذا التخريجِ على أصلٍ مُعْتبرٍ، وهو مُراعاةُ عادةِ القرآنِ في الخطاب، وقد جرتْ كلُّ (إنّ)، في القرآن، لـمَعْنى التوكيد، وخروجُها، في هذا الـمَوْضِع، عن عادةِ جريانها فيه، مُفْتَقِرٌ إلى الدّليل، والخلافُ المحكيُّ في توجيهِها دليلٌ على افتقارِها إلى الوضُوح الـمُغْني عنِ الدّليل، قال الدّكتور محمّدُ سعدٍ الخطيبُ، في تعريفِ (عادةِ القرآن): "هُو تَكَرُّرُ ورودِ لفظٍ، أو تركيبٍ أو أسلوبٍ، في القرآنِ ليدُلَّ، غالبًا، على معنى مُعَيَّنٍ، وقولُنا "غالبا" يُشِير إلى أنّ مخالفةَ العادةِ مرةً، أو مَرَّتَيْن، لا يَقْدَحُ فيها، لكنّ هذه المخالفةَ لا تُعْتَبَرُ إلا إذا دلَّ عليها دليلٌ أو كانت مِنَ الوضوحِ بحيثُ لا تحتاجُ إلى دليلٍ"[2].

وليستْ إنّ، هُنا، عند مَن يخرجُها إلى معنى (نعم)، في انفرادِها، كمِثْلِ كلمةِ (ضيزى)؛ فإنّ كلمةَ ضِيزى هي مِنْ ظهورِ المعنى بحيثُ لا يقعُ فيها اختلاف، ولم يكنْ بها إشكالٌ يَدْفَعُه التّخريج، إنّما نَظَروا في سِرِّ استخدامِها، في ذلك الـمَوْضِع،

---

(1) د. محمّد حَسَن حَسَن جَبَل، مِنَ القَضَايا الكُبْرى في القِراءاتِ القُرْآنيّة، ، ص: 19.

(2) مَفَاتيحُ التَّفْسِير، 2/ 581.



مِنْ سُورة النّجم، خاصّة، وكلُّ كلمةٍ انفردتْ في لغةِ القرآنِ فانْفِرادُها يُفَسِّرُهُ ظهورُ معناها بما يُغْني عَن التخريج، وعلى طلبِ التَّنْكيتِ فِي اسْتِعْمالها.

كما لا يخفى أنّ الإجحافَ بأصلِ مُراعاةِ عادةِ القرآنِ الكريمِ ،هو إجحافٌ بآصَلِ أصولِ التفسيرِ وهو تفسيرُ القرآنِ بالقرآن[1].

- في تخريجِ الزّجاج، وتخريجِ غيرِه، انحرافٌ عَنْ أصلٍ ثانٍ، هو حملُ الخطابِ القُرْآنيِّ على الإفهامِ والتّفهيم، لا على التّعميةِ والتّلبيس، والتعميةُ في حملِ (إنّ) على معنى (نعم) حاصلةٌ مِنْ وجوهٍ:

- خروجُها عنِ العادةِ بغيرِ دليلٍ مُبين.
- بناءُ التّخريجِ على المعنى الإفراديِّ، لا التّركيبي؛ فإنّه، وإنْ سُلِّمَ لمجيئِها، في كلامِ العرب، بمعنى (نعم)، فإنّ السّياقَ لا يُساعدُ عليه؛ لأنّه لَمْ يتقدَّمْ في الكلامِ ما تكونُ هي جوابًا له، والإخلالُ بالسّياقِ إجحافٌ بواحدٍ مِن آصلِ أصولِ التّفسير كذلك، يقولُ الدّكتور بودرع: "يَقْتَضِي منهجُ التّفسيرِ اللُّغَويّ السّياقيّ ألا يقتصرَ المُفَسِّرُ على دلالةِ الكلمةِ المُفردةِ، بلْ يجاوزُها إلى تركيبِ الكلام"[2].

---

(1) يُنْظرُ: د/ محمد قَجْوي، تَفْسِيرُ القُرْآنِ بالقُرْآن، دِراسةٌ تاريخيةٌ ونَظَريةٌ، الرّابطةُ المُحَمَّدية للعُلَماء، ومرَكْز الدِّراساتِ القُرْآنية، الرّباط، المَغْرب، طَبْعُ مَطْبعةِ المَعارفِ الجَديدة، الرّباط، المَغْرب، الطّبْعة الأُولى، 1436ه، 2002، ص: 158.

(2) د/ عَبْدُ الرَّحْمن بُودَرْع، مَنْهَجُ السِّياقِ فِي فَهْمِ النَّصّ، كتابُ الأُمّة، سِلْسِلَةٌ دَوْريةٌ تَصْدُرُ كُلَّ شَهْرَيْنِ عَنْ وِزارةِ الأَوْقافِ والشُّؤونِ الإسْلامِية، قَطَر، العدد111، المحرم، 1427ه، فبراير، 2006، ص: 38، و د/ عَبْدُ الرّحمن بُودَرْع، الخِطابُ القُرْآنيُّ ومَنَاهِجُ التّأْويل، نحوَ دِراسةٍ نَقْديةٍ لِلتّأْويلاتِ المُعاصِرة، الرّابطةُ المُحمَّديَةُ لِلْعُلماء، ومَرْكزُ الدِّراساتِ القُرْآنية، المَغْرب، الطَّبْعة الأُولى، 1434ه، 2013، ص: 185، و د/ صالح سُبوعي، النَّصُّ الشَّرْعيُّ وتأويلُه، الشّاطِبي أُنْموذَجًا، كتابُ الأُمّة، سِلْسِلَةٌ دَوْريّةٌ تَصْدُرُ كُلَّ شَهْرَينِ عَنْ وِزارة الأَوْقافِ والشُّؤونِ الإسْلامية، قَطَر، العَدد 117، المحرم، 1428ه، السَّنة السَّابِعَةُ والعِشْرون، الطَّبْعة الأُولى، فِبْراير، 2007، ص: 52 و 72.

وأمّا ما ذهبوا إليه مِنْ تضمينِ الكلامِ الـمُتقدِّمِ عليها ما يقتضي اسْتِعْمالها ففيـه مِـن التكلّفِ ما تأْباهُ بلاغةُ القـرآنِ لبُعْدِه[1]، وهـذا التّكلُّـفُ يُظْهِـرُه أنّ جَعْـلَ (إنّ) بمعنـى (نعم) مما فيه تشويشٌ على الفهمِ بعدمِ تَبَيُّنِ الـمُناسبةَ بينها وبين ما تَقَدَّمَها، والعمـلُ بمبدأ الـمُناسبةِ أحدُ الأصـولِ الـمُعْتبرة كـذلك، يقـولُ الـدّكتور بـودرع: "ويَتّصـلُ بمُراعاةِ المُنَاسبةِ علاقةُ الانْسِجامِ في الكلام، وهو شِدَّةُ تماسكِ أجزائِه حتى يَتَحَدَّرَ تَحَدُّرَ الماءِ المُنْسَجِم"[2]، فلَوْ كـان في تحميـلِ (إن) معنى الجوابِ تحدُّرٌ كتَحَـدُّرِ الماءِ ما كان مِنْ داعٍ إلى تَبَيُّنِ ما يُسَوِّغُ اسْتِعْمالها باعتبارِ ما تَقَدّمها مِن الكلام، فكـلُّ ذلك ممّا فيه إخلالٌ بمفهومِ الشّبكةِ التّركيبيةِ للكلمةِ القرآنيّة[3].

- علـى أنّـا نَـرى أَخْطَـرَ مـا في جَعْـلِ (إنّ) جوابيـةً ازْوِرارُهُ عـنْ أعْظـمِ أصـولِ التفسيرِ، وأعلاها مَقامًا؛ وهو أصلُ تفسيرِ القرآنِ بالقرآن، وهذا بيانُه، بحولِ الله:

- إنّه قدْ قصَّ القرآنُ الكريمُ عَنْ لقاءِ موسى، وفرعون وسَحَرتِه، في غيرِ هذا الـمَوْضِع، فقال تعالى في الأعرافِ، على لِسَانِ الملأ، مِنْ قومِ فرعون: ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٦﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٨﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ [**الأعراف**: 106-109].

وقال تعالى في الشُّعَراء: ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ

---

(1) رُوحُ الـمَعَاني، م8، 16/ 741.

(2) بُحوثُ الـمُؤْتَمَرِ العالَـمِيِّ الثالثِ لِلْباحِثين في القُرْآنِ الكريم وعُلُومِه، في مَوْضـوع: "بِنـاءِ عِلْـمِ أُصُـولِ التَّفْسير: الوَاقِعُ والآفاقُ"، أيّام: 19/ 20/ 21 جُمادى الثّانية 1436هـ، =9/ 10/ 11 أَبْريل 2015، فـاس، الـمَغْرب، الـدّكتور عَبْـدُ الـرَّحمن بُـودرع، مِـنْ أُصُـولِ التَّفْسِـيرِ اللُّغَوِيَّـةِ إلـى البِنَـاءِ النّصّـي، 1/ 437.

(3) مِنْ أُصُولِ التَّفْسِيرِ اللُّغَوِيّةِ إلى البِنَاءِ النّصّي، 1/ 438.



عَلِيمٌ ﴿٣٣﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الشّعراء: 31-34].

والقصّةُ، في المَواضِعِ الثّلاثِ واحدة، وفي مَوْصُوفٍ واحدٍ، في موقفٍ واحد، فهو إمّا أنْ تكونَ (إنّ) مُؤكِّدةً في كلٍّ، أو جوابيّةً في كلٍّ، فالـمَوْضِعان اللّذان في الأعراف والشّعراء يُرَجِّحان التّوكيد على الجوابية، بلْ يَقْضِيانِ به قضاءً يجعلُ كلَّ نظرٍ فيها بعده غَيْرَ قويمٍ البتّة، بل يجعلُهُ نظرَ مَنْ لا عِلْمَ له بأصولِ التّفسيرِ والبَيَان، ونحنُ، هُنا، نتكلّمُ في العلم، لا في أقْدارِ العُلَمَاء[1]، لذا؛ فإنّ في هذا التّوجيهِ إخلالاً بالقاعدةِ الجزئيّةِ التي تتعلّقُ بإمْكانِ بيانِ الـمُفْرَدةِ بسياقٍ لها أوضحَ مِن الأوّل[2]، مِنْ حيثُ أنّ اسْتِعْمالها في التّوكيدِ، في الأعرافِ والشُّعَراء، أوضحُ مِنْه في طه، فوجبَ حملُ تفسيرِ موضعِ طه على مَوْضِعَيْ الأعرافِ والشّعراء، والله تعالى أعلمُ بالصّواب.

- وفي وُسْعِنا أنْ نزيدَ في وَصْفِ هذا التّخريجِ بأنّه مخالطٌ لإجحافٍ آخرَ بقاعدةٍ ثقافيةٍ مِنْ قواعدِ التّفسير؛ وهي تتعلّقُ بالتّفسيرِ الـمَوْضُوعي، وإنْ تكنْ مما يَتَفرّعُ على تفسيرِ القرآنِ بالقرآن، ذلك أنّنفيه هجوماً على تفسيرِ (إنّ) بأنّها للجواب، دون ضمٍّ لها إلى الآياتِ التي هي معه ضِمْنَ القِصّةِ الواحدةِ، والـمَوْضُوعِ الواحد[3].

---

(1) يَنْقُلُ السُّيُوطيُّ عَنْ أبي حَيَّانٍ، في الاقْتِراحِ، والإِتْقَانِ، قولَه: "ولَسْنا مُتَعَبَّدينَ باتِّباعِ جُمْهُورِ البَصْريّين، بَلْ نَتَّبِعُ الدّليلَ"، الإتْقان، 2/ 384، ويَقُولُ ابْنُ جِنّي، في الخصَائِص: "النَّحْوُ عِلْمٌ مُنْتَزَعٌ مِن اسْتِقْراءِ هذه اللُّغةِ فكلُّ مَنْ فَرَقَ له عَنْ عِلَّةٍ صحيحةٍ، وطريقٍ نَهْجَةٍ كان خَليلَ نَفْسِه، وأبا عَمْرو فِكْره"، الخصائص، 1/ 189.

(2) د. محمّد قَجْوي، تَفْسيرُ القُرْآنِ بالقُرْآن، ص: 442.

(3) بُحوثُ الـمُؤْتَمَرِ العالَـمِيّ الثالثِ للباحِثين في القُرْآنِ الكريم وعُلُومه، في مَوْضُوع: "بناءِ عِلْمِ أُصُولِ التَّفْسِير: الواقِعُ والآفاق"، أيّام: 19/ 20/ 21 جُمادى الثانية 1436هـ، =9/ 10/ 11 أَبْريل 2015، فاس، الـمَغْرب، د/ سَعيد بوعْصاب، أَصْلُ تَفْسِير القُرْآنِ بالقُرْآن، مَفْهُومُه وضَوابِطُه، 1/ 252، ومَفَاتيحُ التَّفْسِير، 1/ 364.

وبعدُ، فإنّ مَأْتى هذا الانحرافِ هو تحكيمُ التّخصُّصِ، والصّنعةِ في التفسير، وهو مِنْ جملة الاتّجاهاتِ الـمُنْحرفةِ في تفسيرِ القرآنِ الكريمِ الواجبِ دفْعُها، كما في عِبارةِ الدّكتور محمّد حسين الذّهبي، يقول: "وأخيراً وجدْنا كلَّ مَنْ بَرَعَ في فنٍّ مِنَ الفُنُونِ يغلبُ على تفسيره، بصورةٍ واضحةٍ فنُّه الذي بَرَع فيه؛ فالنّحويُّ أكبرُ همِّه الإعرابُ وسَرْدُ مسائلِ النّحوِ وفُرُوعِه"[1].

وحُكْمُ ما سبق أنّه مِنْ قبيلِ التّوجيهِ النّحويِّ للشّاذِّ، في لُغةِ القُرْآنِ الكريم، التّوجيهُ المدفوعُ، لا الـمَتْبوع، التّوجيهُ الواجبُ تجنُّبُه، والابتعادُ عنه لِيَصْفُوَ التفسيرُ مِنْ كلِّ ما فيه إهْدارٌ لأصولِ البيانِ فيه، وقواعِدِه الثّقافية.

وأَيْنَ سِيبَوَيْهُ مِنْ هَذا؟

اللّافِتُ لِلنَّظَرِ عِنْدنا أنَّ سِيبَوَيْهِ وهُوَ العارفُ بمكانِ الآيةِ، لَمْ نَرَ لَه شَيْئَيْن:

- أَوَّلُهُما: أَنَّهُ لَمْ يُشارِكْ في تَوْجِيهها، عَلى الرَّغْمِ مِنْ تَناقُلِ الاِشْتِغالِ بها عِنْدَ بعضِ مُتَقَدِّمِيه، ومِنْهم:

1- أَبُو عَمْرُو بْنُ العَلاء، وهُوَ مِنَ الإقْراءِ مَنْ هُو، وقَدْ نُقِلَ عَنْهُ تَغْليطُ الكاتبِ فيها، وأَنَّهُ غَلَطٌ سَتُصْلِحُهُ العربُ بِأَلْسِنَتِها[2].

2- أَبُو الخطّابِ الأَخْفَشُ الكَبير، وقولُه فيها الحمْلُ على اللَّهْجةِ الكِنانيّة[3]. ونُقولُ سِيبَوَيْهِ عَنْ أبي الخطّابِ كَثيرة، فَقَدْ بَلَغَتْ 47 مَرَّةً، بَلْ إنَّ بعضَ مَنْ بحثَ أبا الخطّابِ اعْتَمَدَ نُقولَ سِيبَوَيْه عَنْه بصورةٍ كَبيرةٍ[4]، ومَع ذلك لَمْ نَلْقَ

(1) د/ محمد حُسَين الذّهبي، الاتّجاهاتُ الـمُنْحَرفةُ في تَفْسِير القُرْآن، دَوافِعُها ودَفْعُها، مَكْتبةُ وَهْبة، مِصْر، الطّبْعة الثّالِثة، 1406هـ، 1986ص: 16 و ص: 39.

(2) يُنْظَر: أَبُو العَلاءِ الكَرْمانيّ، مَفاتِيحُ الأَغاني في القِراءاتِ والـمَعاني، ، ص: 274.

(3) يُنْظرُ: حُجّةُ القِراءات، لِابْنِ زِنْجلة، ص: 454.

(4) يُنْظرُ مَثلاً: حَياة محمد مُصْطفى عُقاب، أَبُو الخطّاب الأَخْفَش الكَبير، حَياتُه-آراؤُه، بحثُ ماجِسْتير، إشْرافُ الدُّكْتور محمُود محمد الطّنّاحي، جامِعةُ أمّ القُرى، كُلِّيّة اللُّغةِ العَرَبية، فَرْعُ اللُّغَوِيّات، 1402-1403هـ، ص: 39.



سِيبويه أَبْدى رَأْيـاً في الـمَسْأَلة، وغايةُ ما هُنالِكَ أَنَّهُ صَحَّحَ مجيءَ الحرفِ (إنَّ) بمعنى (أَجَل) في كلام العَرب؛ قَالَ: "وأمّا قولُ العربِ في الجوابِ (إنّه)، فَهُو بِـمَنْزِلة (أَجَلْ)، وإذا وَصَلْتَ قُلْت: إنَّ يا فَتى، وهِيَ التي بِـمَنْزِلةِ أَجَلْ.

قالَ الشَّاعِرُ:

بَكَـرَ العـواذلُ في الصَّـبُو	حِ يَلُمْنَنـي وأَلُومُهُنَّـهْ
ويَقُلْـنَ شَـيْبٌ قـد عَـلا	كَ، وقَـد كَبِـرْتَ فقلـتُ: إنَّـهْ"[1]

ونحنُ نُفَسِّرُ هذا بمعرفةِ الرَّجُلِ حُدودَ صَنْعَتِه، ومَشْمولاتِ فَنِّه، فَهُو، وإنْ صَحَّحَ صَلاحيَّةَ إنَّ للْجوابِ، إلّا أَنَّهُ لَمْ يَشَأ أنْ يُشاركَ بِما عَلِمَهُ عَنْها في تَوْجِيه الآيةِ الكريمة، وهذا مَعْناهُ أَنّه لا يَراها جَوابِيَّةً فيها، وإلّا فما أَحْراهُ بأنْ يحتجَّ بها حيثُ احْتَجَّ بالبَيْتَيْنِ السَّابِقَيْن، فَبَقِيَ أنّه يَراها إمّا التي لِلتَّوْكيد، وأنّ الـمُثَنّى مَعها في لُغةِ القَصْرِ عَلى كلام بني الحارثِ بْنِ كَعْب، وهُو، في هذا، آخِذٌ، رُبَّما، بِرَأْيِ شَيْخِهِ أَبي الخطّاب، وإمّا أَنّه يَراها مَسْأَلةً في التَّفْسِيرِ، ويَلْزَمُ لها التَّوَفُّرُ على ثقافةٍ أصوليّةٍ خاصَّةٍ، هُوَ مَعَها أحدُ رَجُلَيْن؛ غَيْرُ الـمُتَوَفِّرِ عَلَيْها، أوْ هُوَ التّارِكُها لِغَيْرِهِ رَعْياً لحدودِ التَّخَصُّص.

ونحنُ، في كلِّ ذلك، نَرى لِسِيبَوَيْه مَوْقفَ العالِمِ الحقِّ بما صَنَع، ولَقَد اجْتَهَدْنا، هُناك، في بيانِ أنّ كثيراً مِنْ أَئِمَّةِ اللُّغةِ ورجالِ التَّفْسيرِ قَدْ تَكَلَّموا في الآيةِ بما رَمى نَظَرَهُم بالانْحرافِ عَنْ أُصُولِ التَّفْسيرِ، وقَواعِدِه، فالخلاصةُ أنَّ لِسِيبَوَيْهِ مِنَ الـمَسْأَلةِ مَوْقِعَ النّاجي ممّا شابَ أَنْظارَ أُولئِك. بَلْ لَعَلَّنا نجزمُ بأنَّ إمامةَ سِيبَوَيْهِ إنّما أَتَتْ مِنْ هذا الـمَعْنى بالذّات؛ مَعْنى كَوْنِهِ رَجُلاً عارفاً تمامَ الـمَعْرفةِ بحدودِ عِلْمِه، ومَشْمولاتِ فَنِّه. وهُو، في هذا، يُقَدِّمُ نموذَجاً رائداً لِضرورةِ الإلمامِ بمنطِقِ كلِّ

(1) الكِتاب: 3/ 151

خطابٍ قَبْلَ إبْداءِ الرَّأْيِ في مَسائِله، وأَسْئِلَتِه، ويَصُوغُ مَنْهجاً عَمَلِيّاً رصيناً في وَصْلِ ما بَيْنَ النَّصِّ القُرْآنيِّ، والعُلومِ اللُّغَويّة، نحسَبُ أنّا نَظَلُّ دائماً في حاجةٍ إلى مَنْ يُعَلِّمُنا إيّاه بصورةٍ عَمَليّةٍ مَتِينة، وهَذا الأمْرُ هُوَ بَعْضُ ما يُظْهِرُ مَرْكَزِيَّةَ سِيبَوَيْهِ في الثّقافةِ العرَبيةِ الإسْلاميّة، ويُبْرِزُ إمْكانياتٍ جَديدةً لِقِراءةِ نَظريّةِ سِيبَوَيْه اللُّغَويَّةِ قِراءةً مُتَجَدِّدةً تَصْلُحُ أنْ تُبْنى مِنْها لُغَوِيَّاتٌ عَرَبيةٌ جَديدةٌ أَبْرزُ وُجوهِ جِدَّتها مَعْرِفَةُ: مَا الخِطابُ قَبْلَ تحليلِ الخِطابِ.

- ثانياً: المَسْأَلةُ الثّانية: في تَوْجِيه قِراءةِ ابْنِ عامِرٍ مِنْ قَوْلِه تَعالى: (وكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثيرٍ مِنَ المُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُركاؤُهُمْ) [الأنعام:137]

وَوُجُوهُ القراءةِ في الآيةِ هِي:

- (زَيَّنَ ... قَتْلَ أَوْلادِهِم شُرَكَاؤُهُم)؛ زَيَّنَ: مَبْنِيٌّ لِلْفاعِل، وقَتْلَ: مَفْعولٌ به، وأَوْلادِهِم، مُضافٌ إليه، وهُو مِنْ إضافةِ المَصْدرِ لِلْمَفْعول، وشُركاؤُهُم: فاعِلٌ مُؤَخَّر؛ والمَعْنى: وكَذلك زَيَّنَ الشُّركَاءُ لِلْمُشْركين أنْ يَقْتُلوا أَوْلادَهُم تَقَرُّباً بها لآلهتِهِم التي يُشْركون بها عِبادةَ الله، وهِي قِراءةُ الجُمْهور، ولا يُجيزُ الطَّبَرِيُّ غَيْرَها[1].

وهَذِهِ القراءةُ مِثْلُ قولِه تَعالى: ﴿يُسَبَّحُ لَهُۥ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ رِجَالٌ﴾[2]

ومِثْلُ قراءةِ إبْراهيمَ بْنِ أبي عَبْلَة: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤ ٱلنَّارُ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ﴾[3]؛ بِبناءِ قَتَلَ لِلْمَعْلُوم، ونَصْبِ الأَصْحابِ، ورَفْعِ النّار[4].

- زُيِّنَ ... قَتْلُ أَوْلادِهِم شُركاؤُهُم)، زُيِّن: مَبْنِيٌّ لِلْمَفْعول، قَتْلُ: مَرْفوعٌ عَلى نِيابةِ الفَاعِل، وهُوَ مُضافٌ لِلشُّركاء، وشُركاؤُهُم: فاعلٌ لِفِعلٍ مُقَدَّرٍ تقديرُه: فَعَلَهُ

(1) يُنْظر: د/ عَبْدُ اللَّطِيفِ الخَطِيب، مُعْجَمُ القِراءات، دارُ سَعْدِ الدّين للطِّباعَةِ والنّشْر والتَّوْزيع، دِمَشْق، الطَّبْعةُ الأُولى، 1422هـ، 2002، 2/ 552.

(2) سُورة النّور: 36

(3) سُورةُ البُرُوج: 4-5

(4) يُنْظَرُ: الجامِعُ لِأَحْكامِ القُرْآن، لِلْقُرْطُبي، 7/ 65



شُركاؤُهُم، وهُو تخريجُ سِيبَوَيْه، والقِراءةُ مَعْزُوَّةٌ لأبي عَبْدِ الرَّحْمنِ السُّلَمِيِّ، والحسَنِ، وعَلِيِّ بْنِ أبي طالِب[1]. هَذانِ وَجْهانِ لَمْ يُسْتَشْكَلْ فِيهِما شَيْء.

ويُلاحَظُ فِيهِما شَيْئان:

- إِسْنادُ القَتْلِ فِيهِما لِلْمُشْرِكين.
- اعْتِمادُ الحمْلِ عَلى المَعْنى، وإِصْلاحُ اللَّفْظِ بِمُوجِبِ ذَلِك.

• وقَرَأَ ابْنُ عَامِر: (وكَذَلِكَ زُيِّنَ لِكَثيرٍ مِنَ المُشْرِكينَ قَتْلُ أَوْلادَهُمْ شُركائِهِم)[2]؛ فالفِعْلُ (زُيِّنَ)، مَبْنِيٌّ لِما لَمْ يُسَمَّ فاعِلُه، والقَتْلُ نائبُ الفاعِل، وهُوَ مُضافٌ لِلشُّرَكاء، والأَوْلادُ نَصْبٌ عَلى أَنَّهُم مَفْعولونَ لِلْمَصْدَر، واسْتَشْكَلوا إِضافةَ القَتْلِ للشُّركاءِ مَع الفَصْلِ بمعمولِ المُضَاف.

• وَنُقِلَ عَنِ ابْنِ عامِرٍ أيضًا أَنَّهُ قَرَأَ: (زُيِّنَ ... قَتْلُ أَوْلادِهِم شُرَكائِهِم)؛ أيْ بإِضَافةِ القَتْلِ لِلأَولَادِ، وإِبْدالِ الشُّركاءِ مِنَ الأَوْلاد؛ عَلى أَنَّهُ وَصْفٌ لِلأَوْلاد؛ فَهُمْ شُرَكاءُ لآبائِهِمْ في المَالِ والمِيراث[3].

والفَصْلُ بَيْنَ المُتَضايِفَيْن أَبَاهُ البَصْرِيُّون، وأَنْكَروه، واسْتَقْبَحوهُ في الشِّعْر، ونَزَّهوا القُرْآنَ عَنْه، ورَأَوْا أَنَّه في الشِّعْرِ ضَرورة، وأَنّه يَرِدُ أَكْثَرَ ما يَرِدُ في المُضاف؛ واسْتَشْهَدوا لَه بِقَوْلِ عَمْرِو بْنِ قَمِيئة:

لَمّا رَأَتْ ساتِيدَما اسْتَعْبَرَتْ ... لِلّه دَرُّ-اليَوْمَ-مَنْ لامَها[4]

والذي في أَيْدينا، اليوْمَ، أَنَّ أَقْدَمَ مَنْ عُرِفَ عَنْه النَّكيرُ على ابْنِ عامِرٍ فِيما قَرَأَ هُوَ الفَرَّاء، قالَ في "مَعاني القُرْآن": **"لَمْ نَجِدْ مِثْلَهُ في العَرَبِيَّة"** [5]

(1) يُنْظَرُ: د/ عَبْدُ اللَّطِيفِ الخَطِيب، مُعْجَمُ القِراءات، 2/ 552.
(2) يُنْظَرُ مُفَصَّلاً في: د/ عَبْدُ اللَّطِيفِ الخَطيب، مُعْجَمُ القِراءات، ، 2/ 554
(3) يُنْظَرُ: مُشْكِلُ إعْرابِ القُرْآن، ص: 256، والكَشْفُ عَنْ مَعاني القِراءات، ص: 1/ 453.
(4) عَمْرو بْنُ قَمِيئة، دِيوانُهُ، عُنِيَ بِتَحْقِيقِه وشَرْحِه، والتَّعْليقِ عَلَيْه، حَسَنُ كامِل الصَّيْرَفي، جامِعةُ الدُّوَلِ العَرَبية، مَعْهَدُ المَخْطوطاتِ العَرَبِيّة، 1385ه، 1965، ص: 182.
(5) أَبُو زكَريا يَحْيَ بْنُ زِيادٍ الفَرّاء، مَعاني القُرْآن، تحقيقُ محمد عَلي النّجّار، وأَحْمدَ يُوسُفٍ نَجاتي، عالَمُ الكُتُب، 1403ه، 1983، 1/ 358.

ولكنَّ أَشَدَّ النَّكير إنّما رَأَيْناه عِنْدَ الطَّبَري، فَقَدْ قالَ في القِراءةِ، وفي ابْنِ عامِرٍ، بما هُو، عِنْدَ التَّأَمُّل، زَلَّةٌ مُنْكَرةٌ جعَلَتِ العُلماءَ يُنَبِّهونَ عَلَيها لِئَلَّا يَتَّخِذَ الناسُ مِنْها سُنَّةً للطَّعْنِ في القُرَّاء، وكيفَ؟ والطَّبريُّ في عُلماءِ الـمُسْلمينَ إمامٌ مُتَّبَع؟؛ قال الطَّبَريُّ، بَعْدَ ذِكْرِ القِراءةِ وعَزْوِها لِقُرَّاءِ الشَّام[1] "فَرَّقوا بَيْنَ الخافِضِ والـمَخْفوضِ بِما عُمِلَ فيه مِنَ الاِسْم، وذَلكَ في كلامِ العَرَبِ قَبِيحٌ، غَيْرُ فَصِيح"[2]

والـمَأْخوذُ عَلى الطَّبَرِيّ في هذا أُمُورٌ هِي:

- الطَّعْنُ في قِراءةٍ مَعْزُوَّةٌ لإمامٍ مِنْ أَئِمَّةِ الإقراءِ الـمُعْتَمَدين، وَوَصْفُها بالقُبْحِ وعَدَمِ الفَصاحة، بَلْ وبِالفَسَادِ في مَكانٍ آخَر؛ غَيْرِ الذي نَقَلْنا هُنا، وسَيَأْتي.
- القَوْلُ في القِراءةِ بما يكونُ مَفْهومُهُ أَنَّ ابْنَ عَامِر، وقُرَّاءَ الشَّام، إنّما كانَ يَقْرأُ مِنْ عِنْدِ نَفْسِه، لا بالنَّقْلِ الصَّحِيح.
- عَدَمُ التَّفَطُّنِ إلى أنَّ الطَّعْنَ في الـمَوْضِعِ مِنَ القِراءةِ كالطَّعْنِ في كُلِّ مَوْضِعٍ مِنَ القِراءة.
- تَسْليمُهُ في اسْتِشْكالِ القِراءةِ لِرَأْيِ مَنْ تَقَدَّمَهُ مِنْ غَيْرِ مُراجعَةٍ، ولا نَظَرٍ في الـمُعْتَمَدِ في تَنْزيلِ القِراءةِ ضِمْنَ البابِ النَّحْوِيِّ الذي جُعِلَتْ فِيه.

والغَريبُ أنَّ الطَّبَرِيَّ اعْتَمَدَ في رَدِّ القِراءةِ على التَّفْسِير؛ أيْ عَلى الـمَعْنى الـمُسْتَفادِ مِنَ الآيةِ، والـمَوْضوع، قالَ: "والقِراءةُ التي لَا أَسْتَجِيزُ غَيْرَها: (وكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثيرٍ مِنَ الـمُشْرِكينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكاؤُهُم)، (=قِراءَةُ الجُمْهور)، بِفَتْحِ الزّاي مِنْ "زَيَّنَ"، ونَصْبِ القَتْلِ بِوُقوعِ "زَيَّنَ" عَلَيْه، وخَفْضِ أولادِهِم بِإِضافةِ القَتْلِ إلَيْهِم،

---

(1) والقِراءةُ مَعْزُوَّةٌ أَيْضاً لِقُرّاءِ الشّام، يُنْظَر: أَبُو بَكْرٍ السِّجِسْتانيّ، كِتابُ الـمَصاحِف، حَقَّقَ نُصُوصَه، وضَبَطَها، وخَرَّجَ أَحادِيثَهُ وآثارَه، وعَلَّقَ عَلَيْه أَبُو أُسامةَ سَلِيم بْنُ عِيد الهِلاليّ، مُؤَسَّسَةُ غِراس لِلنَّشْر والتَّوْزيع، بَيْروت، الطَّبْعةُ الأُولى، 1427ه، 2006، ص: 274.

(2) جَامِعُ البَيَانِ عَنْ تأْويلِ القُرْآن، (=تَفْسيرُ الطَّبَري)، سِلْسِلةُ تُراثِ الإِسْلام، حَقَّقَهُ، وخَرَّجَ أَحادِيثَه محمُود محمد شاكِر، راجَعَ أَحادِيثَه أَحْمد محمد شاكر، مَكْتبةُ ابْنِ تَيْمِيَّة، القاهِرة، (د-ت)، 12/ 138،



ورَفْع الشُّرَكاءِ بِفِعْلِهِم؛ لأَنَّهُم هُمُ الذين زَيَّنوا لِلْمُشْرِكينَ قَتْلَ أولادِهِم، عَلى مَا ذَكَرْتُ مِن التَّأْويل، وإنّما قُلْتُ: لَا أَسْتَجِيزُ القِراءةَ بِغَيْرِها؛ لإِجْماعِ الحُجَّةِ مِنَ القَرَأَةِ عَلَيْه، وأَنَّ تأْويلَ أَهْلِ التَّأْويلِ بذلك وَرَد، فَفي ذَلِك أَوْضَحُ بَيَانٌ عَلى فَسَادِ ما خَالَفَها مِنَ القِراءَة" [1] ثُمَّ أَوْرَدَ تجويزَه لِوَجْهِ القِراءةِ بِضَمِّ الزّاي، ورَفْعِ القَتْلِ، وجَرِّ الأَوْلادِ، والشُّركاءِ على البَدَلِيَّة، قالَ: "ولَوْلا أنّ تَأْويلَ جَمِيعَ أَهْلِ التَّأْويلِ بذلك وَرَد، ثُمَّ قَرَأَ قارِئٌ: (وكَذَلِك زُيِّنَ لِكَثيرٍ مِنَ الـمُشْرِكينَ قَتْلُ أَوْلادِهِم شُرَكائِهِم)، بِضَمِّ الزّاي مِنْ "زَيَّنَ"، ورَفْعِ القَتْل، وخَفْضِ الأَوْلادِ والشُّرَكاء، عَلى أنّ الشُّركاءَ مَخْفُوضونَ بِالرَّدِّ (=البَدَلِيَّة)، عَلى الأَوْلادِ؛ بأَنَّ الأَوْلادَ شُركاءُ آبائِهِمْ في النَّسَبِ والـمِيراثِ كانَ جَائِزاً" [2]

وهُوَ مُسْتَغْرَبٌ جِدّاً؛ لأَنّه كالنَّقْضِ لِلأَوَّل، والْتِفافٌ على مَنْهَجِهِ مِن اعْتِمادِ التَّفْسِيرِ مَرْجِعاً في الإِعْراب؛ فالشُّركاءُ مِنْ أَوَّلِ الكلامِ في الـمَوضوعِ هُمْ غَيْرُ الأَوْلاد، فَكَيْفَ سَاغَ جَعْلُهُم نعْتاً لِلْأولادِ بالبَدَلِيَّة، أَلِمُجَرَّدِ تخريجِ وَجْهِ الجرِّ في الأَوْلادِ والشُّركاءِ معاً؟!!

ولا يُعْتَذَرُ له بِأَنَّهُ حَصَرَ الجوازَ في العَرَبِيَّةِ دُونَ القُرْآن؛ لأنَّ العَرَبِيَّةَ تَبَعٌ لِلْقُرْآن، وقَدْ ثَبَتَ أنّها قُرْآن، بالعَزْوِ للنّاقِلِ الـمُعْتَمَدِ، فحَقُّهُ أَنْ يَعْمَلَ بما يَلِي:

- أَنْ يَجْعَلَ القُرْآنِيَّةَ مَبْدأً لِلنَّظَرِ والتَّخْريج.
- أَنْ يَعْتَمِدَ التَّفْسِير، وهُو الذي عَمِلَ به في الوَجْهِ الأَوَّل، في النَّظَرِ والتَّخْرِيج.
- أَلّا يَعْتَمِدَ كلامَ البَصْرِيّينَ مَرْجِعاً في تَنْزيلِ القراءةِ ضِمْنَ الفَصْلِ بينَ الـمُتَضَايِفَيْن؛ لجوازِ الغَلَطِ في ذلِك، وسَيَأْتي مُفَصَّلاً. انقل كلام أبي حيان في عدم التعبد بكلام النحاة

(1) تَفْسِيرُ الطَّبَرِيّ، 12/ 138.
(2) تَفْسيرُ الطَّبَرِيّ، 12/ 138-139.

هَذا عَنِ الطَّبَريّ.

ومنَ الطّاعِنينَ على القِراءةِ الزَّمَخْشَريّ: قالَ: "وأمّا قِراءةُ ابْنِ عَامِرٍ (قَتْلُ أوْلادَهم شُرَكائِهِم)؛ بِرَفْعِ القَتْلِ، ونَصْبِ الأَوْلاد، وجَرِّ الشُّركاءِ عَلى إضافةِ القَتْلِ إلى الشُّركاءِ، والفَصْلِ بَيْنَهُما بِغَيْرِ الظَّرْف، فَشَيْءٌ لَوْ كانَ في مَكانِ الضَّروراتِ، وهُو الشِّعْرُ، لَكانَ سَمِجًا مَرْدوداً، كمَا سَمِجَ ورُدَّ:

زَجَّ القَلُوصَ أَبِي مَزَادَةَ ....

فكَيْفَ بِهِ في الكلامِ المَنْثور؟ فكيفَ بِهِ في القُرْآنِ المُعْجِز؟ بِحُسْنِ نَظْمِهِ، وجَزالَتِه، والذي حَمَلَهُ -يَقْصِدُ ابْنَ عامِرٍ- عَلى ذلك أنْ رَأى في بَعْضِ المَصاحِفِ "شُرَكائِهِمْ" مَكْتوبًا باليَاء، ولوْ قَرَأَ بجرِّ الأَوْلادِ والشُّركاء؛ لأنَّ الأَوْلادَ شُركاؤُهُمْ في أَمْوالِهِم، لَوَجَدَ في ذَلك مَنْدوحةً عَنْ هَذا الإرْتِكاب" [1]

وأَكْبَرُ الظَّنِّ عِنْدي أنَّ جَلالةَ قَدْرِ الطَّبَريِّ أَمْسَكتْ عَنْه أَلْسِنةَ العُلَماء، وبخاصَّةٍ مِنْهُم أَهْلَ الإِقْراء، فَلَمْ نَرَهُمْ زادوا عَلى التَّنْبيهِ على غَلَطِهِ في هَذا، فهَذا ابْنُ الجَزَرِيِّ يَنْبَري لِلْمَسْألةِ بِما فِيه أُمُورٌ هِي:

- الرَّدُّ عَلى الزَّمَخْشَرِيِّ باسْتِحالةِ أنْ يَقْرأَ ابْنُ عامِرٍ بقراءةٍ مِنْ عِنْدِ نَفْسِه، أوْ بِمُجَرَّدِ رُؤْيةِ المَكْتوب، إنّما القِراءةُ سُنَّةٌ مُتَّبَعَةٌ بالنَّقْلِ الصَّحِيح.
- تأكيدُ وُجودِها في المُصْحفِ العُثْمانيِّ بِرُؤْيَتِهِ إيّاها بِنَفْسِه، وهُو المُصْحفُ الإمامُ المُتَّبَع.
- بَيانُ قَدْرِ ابْنِ عامرٍ، وفضْلِهِ في عَصْرِهِ، ومِصْرِه، وبَيَانِ مَكانِهِ مِنَ العِلْمِ بالقُرْآنِ الكَريم.

---

(1) جارُ الله الزّمَخْشَريّ، الكشّاف، تحقيقُ وتعليقُ ودِراسةُ الشَّيْخ عادِل أَحْمد عَبْدِ المَوْجود، والشَّيْخ عَلي محمد مُعَوَّض، شاركَ في تحقيقِهِ الأُسْتاذُ الدُّكْتور فَتْحي عَبْدُ الرّحمن أَحْمدُ حِجازي، مَكْتبةُ العُبيكان، الرّياض، الطَّبْعة الأولى 1998، 2/ 401.



- تجويزُ الفَصْلِ بَيْنَ الـمُتَضايِفَيْن باتِّخاذِ القِراءةِ نَفْسِها دليلاً عَلَيْه وحُجَّةً؛ لأنّها قَبْلَ اللَّحْن، ولأنَّ الكلامَ فيها إنّما عُرِفَ بَعْدَ الثّلاثمائة، وبِمَجيءِ ذَلك الفَصْلِ في كثيرٍ مِنَ الكلامِ الحُجَّة؛ مِنْ شِعْرٍ ونَثْر، وحَديثٍ وقُرْآنٍ، غَيْرِ هَذِه الآية.
- عَدُّ مَذْهبِ الطَّبريِّ فيها سَقْطةً مِنْ سَقَطاتِه، ونَقْلُ تَنْبيهِ العُلَماءِ عَلَيْها بِقَوْلِ السَّخاويِّ عَنِ الشّاطِبِيِّ: "إِيَّاكَ وطَعْنَ ابْنِ جَريرٍ عَلى ابْنِ عَامِرٍ" (1).

ونَقولُ في هَذا الكَلامِ بأنَّ فِيه كُلَّ شَيْءٍ إلّا مُراجَعَةَ تَنْزيلِ القراءةِ ضِمْنَ مَسْألةِ الفَصْلِ بَيْنَ الـمُتَضايِفَيْنِ باعْتِمادِ التَّفْسيرِ مَرْجِعاً في ذَلك.

ولكنَّ مَنْ جَنَحَ إلى الحِدَّةِ في الرَّدِّ عَلى الزَّمَخْشَري فَأَبو حَيَّانٍ النَّحْويّ؛ قالَ: "وأَعْجَبُ لِعَجَمِيٍّ ضَعيفٍ في النَّحْوِ يَرُدُّ عَلى عَرَبِيٍّ صَريحٍ مَحْضَ قِراءةٍ مُتَواترة، وأَعْجَبُ لِسُوءِ ظَنِّ هَذا الرَّجُلِ بالقُرَّاءِ الأئِمَّةِ الذين تَخَيَّرَتْهُمْ هَذِهِ الأُمَّةُ لِنَقْلِ كتابِ الله، شَرْقاً وغَرْباً، وقَدْ اعْتَمَدَ الـمُسْلِمونَ عَلى نَقْلِهِم؛ لِضَبْطِهِمْ، ومَعْرِفَتِهِمْ، ودِيانَتِهِمْ" (2)

ولَقَدْ ظَلَّ العُلماءُ تَبَعاً لبعضِهِم في اسْتِشْكالِ القراءةِ، وفي الْتِماسِ ما يَشْهَدُ لها مِنْ كلامِ العَرَب، مِنْ يَوْمِ قِيلَ فِيها ما قِيلَ إلى يَوْمِ النّاسِ هذا فِيما نَحْسَب(3).

---

(1) يُنْظَرُ كُلُّ هَذا في: ابْنِ الجَزَرِيّ، النَّشْرُ في القِراءاتِ العَشْر، 2/ 263-265.

(2) أَبُو حَيَّانٍ الأَنْدَلُسيّ، البَحْرُ المُحيط (=تَفْسيرُ أَبي حَيَّان)، دِراسةُ وتحقيقُ وتَعْليقُ الشَّيْخ عادِل أَحْمد عَبْد المَوْجود، والشَّيْخُ عَليّ محمد مُعَوَّض، شاركَ في تَحْقيقِهِ الدُّكْتور زكَريا عَبْد المَجيدِ الـمُنُوفي، والدُّكْتور أَحْمد الجَمَل، دارُ الكُتُبِ العِلْمِيَّة، بَيْروت، لُبْنان، الطَّبْعةُ الأُولى، 1413ه، 1993، 7/ 261.

(3) يُنْظَرُ مَثَلاً: محمد الخضِر حُسَيْن الجزائِريّ، القِياسُ في اللُّغةِ العَرَبيّة، الـمُؤَسَّسةُ الوَطَنيَّةُ لِلْكِتاب، الجزائِر، 1986، ص: 37.

ثُمَّ إنّ لَنا في المَسْأَلَةِ كَلِمَتَيْن؛ واحِدةٌ في حَقِّ سِيبَوَيْه، وَواحِدةٌ نَعْرِضُ فيها رَأْيًا لنا في المَسْأَلَة؛ فأمّا التي في حَقِّ سِيبوَيْه فَلَها مَكَانُها في هذا البَحْث، وأمّا التي لَنا فِيها رَأْيٌ نُبْديهِ فَهَذِه:

1- اعْتِقادُنا أنّ هُناكَ خَللاً مَنْهَجِيًّا نَجَمَ عَنْه اسْتِشْكالُ القِراءةِ بِعَدَمِ التَّوْفيقِ في تَنْزِيلِها ضِمْنَ مَسَائلِ اللُّغةِ والنَّحْو، وهُوَ ما جَعَلَ تخريجَها مُمْتَنِعًا عَنِ الأَفْهام، وإنْ كانتْ أفهامَ جِلَّةٍ مِنْ عُلَماءِ الأُمّة، وذَلِكَ أنَّ أَوَّلَ ما ارْتُكِبَ في المَوْضوعِ ما يَلي:

- فَصْلُ الآيةِ عَنْ سِياقِها، ومَوْضُوعِها، وعَزْلُ التّركيبِ فِيها عَمَّا سِيقَ إِلَيْهِ مِنْ غَرَضٍ، وغَايَة.
- إِهْدارُ قَواعِدِ التَّفْسير، وأَهَمُّها، هُنا، قَاعِدَةُ تَفْسِيرِ القُرْآنِ بالقُرْآن، وحَمْلِ القِراءةِ على القِراءَة، وبحثِ الآيةِ ضِمْنَ المَوْضوعِ الذي سِيقَتْ لَه.
- عَدَمُ تحصيلِ مَعْنى الآيةِ مِنْ مَأْتاهُ المَدْلولُ عَلَيْه بقَواعِدِ التَّفْسِير، ثُمَّ النَّظَرُ في إِصْلاحِ اللَّفْظِ له على ما تُتِيحُهُ مُقَرَّراتُ اللُّغَةِ، وأَحْكامِ اللِّسَان.

هَذا، وإنَّ السُّؤالَ الذي نَطْرَحُهُ هُنا هُو: مَنْ ذا قَضَى بأَنَّ في قِراءةِ ابْنِ عامِرٍ فَصْلاً بَيْنَ المُضافِ والمُضافِ إِلَيْه؟ ثُمَّ مَنْ ذا أَضافَ القَتْلَ للشُّركاء، وكلُّ ما في سِياقِ الآياتِ يُضِيفُهُ لِلْمُشْركين؟ بَلْ كُلُّ قَتْلٍ لِلأَوْلادِ هُو في القُرْآنِ مِنْ فِعْلِ المُشْرِكين.

إنَّ قِصَّةَ الآيةِ هِيَ هَذِه: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٧﴾ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٩﴾ وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا



وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا۟ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴾[1]

هُناكَ تَبْدأُ قِصَّةُ هَؤُلاءِ الـمُشْرِكين مَعَ شُرَكائِهِم، وهُنَا تَنْتَهي، وكُلُّ لَفْظٍ فِيها هُوَ وِحْدَةٌ صُغْرى مِنْ مَوْضوعٍ أَكْبَر، ولَيْسَ يَتَأَتَّى لَهُ مَعْنى إِلّا عَبْرَ حُضُورها الإِجْماليّ. والـمُشْركونَ هُمْ بُؤْرةُ الكلامِ في الآيات، والخطابُ مُوَجَّهٌ إِلَيْهِم، والحكايةُ مَسُوقةٌ لَهُمْ، وعَنْهُم، والضَّميرُ في قَوْلِه: (وجَعَلُوا) لِلْمُشْرِكين، والقُرْآنُ يُحَدِّثُ عَنْ جَعْلِهِم ما أَشْركوا في خَلْقِ الله خَيْراً مِنَ الله تَعالى، فالقبيحُ ما قَبَّحَ شُركاؤُهُمْ، والزَّيْنُ ما زَيَّنَ شرُكاؤُهُم، ولَوْ أَنَّهُمْ يَقْتُلون أَوْلادَهُم، ويَتَقَرَّبون بِها إِلَيْهِم، وهَذا هُوَ التَّلْبِيسُ الذي أَعْماهُمْ عَنِ الحقِّ، فَجَعَلَهُم:

- يَقْتُلُونَ أَوْلادَهُمْ.
- يَقُولونَ في الأَنْعامِ والحَرْثِ ما يَقُولُون.
- يُحَرِّمُونَ ما يُحَرِّمُونَ، ويُحِلُّونَ ما يُحِلُّون[2].

وهُوَ ما حَكَمَ القُرْآنُ على مجموعِهِ بالخُسْرانِ الـمُبينِ في قَوْلِه: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا۟ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴾[3]

والعَجِيبُ حقّاً أَنَّ الآيَةَ الأَخِيرةَ هِيَ في نِسْبة القَتْلِ لِلْمُشْركين، كَنِسْبَةِ تحريمِهِم ما أَحَلَّ الله لَهُمْ، والأَعْجَبُ مِنْه أَنَّ كُلَّ قتلٍ للأَوْلادِ في القُرْآنِ هُوَ مِنْ عَمَلِ الـمُشْركِين.

(1) الأَنْعام: الآياتُ: 137-138-139-140- 141.
(2) يُنْظَرُ مُفَصَّلاً في: القُرْطُبيّ، الجامِعُ لأَحْكامِ القُرْآن، 7/ 63.
(3) الأَنْعام:141.

ولَنَا أنْ نَسْأَلَ: كيفَ يُمْكِنُ تفسيرُ نِسْبةِ التلبيسِ للشُّركاءِ مَعَ نِسْبةِ قتلِ الأَوْلادِ لِلْمُشْركين؟ إنَّ الشُّركاءَ لَبَّسُوا على الـمُشْركين دِينَهُم فَقَتَلَ الـمُشْركون أَوْلادَهُم.

وقَصْدُنا مِنْ كُلِّ ما تَقَدَّم أنَّ مِنْ ضَرورةِ تخريجِ هَـذِهِ القِراءةِ أنْ يُنْظر في سِياقِها العامّ، ومَوْضوعِها الأَكْبر، وهُو ما يَلْتَقي مَعَ مَقولاتِ التفسيرِ الـمَوْضوعيّ، والوَحْدة الـمَوْضوعِيَّة، والتَّناسُب، و غَيْرِها مِنَ الـمَفاهِيم التي تَتَأَسَّسُ على وَحْدَةِ النَّصِّ القُرْآنيِّ، وانْسِجامِ مُكَوِّناتِه، وهَـذِهِ الآيةُ، مِنْ سُورةِ الأَنْعام، تَنْتمي إلى وَحْدةٍ مَوْضوعِيَّةٍ تَبْدَأُ مِنَ الآيةِ 136 وتَنْتَهي عِنْد الآيةِ 140؛ وهِيَ بَيَانٌ لجهْلِ الـمُشْركينَ مِنَ العرب، ومَزاعِمِهِمْ فيما يَنْسِبونَ لِشُركائِهِمْ مِنْ آلِهَتِهِمْ الـمَزْعومة؛ أَوْرَدَ القُرْطُبِيُّ في جامِعِه أنَّ سَعيدَ بْنَ جُبَيْرٍ رَوى عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: "مَنْ أَرادَ أَنْ يَعْلَمَ جَهْلَ العَرَبِ فَلْيَقْرَأْ ما فَوْقَ الثَّلاثينَ والمائةِ مِنْ سُورةِ الأَنْعامِ إلى قَوْلِه: (قَدْ خَسِرَ الذينَ قَتَلُوا أَوْلادَهُمْ سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ وحَرَّموا ما رَزَقَهُمُ الله افْتِراءً عَلى الله قَدْ ضَلُّوا ومَا كَانُوا مُهْتَدِين)"[1]

ثُمَّ إنَّ القِراءةَ الأُولى؛ وهِي قِراءةُ البِناءِ لِلْمَعْلومِ في "زَيَّنَ" تَرْجِعُ بالتَّزْيينِ للشُّرَكاء، وهُو رافِعُهُم عَلى الفَاعِلِيَّةِ والتَّأْخِير، وبالقَتْلِ لِلْمُشْركين، وكذلكَ في قِراءةِ البِناءِ للمَجْهول في "زُيِّنَ"، والرَّفْع في القتْلِ والشُّرَكاء؛ فَقالوا: كَأَنَّه إذْ قِيل: (وكَذَلِكَ زُيِّنَ ..) فَقِيل: مَنْ ذا فَعَلَه؟ فَقِيلَ في الجوابِ: زَيَّنَهُ شُرَكاؤُهُم[2].

فَعَلامَ عَدَلوا في قِراءةِ ابْنِ عامرٍ عَنْ هذا التَّخْريجِ نَفْسِه؟ وعَلامَ انْصَرَفوا عَنْ مِثْلِ أنْ يَقُولوا: إنّه لَمَا قال: (وكَذَلِكَ زُيِّنَ ...)، فَقِيل: تَزْيينُ مَنْ؟ فَقِيل: تَزْيينُ شُرَكائِهِم؟، ولَقَدْ رَأَيْنا أَبا حَيَّانٍ يجْعَلُ الإشارةَ في أَوَّلِ الآيةِ عَائدةً إلى الـمَصْدرِ

(1) الجامِعُ لأَحْكام القُرْآن، 7/ 63.
(2) يُنْظَرُ مَثلاً: مُشْكِلُ إعْرابِ القُرْآن، لِلْقَيْسيّ، ص: 255.



المَفْهومِ مِنْ قولِه: (وجَعَلوا لله)، بِتَقْدير: ومِثْلُ ذَلكَ الجعلِ في التَّزْيينِ زُيِّنَ لِكَثيرٍ مِنَ المُشْرِكين[1].

- أَلَيْسوا قَدْ قَرَّروا أنّ مَعْنى المَصْدرِ هو مَعْنى فِعْلِه، وأنّ المَصْدرَ يدلُّ على ما يَدُلُّ عَلَيْه فِعْلُه؟
- أَلَيْس ما قَبْلَ قَوْلِهِ: "شُركائِهِم" هُو كلامٌ عَنْ تَزْيينِ الشُّركاءِ للمُشْرِكِين؟
- أَلَيْس هَذا هو مَعْنى المَوْضوعِ كُلِّهِ؟
- أَلَيْسُوا جَعَلوا مِنْ أُصُولِهِمْ أنَّ الإعْرابَ إنّما دَخَلَ الكلامَ في الأَصْلِ لِمَعْنى؟[2]
- أَلَيْسَ الواجِبَ في تَفْسيرِ القِراءةِ حَمْلُها على نَظِيرتَيْها؟

والذِي كانَ خليقاً بِنَظَرِ العُلماءِ هُو تَسْويغُ حذفِ المُضافِ مَعَ بَقاءِ أَثَرِه، وهو الجرُّ الذي في الشُّرَكاء؛ إذْ إنَّ في ذَلِك تقريراً لِلتَّفْسيرِ بِقَواعِدِه، وضَوابِطِهِ، واجْتِهاداً في إصْلاحِ اللَّفْظِ له، بِما تَقَرَّرَ أنَّ الألْفاظَ خَدَمٌ لِلْمعاني، وبِما تَقَرَّرَ أنَّ اللُّغةَ هِيَ بَعْضُ التَّفْسيرِ، ولَيْسَتْ هِيَ التَّفْسِيرَ.

2- أمّا سِيبَوَيْهُ، فَلَقَدْ عَرَضَ لِلْمَوْضوعِ بِأَنْ:

- بَحَثَهُ ضِمْنَ بابٍ سَمَّاهُ: "بَابُ ما يُحْذَفُ مِنْهُ الفِعْلُ لِكَثْرَتِهِ في كَلامِهِمْ حتى صَارَ بِمَنْزِلَةِ المَثَلِ" قالَ فيه: "وذَلِكَ قَوْلُك: هَذا، ولا زَعَماتِك؛ أيْ: ولا أَتَوَهَّمُ زَعَماتِك، ومِنْ ذَلِكَ قولُ الشّاعِر:

دِيارَ مَيَّةَ إذْ مَيٌّ مُساعِفَةٌ   ولا يَرى مِثْلَها عُجْمٌ ولا عَرَبُ

كَأَنَّهُ قالَ: اذْكُرْ دِيارَ مَيَّة، ولكِنَّهُ لا يَذْكُرُ "اذْكُرْ"؛ لِكَثْرةِ ذَلِك في كَلامِهِم، واسْتِعْمالِهِمْ إيَّاه، ولِمَا كانَ فِيهِ مِنْ ذِكْرِ الدِّيارِ قَبْلَ ذَلِك" [3]

(1) النَّهْرُ المَادّ، 1/ 752.
(2) يُنْظَرُ: الأُصُولُ، ص: 142.
(3) الكِتابُ، 1/ 280

ونُلاحِظُ أَنَّه سَوَّغَ مجيءَ هذا بِأَمْرَيْن هُما كَثْرةُ الاِسْتِعْمال، ومِنْ أُصُولِهِم أنَّ كَثْرةَ الاِسْتِعْمالِ تُجِيزُ الحذفَ[1]، والثّاني هُوَ تَقَدُّمُ الذِّكْر.

ويَجْمُلُ القولُ بأنَّ سِيبَوَيْهِ يجعلُ الـمَوْضوعَ مِنْ بابِ الحمْلِ على الـمَعْنى، بَلْ لَقَدْ جاءَ فِيه بِقَوْلِ الخليلِ: "كَأَنَّكَ تَحْمِلُهُ على ذَلكَ الـمَعْنى" [2]

وكَما مَثَّلَ سِيبَوَيْهُ لجوازِ هَذا في الـمَنْصوبِ مَثَّلَ لجوازِهِ في الـمَرْفوعِ فَجاءَ بِقَوْلِ الشَّاعِر:

لِيُبْكَ يَزيدٌ، ضَارعٌ لِخُصُومةٍ ومُخْتَبِطٌ مِمَّا تُطِيحُ الطَّوائِحُ[3]

ثُمَّ قَال: "لَـمّا قَالَ: "لِيُبْك يَزِيدٌ"، كانَ فِيه مَعْنى لِيَبْكِ يَزِيد، ...كَأَنَّهُ قَال: لِيَبْكِهِ ضَارِعٌ"[4]

ولَكِنَّ الـمُلاحظَ مِنْ كلامِ سِيبَوَيْهِ أَمْران:

- تَجْويزُهُ الحذفَ باعْتِمادِ الذِّكْرِ الـمُتَقَدِّم.
- عَدَمُ التَّعَرُّضِ لِقِراءةِ ابْنِ عامِر.

فأمّا الأَوَّلُ؛ فالـمَعْروفُ أَنَّ اسْتِنْباطَ القانونِ النَّحْويِّ إنّما يكونُ باعْتِمادِ الـمَفْهومِ مِنَ الكَلام، فَتَفْسيرُ النَّصِّ وفَهْمُهُ أساسٌ لِـمَعْرِفةِ القانونِ الذي صِيغَ على مُوجِبِه، فالإعْرابُ محمولٌ عَلى الـمَعْنى؛ وهُوَ فَرْعٌ عَنْه، يقولُ الدُّكْتورُ خالدُ إسْماعيلُ حَسَّانٌ: "إنَّ دِراسةَ دَوْرِ الـمَعْنى في النَّحْوِ العَرَبيِّ غايةٌ مُهِمَّةٌ في الدَّرْسِ اللُّغَويِّ العَرَبي، قديماً وحَديثاً، ولا يَخْفَى عَلى الدّارِسينَ أَثَرُ الـمَعْنى الدّلاليِّ في تَوْجيهِ القاعِدةِ النَّحْويَّة، فَيَصْرِفُها بحَسَبِ ما يُؤَثِّرُ عَلَيْها، والحملُ عَلَى الـمَعْنى في النَّحْوِ العَرَبيِّ يَكْشِفُ لَنا عَنِ القَواعِدِ الـمُنَظِّمَةِ للتَّراكيبِ النَّحْويّة، والوَسائِلِ الإِجْرائيّة

---

(1) الأُصُول: 150.

(2) الكِتاب، 1/ 283.

(3) الخِزانة، 1/ 147، ابْنُ يَعِيش، 1/ 80.

(4) الكِتابُ، 1/ 288.

الـمُتَّبَعَةِ في دِراسةِ النَّصِّ العَرَبيّ"[1]، وقالَ أَيْضاً: "لا شَكَّ أَنَّ حَمْلَ الكلامِ عَلى الـمَعْنى يَجْعَلُ الـمَعْنى حاكِماً عَلى الكلامِ، ومُؤَثِّراً فِيه، فَيُوَضِّحُ الـمَقاصِدَ، والغَاياتِ مِنَ الكَلام، وفي ذَلكَ إعادةُ نَظَرٍ في القواعِدِ النَّحْوِيَّةِ، والأُصولِ النَّحْوِيَّةِ العامَّةِ مِنْ خِلال كُتُبِ التَفْسيرِ، وإعْرابِ القُرْآنِ ومَعانيه، ....، إنّ النَّحْوَ العرَبيَّ نَحْوٌ دَلاليٌّ؛ إذْ إنَّ الدّلالةَ تَحْكُمُ القاعدةَ النَّحْوِيَّةَ، وتُوَجِّهُها، وتُؤَثِّرُ في تَقْعيدِها، وإنّي لأَرى أنَّ أَفْضَلَ طريقٍ يُمْكنُ أنْ نَسْلُكَهُ -نَحْنُ الدّارِسِينَ العربَ في العَصْرِ الحدِيث- أنْ نَمْتَحِنَ القاعِدةَ النَّحْوِيَّةَ مِنْ خِلالِ كُتُبِ تفسيرِ القُرْآنِ، وإعْرابِهِ، فالنَّصُّ القُرْآنيُّ حُجَّةٌ على القَاعِدَةِ النَّحْوِيَّةِ، لا العَكْسُ"[2]

وأمّا الثّاني، وهُوَ عَدَمُ تَعَرُّضِ سِيبَوَيْهِ لِقِراءةِ ابْنِ عامِرٍ؛ فَلِأَنَّها تخرجُ عِنْدَهُ مِنْ بابِ الفَصْلِ بَيْنَ الـمُتَضايِفَيْن، إلى بابِ حذفِ الـمُضافِ، وبَقاءِ أثرِه، ولأنّه رَأى انْبِناءَ تخريجِها عَلى ثقافةٍ زائدةٍ على الثّقافةِ اللُّغَوِيّة، وهُوَ اللُّغَويُّ، فَأَمْسَك. وقَدْ أَمْسَكَ الرَّجُلُ إمْساكَ العارفِ بحُدودِ تَخَصُّصِه، العارفِ بأنَّ فَنَّهُ واقعٌ قَبْلَ التَّفْسِير، وبِأَنَّهُ بَعْضُ التَّفْسير، ولَكِنَّهُ لَيْسَ التَّفْسير، وإنّها لإِحْدى الحَسَناتِ التي نَحْسَبُ أَنّه أُوتي بِها مَقامَ الإمامةِ في النَّحْوِ التي لَمْ يُنْكِرْها عَلَيْهِ أَحَد.

ولَقَدْ عَجِبْنا مِمَّنْ نَقَمَ على سِيبَوَيْهِ طَعْناً مَزْعوماً في هَذِه القِراءة، وفي غَيْرِها؛ فَهَذا الدُّكْتورُ أَحْمَدُ مَكِّي الأَنْصاريُّ يُسَوِّي بَيْنَ سِيبَوَيْهِ، وغَيْرِهِ مِن النُّحاةِ بالـمُسْتَشْرقين، في الطَّعْنِ في القِراءاتِ القُرْآنيّة، وهُوَ غُلُوٌّ ظاهرٌ قد تَصَدّى له الدُّكْتورُ إدْريسُ مَقْبول، بما فِيه كِفايَة، وكانَ مِمَّا أَخَذَ الأَنْصاريُّ على سِيبوَيْهِ طَعْنَهُ في قِراءةِ ابْنِ عامِرٍ هذِهِ بالذّات، والحقُّ، كمَا ذَكَرَ الدُّكْتور مَقْبولٌ أنَّ سِيبَوَيْهِ لَمْ يَتَعَرَّضْ لها بالـمَرَّة، قالَ الدُّكْتورُ إدْريسُ: "والباحثُ الفاضِلُ (يَقْصِدُ الأَنْصاريّ)، مِنَ الـمُصِرِّينَ عَلى

---

(1) خَالدُ إسْماعيلُ حَسّان، في الـمَعْنى النَّحْويّ والـمَعْنى الدَّلالي، مَكْتَبَةُ الآداب، القاهِرة، الطَّبْعةُ الأُولى، 1430هـ، 2009، ص: 97.

(2) في الـمَعْنى النَّحْويّ والـمَعْنى الدَّلاليّ، ص: 98-99.

الخَطأ، ومِنَ الذين لا يَجِدُونَ حَرَجاً في إعْرابِهِم عَنْ نِيَّةِ السُّوءِ؛ فَفي حِينٍ لا نَجِدُ عِنْدَ سِيبَوَيْهِ قِراءةَ ابْنِ عَامرٍ، بالفَصْلِ بَيْن الـمُتَضايِفَيْن، في سُورةِ الأنعام، نَجِدُهُ يَقُولُ: "رَأَيْتُ الفَرَّاءَ يقفُ مِنْها مَوْقفَ الـمُعارَضَةِ، فَعَزَّ عليّ ذلك!!!، ...، وَأَرَدْتُ أنْ أُحَمِّلَها لِلْبَصْريين، الذين دَأَبوا عَلى الطَّعْنِ في القِراءات، ...، وذَهَبْتُ إلى كِتابِ سِيبوَيْهِ، إمامِ النُّحاةِ، فَلَمْ أَعْثُرْ لهذهِ القِراءةِ عَلى أَثَرٍ، ...، وإمْعاناً في البحثِ تَتَبَّعْتُ سِيبوَيْه في القَضِيَّةِ نفسِها، ...، فاتَّجَهْتُ إلى مَوْطِنٍ آخَر، وظَنَنْتُ أنّه سَيَتَعَرَّضُ فيه لهذِه القِراءة، وهُوَ مَوْطِنُ الحديثِ عَنْ آيةِ إبْراهيم، (فَلَا تَحْسَبَنَّ اللهَ مُخْلِفَ وَعْدَهُ رُسُلِهِ)، فَرَأَيْتُهُ جَاءَ بالقِراءةِ الـمَشْهورة، ولَمْ يَتَعَرَّضْ لقراءةِ الفصْلِ بينَ الـمُتَضايِفَيْن، فَأَيْقَنْتُ، أوْ رَجَّحْتُ، أنَّ سِيبَوَيْهِ بالذّاتِ لَمْ يَتَعَرَّضْ للطَّعْنِ عَلى قِراءةِ ابْنِ عامِرٍ"[1]

فَماذا عَنْ حَذْفِ الـمُضافِ، وبَقاءِ الـمُضافِ إلَيْه؟

إنَّ لِلنُّحاةِ، في هَذا، كَلاماً عَجِيباً، وهُمْ، أَوَّلاً، عَلى جَوازِهِ، قَالَ ابْنُ مالِكٍ:

وَرُبَّما جَرُّوا الذِي أَبْقَوْا كَمَا   قَدْ كَانَ قَبْلَ حَذْفِ ما تَقَدَّما

لَكِنْ بِشَرْطِ أنْ يَكونَ مَا حُذِفْ   مُماثِلاً لِمَا عَلَيْهِ قَدْ عُطِفْ[2]

وقالَ في هَذا ابْنُ عَقِيلٍ: "قَدْ يُحْذَفُ الـمُضافُ، ويَبْقى الـمُضافُ إلَيْهِ مجروراً، كَما كَانَ قَبْلَ ذِكْرِ الـمُضافِ لَكِنْ بِشَرْطِ أنْ يكونَ الـمَحْذوفُ مُماثِلاً لِما عَلَيْهِ قَدْ عُطِفْ، كَقَوْلِ الشَّاعِرِ:

أَكُلَّ امْرِئٍ تَحْسَبِينَ امْرَأً   ونَارٍ تُوقَدُ باللَّيْلِ نَارا[3]

(1) د/ إدْريسُ مَقْبول، الأُسُسُ الإبِسْتمولوجِية والتَّداوُلِيّة لِلنَّظَرِ النَّحْويِّ عِنْدَ سِيبَوَيْه، عَالَمُ الكُتُبِ الحَديث، جدارا لِلكتابِ العَالَمِيّ، الأُرْدُنّ، الطَّبْعة الأُولى، 2007، ص: 74.
(2) أَلْفِيَّةُ ابْنِ مالكٍ، ص: 78.
(3) شَرْحُ ابْنِ عَقيلٍ عَلى الألْفِيَّة، الـمَكْتَبَةُ العَصْرِيّة، بَيْروت، لُبْنان، 1427هـ، 2006، 1/ 73.



والتَّقْديرُ (وكُلَّ نارٍ)، فَحُذِفَ" كُلَّ" وبَقِي المُضافُ إليه مجروراً كمَا كانَ عِنْدَ ذكْرِها، والشَّرْطُ مَوْجُودٌ، وهُو العَطْفُ على المُماثِلِ المَحْذوفِ وهُو "كُلَّ" في قَوْلِه (أَكُلَّ امْرِئٍ).

وقَدْ يُحْذَفُ المُضافُ، ويَبْقى المُضافُ إلَيْه عَلى جَرِّهِ، والمحذوفُ لَيْس مُماثِلاً لِلْمَلْفوظ، بَلْ مُقابِلٌ لَه، كَقَوْلِه تَعَالى: (تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيا واللهُ يُرِيدُ الآخِرةَ، في قِراءةِ مَنْ جَرَّ الآخِرةَ، والتَّقْدِيرُ: واللهُ يُرِيدُ بَاقِيَ الآخِرةِ، ومِنْهُمْ مَنْ يُقَدِّرُه: واللهُ يُرِيدُ عَرَضَ الآخِرة، فَيَكُونُ المحذوفُ، على هذا، مماثلاً لِلْمَلْفوظِ به"[1]

ونَرى أنَّ هذا التَّجْويزَ مُسْتَفادٌ مِنْ شَيْءٍ واحِدٍ جامِعٍ لِكُلِّ شاهِدٍ في هَذِهِ المَسْأَلة؛ هُوَ تَقَدُّمُ ما يُنْبِئُ بِالمحذُوف، عَلى أيِّ صُورةٍ مِنْ صُوَرِ تَقَدُّمِه، ولا قائلَ بانْحِصارِ وُجوهِ التَّجْويزِ فِيما ذُكِرَ هُنا؛ لاِسْتِحالةِ تَصَوُّرِ أنَّ المُتَكَلِّمَ يَقْصِدُ إلى مُشاكَلَةِ اللَّفْظِ، لا إلى بَيَانِ المَعْنى، وحَذْفُ المُضافِ مَعَ بقاءِ الجرِّ هُوَ مِنْ وُجُوهِ التَّوَسُّعِ في كَلامِهِم[2].

وحَمْلُ الإعْرابِ عَلى مُراعاةِ المَعْنى هُوَ ما يَدْفَعُنا إلى حُزْمَةٍ مِن الأَسْئِلةِ، مِنْها:

- لِمَ لا يكونُ لِقِراءةِ ابْنِ عامرٍ ما لهذِهِ الشَّواهِدِ التي اسْتُفيدَ مِنْها تجويزُ حَذْفِ المُضاف؟
- أَلَيْسَ هذا هُوَ المَنْهَجَ في مَعْرِفَةِ الأَحْكامِ التي بِمُوجِبِها بُنِيَ الكَلام؟

وعَلى هَذا قَدْ يَصِيرُ بِوُسْعِنا أنْ نَقولَ إنّه يجوزُ حذْفُ المُضافِ، وتركُ المُضافِ إليه، مَعَ بَقاءِ الجرِّ في حالاتٍ ثلاثٍ؛ هِي:

1- إِذا تَقَدَّمَ مُمَاثِلُه، ثُمَّ نَسُوقُ لَهُ بَيْتَ أبي دُوادٍ الإيادِيُّ الذي فِيه كُلُّ امْرِئٍ، وكُلُّ نارٍ.

---

(1) شَرْحُ ابْنِ عَقيلٍ عَلى ابْنِ مَالِكٍ، 1/ 74.
(2) يُنْظَرُ: د/ عادِلُ هَادي حَمَّادي العُبَيْدي، التَّوَسُّعُ في كِتابِ سِيبَوَيْه، ص: 80.

2- إذا تَقَدَّمَ مُقابِلُه، ثُمَّ نَسُوقُ قِراءةَ مَنْ جَرَّ الآخِرةَ في آيَةِ: (تُريدونَ عَرَضَ الدُّنْيا واللهُ يُريدُ الآخِرةِ).

3- إذا تَقَدَّمَ الدَّالُّ عَلَيْهِ الـمُشْتَقُّ مِنْ لَفْظِهِ، الـمُفْهِمُ مَعْناهُ، ثُمَّ نَسُوقُ لَهُ قِراءةَ ابْنِ عامِرٍ.

ومَعَ ذَلكَ يَبْقَى فِي الـمَسْألةِ شَيْئانِ:

- اشْتِراطُهُمْ العَطْفَ في حَذْفِ الـمُضافِ، فَلَنا، أَخْذاً مِنْ سَبيلِهِم في التَّقْعيد، أنْ نَقُول: إنَّ قِراءةَ ابْنِ عامِرٍ تَكْشِفُ عَنْ أنّه شَرْطٌ مُقَرَّرٌ قَبْلَ تخريجِها على النَّحْوِ الذي وَصَفْنا في هذا البَحْث، ونحنُ، لِأَجْلِه، نَدْعو إلى عَدَمِ اعْتِبارِهِ بِمُوجِبِ ذلك أَوَّلاً، وتَقْريراً لِـمَبْدَأ جَعْلِ القاعِدةِ تابعـًا لِلْمُسْتفادِ مِنَ النَّصِّ، لا العَكْس، ثانِيـًا، ونَسْتَدِلُّ لِصِحَّةِ هَذا بِمِثْلِ قوْلِ الفَخْرِ الرّازي: "إذا أَثْبَتْنا اللُّغَةَ بِشِعْرٍ مجهولٍ، فَجَوازُ إِثْباتِها بالقُرْآنِ أَوْلى، وكثيراً ما نَرى النَّحْوِيِّينَ مُتَحَيِّرينَ في تَقْريرِ الأَلْفاظِ الواردةِ في القُرْآن، فَإِذا اسْتَشْهَدوا في تَقْريرِهِ بِبَيْتٍ مجهولٍ فَرِحُوا بِذَلِك، وأنا شَديدُ التَّعَجُّبِ مِنْهُم، فإِنَّهُمْ إذا جَعَلُوا وُرودَ ذَلكَ البيتِ المجهولِ عَلى وَفْقِهِ دليلاً على صِحَّتِه، فَلَأَنْ يَجْعَلوا وُرودَ القُرْآنِ دليلاً على صِحَّتِهِ أَوْلى"[1] وبِمِثْلِ قَوْلِ مَنْ قال: "لا عَجَبَ أَعْجَبُ مِمَّنْ إنْ وَجَدَ لِامْرِئِ القَيْسِ، أَوْ لِزُهَيْرٍ، أَوْ لِجَريرٍ، أَوْ الحُطَيْئة، أَوْ الطِّرِمّاح، أو ....، أَوْ مِنْ سائرِ أَبْناءِ العَرَب، لفظـًا في شِعْرٍ، أَوْ نَثْرٍ جَعَلَهُ في اللُّغَةِ، وقَطَعَ بِهِ، ولَمْ يَعْتَرِضْ فِيه، ثُمَّ إذا وَجَدَ للهِ تَعالى خَالِقِ اللُّغاتِ، وأَهْلِها، كلامـًا لَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْه، ولا جَعَلَهُ حُجَّةً، وجَعَلَ يَصْرِفُهُ عَنْ وَجْهِه، ويُحَرِّفُهُ عَنْ مَوْضِعِه، ويَتَحَيَّلُ في إِحالَتِهِ عمّا أَوْقَعَهُ اللهُ عَلَيْه" [2]، وبِقَوْلِ مَنْ قَالَ:" إنَّ لِلْقُرْآنِ الكريم أُسْلوبـًا مِنَ النَّحْوِ يَنْبغي أنْ يُقاسَ عَلَيْه، ولا يُقاسُ هُوَ عَلى غَيْرِه، وذَلك إذا صَحَّ سَنَدُ القِراءة، وَوافَقَتْ رَسْمَ

(1) فَخْرُ الدِّين الرّازي، التَّفْسيرُ الكَبير، دارُ الفِكْر، 1401ه، 1981، 3/ 193.

(2) يُنْظَرُ: د/ عَبْدُ الجليلِ عَبْدُ الرَّحِيم، لُغَةُ القُرْآنِ الكَريم، ص: 246.



أَحَدِ المَصاحِفِ العُثْمانِيَّة، فَلْيُصَحِّح النُّحاةُ قَواعِدَهُم، ولْيَصوغُوها كمَا صَاغَها القُرْآنُ الكَرِيم، فَإِنَّهُ النَّصُّ الوحيدُ المَقْطوعُ بِصِحَّتِه، المُتَوَاتِرُ في رِوايتِه"[1]

- حَذْفُ التنوينِ مِنَ القَتْلِ مَعَ إِعْمالِهِ فِي الأَوْلاد، فَهُوَ عِنْدنا مِنْ بابِ حذْفِ المُضافِ، والتَّقْدِير: قَتْلُهُمْ (أَوْلادَهُم)، ويَشْهَدُ لَهُ قَوْلُ الشّاعِر:

وَمِنْ قَبْلِ نَادى كُلُّ مَوْلى قَرابَةٍ فما عَطَفَتْ مَوْلى عَلَيْهِ العَواطِفُ[2]

أيْ: ومِنْ قَبْلِ ذَلك، واسْمُ الإشارةِ عائِدٌ عَلى مَا تَقَدَّمَ مِنْ قَوْل.

ومِثْلُهُ قِراءةُ ابْنِ مُحَيْصِن: (فَلا خَوْفُ عَلَيْهِم)[3]، بِغَيْرِ تنوينٍ في خَوْف؛ أيْ: فَلا خَوْفُ شَيْءٍ عَلَيْهم. ومِنْ أُصُولِهِم:

- لا حَذْفَ إلّا بِدَليل.
- قَدْ يُحْذَفُ الشَّيْءُ لَفْظًا، ويَثْبُتُ تقديراً.

وتَقْديرُهُم لمحذوفٍ ظاهرٍ في قِراءةِ ابْنِ مُحَيْصِنٍ يَجْعَلُ تَقْديرَ الضَّميرِ أَوْلى بالجواز؛ لأنَّ المُضْمَرَ فَرْعٌ عَنِ الظّاهر، ومِنْ قَواعِدِهِم:

- الأَصْلُ هُوَ المُظْهَرُ، والمُضْمَرُ فَرْعُه.
- الفَرْعُ دائمًا أَضْعَفُ مِنَ الأَصْلِ.

---

(1) عَبْدُ الوَهّابِ حَمُّودة، القِراءاتُ واللَّهَجات، مَكْتَبَة النَّهْضةِ المِصْرية، مِصْر، 1948، ص: 149، ود/ عَبْدُ الجَليلِ عَبْدُ الرَّحِيم، لُغَةُ القُرْآنِ الكَريم، ص: 253.
(2) شَرْحُ ابْنِ عَقِيلٍ عَلى الأَلْفِيَّة، 1/ 76.
(3) شَرْحُ ابْنِ عَقِيلٍ عَلى الأَلْفِيَّة، 1/ 76.

خَاتِمَةٌ ونَتَائِجُ:

وبَعْدُ، فَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ لنا مِنْ غايةٍ، فِي هَذِهِ الوَرَقَةِ العِلْمِيَّة، غَيْرَ أَنْ نَجْتَهِدَ فِي إِبْرازِ فَضْلٍ مِمّا هُوَ مِنْ حَسَناتِ سِيبَوَيْه، نَعْتَقِدُ أَنَّ النَّاسَ لَمْ يُولُوهُ قَدْراً كافياً مِنَ العِنايَة، أَلا وهُوَ بحثُ لغةِ القُرْآنِ الكريم ضِمْنَ حُدودِ صَنْعَتِهِ النَّحْوِيّة، والقَوْلُ فيها بالقَدْرِ المَأْذونِ فِيه لِتَخَصُّصِه وفَنِّه، وكَذا تَرْكُ ما يَقْتَضي ثَقافةً زائدةً على النَّحْوِ لِغَيْرِهِ يَنْظُرُ فِيه بِما مَعَهُ مِنْ قَواعِدَ، وضَوابطَ مُشَكِّلَةٍ لِمَنْطِقٍ آخَر، ولِمَنْهَجٍ آخَر، إنّ هذا الذي نَجْعَلُهُ هُنا حِلْيَةً لِفِكْرِ سِيبَوَيْه لَهُوَ -عِنْدَ التَّأَمُّلِ- قِيمةٌ مُضافةٌ واقِعةٌ في أُسُسِ مَنْهجِ البحثِ في لُغةِ القُرْآنِ الكريم، مِنْ شَأْنها ضَبْطُ العَلاقةِ بَيْنَ التَّفْسيرِ، وبَيْنَ عُلُومِ اللُّغة، عَلى النَّحْوِ الذي يَنْتُجُ مَعَه في العُقولِ أَنَّ النَّحْوَ لا يُرادِفُ التَّفْسِير.

فَلابُدَّ مِنْ أَنْ يَعْرِفَ النّاسُ أَنَّ سِيبَوَيْهِ مِثالٌ رَائِدٌ لِلنَّحْوِيِّ المُشارِكِ فِي التَّفْسِيرِ بِتَسْخيرِ الآلَةِ اللُّغَوِيَّةِ في تخريجِ تَراكيبِ القُرْآنِ، وتَوْجِيهِ أَسَالِيبِه.

وعَلى هَذا، فالحاصِلُ مِمَّا تَقَدَّمَ ما يَلي:

- لَيْسَ العِلْمُ باللُّغةِ- عَلى أَهَمِّيَّتِهِ البَالِغَة- بِمُرادِفٍ لِلتَّفْسِير، فَيُرْجَى مِنْهُ مُنْفَرِداً ما يُرْجَى مِنْ مَجْموعِ العُلومِ والفُنونِ المُدَّخَرةِ لِفَهْمِ القُرْآنِ الكَريم.
- يُمَثِّلُ سِيبَوَيْهُ، وهُوَ إمامُ النُّحاةِ، خَيْرَ مَنْ أَمْسَكَ تَخَصُّصَه، وهُوَ المُسَلَّمُ لَهُ فِيه، عَنِ التَّجاسُرِ عَلى القُرْآنِ الكريم، وخَيْرَ مَنْ عَصَمَ نَظَرَهُ مِمَّا سَمَّاهُ بَعْضُ الباحِثِين "الاتِّجاهاتُ المُنْحَرِفةُ في التَّفْسِير".
- تُبْرِزُ مُناقَشَةُ أَكْثَرِ المَسائِلِ إِشْكالاً، في لُغَةِ القُرْآنِ الكريم، نَمُوذَجِيَّةً مُنْقَطِعَةَ النَّظِيرِ في عِلْمِ سِيبَوَيْه، هِيَ أساسٌ مَنْهَجِيٌّ ضَرُورِيٌّ في ثَقافَةِ النَّحْوِيِّ حِينَ يُشارِكُ في التَّفْسِير.



- تُظْهِرُ مَسْأَلَةُ (إنَّ)، في آيَةِ طَه، كَيْفَ أنَّ كثيراً مِنَ النُّحَاة، بَلْ مِنْ أَئِمَّتِهِم، يُقَدِّمونَ مُقْتَضَى اللُّغَةِ عَلَى مُقْتَضى التَّفْسِير، في الوَقْتِ الذي تُبْرِزُ فِيه هَذِهِ المَسْأَلَةُ ذاتُها نَزاهةَ مَنْهَجِ سِيبَوَيْهِ مِنَ الانْقِلابِ المَنْهَجِيِّ الذِي خَالَطَ نَظَرَهُمْ، وبَحْثَهُمْ.
- تَكْشِفُ مَسْأَلَةُ جَرِّ الشُّركاءِ، في قِراءةِ ابْنِ عامِرٍ، أنَّ كثيراً مِنَ النُّحَاة، بَلْ مِنْ أَئِمَّتِهِم، يَعْتَمِدونَ مَنْهَجاً مَنْقوصاً مِنْ ثَقافةِ التَّفْسِيرِ في التَّخْريجِ اللُّغَوِيِّ، في حِينِ تَكْشِفُ المَسْأَلَةُ نَفْسُها عَنْ أَنَّ سِيبَوَيْهِ لا يَقْتَرِحُ تَخْريجَهُ اللُّغَوِيَّ إلا عِنْدَ الإِدْراكِ التَّامِّ بكِفَايَتِهِ، وإمْكانِ اسْتِقْلالِهِ عَنِ الثَّقافَةِ التَّفْسِيريَّةِ كَنَحْوِ ما رَأَيْناهُ صَنَعَ مَعَ قِراءةِ رَفْعِ الشُّركاء، ولَقَدْ أَدَّى هَذا إِلَى إِمْكانِ أَنْ نُفَرِّعَ خُلاصةً عَنْ هَذِهِ النَّتِيجةِ، وهِيَ:

– لَيْسَ في قِراءةِ ابْنِ عامِرٍ فَصْلٌ بَيْنَ المُتَضايِفَيْن.

– البابُ في قِراءةِ ابْنِ عامِرٍ هُوَ حَذْفُ المُضافِ، وبَقاءُ المُضافِ إِلَيْهِ مَعَ الجَرّ.

– قِراءةُ ابْنِ عامِرٍ شَاهِدٌ يَتَضَمَّنُ وَجْهاً إِضافِيّاً مِنْ وُجُوهِ جَوازِ حَذْفِ المُضافِ المُتَقَدِّمِ الدّالِّ عَلَيْهِ بِلَفْظِهِ، المُفْهِمِ مَعْناهُ.

واللهُ تَعَالى أَعْلى وَأَعْلَمُ

التزام سيبويه الديني، "مظاهره وأثره"

د. عبدالله بن محمد بن جارالله النغيمشي

الأستاذ المشارك بجامعة القصيم -قسم اللغة العربية وآدابها

المملكة العربية السعودية

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أفضل خلقه وخاتم رسله نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد.

فقد أجمع العلماء والباحثون قديمًا وحديثًا على الإشادة بسيبويه[1] وبكتابه، وأقوالهم في ذلك كثيرة جدًا، ولو ذكرت كل ما وقفت عليه في هذا الشأن لكان من ذلك كتاب ضخم، وقد تأملت ذلك وتأملت أثر الكتاب فيمن جاء بعده إلى يومنا هذا فرأيت شيئًا عظيمًا، فتساءلت لم كان هذا القبول وهذا البقاء لكتاب سيبويه على الرغم من أنه ألف بعده مئات الكتب النحوية؟ فترجح عندي شيء واحد هو إخلاص ذلك الرجل في عمله الذي قام به، وهذا الإخلاص نابع – فيما نحسب – من تدينه، فهو لم يؤلف كتابه رياءً ولا سمعة، ولا ليكسب به مالاً ولا جاهًا، وإنما ألفه لتحقيق واجب ديني، هو خدمة كتاب الله عز وجل، والحفاظ عليه من اللحن، وهو بهذه الخدمة يتقرب إلى الله وإليه يزدلف، ولهذه النية الطيبة "سيبقى كتاب سيبويه عملاً صالحًا، وذكرًا باقيًا، ومنارًا هاديًا، ما بقي نحو يدرس على وجه

---

(1) هو عمرو بن عثمان بن قنبر، ويكنى أبا بشر، وقيل أبا الحسن، وقيل أبا عثمان ولكن أثبتها، وأشهرها أبو بشر، الملقب بسيبويه، توفي على الأرجح سنة 180هـ، وقد ترجمت له جميع كتب التراجم بلا استثناء، ينظر منها: أخبار النحويين البصريين 63-64، و إنباه الرواة 2/ 346-360، و بغية الوعاة 2/ 229-230.

الأرض"[1]، وقد عزمت – بإذن الله – من خلال هذا البحث الموجز على أن أتناول بشيء من التفصيل مظاهر تدين أعظم رجل نحوي عرفه التاريخ، ومعرفة أثر هذا التدين عليه في دراستة النحوية، وقد عنونت هذا البحث ب التزام سيبويه الديني "مظاهره وأثره"، وضمنته بعد المقدمة، تمهيد وفصلين، وخاتمة، وقد اختص التمهيد بالحديث الموجز عن نشأة سيبويه الدينية، وعن ثناء علماء الشريعة عمومًا والمفسرين خصوصًا عليه، وعن مذهبه العقدي، على حين تناول الفصل الأول المعنون ب "مظاهر تدين سيبويه من خلال كتابه" أربعة مباحث، الأول: أمانته العلمية المجمع عليها، الثاني: كثرة استشهاده بالآيات القرآنية مما يدل على حفظه لكتاب الله عزوجل واستنباط القواعد النحوية من خلاله، الثالث: عدم استشهاده بشيء من الحديث النبوي منسوبًا إلى النبي صلى الله عليه وسلم، أما الفصل الثاني المعنون: ب "أثر تدين سيبويه في دراسته النحوية، فقد تحدثت فيه عن ستة مباحث: الأول: مسألة لفظ الجلالة "الله" أعرف المعارف، الثاني: حديثه عن "كان" عند دخولها على أسماء الله وصفاته وأنها مرادفة للفعل "لم يزل"، الثالث: الألفاظ الخاصة بتعظيم الله تعالى عند سيبويه، الرابع: تنزيهه الله عن ما لايليق به وتخريجه بعض الآيات بما يليق بالله وصفاته، الخامس: علاقة الإيمان بالنفس عند سيبويه، السادس: الأفعال في نحو: "اهدنا""اعف عنا" اغفر لنا" وفي نحو: "لا تؤاخذنا" و"لا تحمل علينا إصرًا" لا يجوز تسميتها أفعال أمر أو أفعال نهي، وإنما هي: أفعال دعاء، ثم ختمت البحث بخاتمة موجزة ذكرت فيها أهم النتائج التي توصلت إليها، وأتبعتها بذكر قائمة بأسماء المصادر والمراجع التي أفدت منها.

---

(1) من العبارت الجميلة للشيخ محمد عبدالخالق عضيمة في كتاب سيبويه. ينظر: فهارس كتاب سيبويه لعضيمة 26.



التمهيد

1- نشأة سيبويه نشأة دينية من خلال دراسة العلوم الدينية:

ولد سيبويه[1] رحمه الله في البيضاء وهي قرية من قرى مدينة شيراز في فارس، وانتقل منها في شبابه إلى البصرة ونشأ فيها وتلقى علومه، وقد بدأ تعلمه بطلب الحديث والفقه والعلوم الدينية[2]، قال البغدادي: "كان سيبويه في أول أيامه يصحب الفقهاء، وأهل الحديث[3]"، وهذا يشير إلى أن التزام سيبويه الديني بدأ في فترة مبكرة من حياته، ثم التحق بحلقة إمام الحديث وشيخ البصرة وعالمها ومفتيها حماد بن سلمة بن دينار البصري (167هـ) ولازمه حتى جرت بينهما مواقف سأذكرها بعد قليل، ويرى الزبيدي في طبقات النحويين واللغويين[4] أن سيبويه إنما قدم من بلاد فارس لغرض كتابة الحديث الشريف، ومن مواقف سيبويه ومروياته في حلق الحديث والعلم الشرعي ماذكره محمد بن سلام الجمحي (232ه) قال:"كان سيبويه جالسًا في حلقة بالبصرة، فتذاكرنا شيئًا من حديث قتادة، فذكر حديثًا غريبًا وقال: لم يروِ هذا إلا سعيد بن أبي العَروبة...[5]"، وروى البغدادي بسنده عن ابْن عَائِشَة[6] قال:" كنا نجلس مع سيبويه في المسجد، وكان شابا جميلا

(1) لم تذكر المصادر تاريخ ولادته، ولكنها ذكرت أنه أخذ عن عيسى ابن عمر، وعيسى ابن عمر توفي سنة 149ه، ولا يمكن لسيبويه أن يأخذ عن عيسى إلا وهو يعقل، ولا يعقل حتى يكون بالغًا، ولهذا السبب رجح ياقوت (626ه) أن عمر سيبويه عند وفاته كان فوق الأربعين، وليس ثلاثًا وثلاثين كما يذكره بعض المترجمين له (ينظر: طبقات النحويين واللغويين 72، وأخبار النحويين البصريين 64، ونزهة الألباء 58، ومعجم الأدباء 5/ 2123).

(2) ينظر: طبقات النحويين واللغويين 66، وتاريخ بغداد 14/ 99.

(3) تاريخ بغداد 14/ 99.

(4) ص 66.

(5) ينظر: طبقات النحويين واللغويين 67، وتاريخ بغداد 14/ 99، وإنباه الرواة 2/ 351.

(6) عبيد الله بن محمد بن حفص ابن معمر التيمي، أبو عبد الرحمن، المعروف بابن عائشة، عالم بالحديث والسير، من أهل البصرة، من رواة حماد بن سلمة، زار بغداد، وحدّث بها سنة 219ه، وعرف بابن عائشة لأنه من ولد عائشة بنت طلحة بن عبيد الله التيمي. ينظر: الأعلام للزركلي 4/ 196.

نظيفا، قد تعلق من كل علم بسبب، وضرب في كل أدب بسهم، مع حداثة سنة"[1]، وحدث أبو عثمان المازني عن سيبويه عن الخليل بن أحمد عن ذر عن الحارث عن علي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أهل المعروف في الدنيا أهل المعروف في الآخرة، وأهل المنكر في الدنيا أهل المنكر في الآخرة[2]"، وذكر عفان بن مسلم[3] أن سيبويه ناقش إمام الحديث شعبة بن الحجاج[4] ورادّه في حديث، فقال شعبة: لأن أخرّ من السماء أحبّ إلي من أن أدلّس[5]، وتذكر الروايات أن سيبويه قد أكثر من الأخذ عن حماد بن سلمة، وكتب عنه كثيرًا من الأحاديث، وتذكر أنه أثناء كتابته وقع في بعض الأخطاء النحوية واللغوية، وبسببها طلب النحو والتحق بالخليل بن أحمد وأبي الخطاب الأخفش الأكبر وغيرهما من شيوخ اللغة والنحو، وقد ورد في كتب التراجم وغيرها ثلاث روايات تشير إلى ثلاثة مواقف لحن فيها سيبويه ونقده فيها حماد بن سلمة، الأول: "كان سيبويه مستمليا لحماد بن سلمة، وكان حماد فصيحا، فاستملاه يوما قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما أحدٌ من أصحابي إلا ولو شئت لأخذت عليه ليس أبا الدرداء، فقال سيبويه: ليس أبو الدرداء. فصاح به حماد: لحنت يا سيبويه[6]"، الثاني: قال الزجاجي: "حدثنا أبو جعفر قال: حدثنا ابن عائشة عبيد الله قال: حدثنا حماد بن سلمة قال: جاء سيبويه مع قوم يكتبون شيئا من الحديث، فكان فيما أمليت ذكر الصفا عن رسول الله صلى

---

(1) تاريخ بغداد 14/ 99، وينظر: المنتظم في تاريخ الأمم والملوك 9/ 54.

(2) ينظر: تاريخ بغداد 13/ 227، وتذكرة الحفاظ للذهبي 3/ 188.

(3) هو عفان بن مسلم بن عبد الله الصفار، من حفاظ الحديث الثقات، كان من أهل البصرة، ولما أظهر المأمون القول بخلق القرآن خرج منها وسكن بغداد، توفي سنة 220ه. ينظر: الأعلام 4/ 238.

(4)هو شعبة بن الحجاج الأزدي، الواسطي ثم البصري، من أئمة رجال الحديث، حفظا ودراية وتثبتا، ولد ونشأ بواسط، وسكن البصرة إلى أن توفي بها. ينظر: الأعلام 3/ 164.

(5) ينظر: إنباه الرواة 2/ 349-350.

(6) مجالس العلماء للزجاجي 118، وأخبار النحويين البصريين 35، والجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي2/ 67، وأدب الاملاء والاستملاء للسمعاني 105، ومغني اللبيب 387، والبلغة في تراجم أئمة النحو واللغة 49.



الله عليه وسلم فقلت: "صعد رسول الله صلى الله عليه وسلم الصفا" وهو الذي كان يستملي فقال: صعد النبي صلى الله عليه وسلم الصفاء، فقلت: يا فارسي لا تقل الصفاء، لأن الصفا مقصور[1]"، الثالث: "سأل سيبويه يومًا حماد بن سلمة فقال له: له: أَحدَّثك هشام بن عروة عن أبيه في رجل رَعُفَ في الصلاة -وضم العين- فقال له: أخطأت، وإنما هو رَعَفَ -بفتح العين-[2]"، ويظهر أن مجموع تلك المواقف -وقد يكون هناك مواقف أخرى لم ترو- جعل سيبويه يقرر التحول العلمي من طلب الحديث إلى طلب العربية ومن حلقة حماد بن سلمة إلى حلق الخليل بن أحمد، وعيسى بن عمر، والأخفش الكبير، ويونس بن حبيب، وأبي زيد الأنصاري، وغيرهم من علماء اللغة في زمنه وفي بلده، وتذكر الروايات أنه لما فرغ من مجلسه الذي انتقده فيه حماد كسر القلم، وقال: لا أكتب شيئا حتى أحكم العربية[3]،لا جرم جرم والله، لأطلبن علما لا تلحنني معه[1]، ومقولتاه تلك تدلان على أن سيبويه كان يريد التفرغ لتعلم العربية ومن ثم العودة إلى دراسة العلوم الشرعية، وقد تكون وفاته في عمر مبكر حالت دون ذلك، وتشير الروايات إلى أن سيبويه كان مستقيمًا في حياته، ذاكرًا مسبحًا لله، آمرًا بالمعروف ناهيًا عن المنكر[4]، وأنه عند وفاته كان يتمثل بهذا البيت:

يسر الفتى ما كان قَدم من تقى ... إذا عرف الداءَ الذي هو قاتُله[5]

2- ثناء علماء الشريعة عمومًا والمفسرين خصوصًا عليه:

سيبويه إمام النحويين بلا منازع، وعظيمهم بلا مدافع، أثنى عليه العلماء

---

(1) مجالس العلماء للزجاجي 118.

(2) ينظر: الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي 2/ 27، وشَرحُ مشكِل الوَسِيطِ لابن الصلاح 2/ 158-159، ومشكلات موطأ مالك بن أنس لابن السيد البطليوسي 62-63.

(3) ينظر: مجالس العلماء للزجاجي 118.

(4) ينظر: الاستذكار لابن عبدالبر 8/ 560.

(5) ينظر: معجم الأدباء 5/ 2127.

المنصفون، وعرف قدره الأئمة المخلصون-وكما أسلفت في المقدمة- لو كتبت كل ما قيل في ثنائه وتزكيته وما قيل في كتابه لخرج البحث عن مساره، ولكني في هذا المبحث سأكتفي ببعض ما قاله علماء الشريعة بالتحديد عنه وعن كتابه، لأدل بتلك الأقوال على رضاهم عن دينه وخلقه وأمانته، فما كانوا ليثنوا على من كان خلاف ذلك، وما كانوا ليفضلوا أقواله -في الأعم الأغلب- ويختاروها على غيرها لو لم يكن ذا علم وأمانة وورع ودين، وسأبدأ بنصوص لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله الذي كان يثني على سيبويه-وعلى كتابه- ويزكيه في مواضع كثيرة من كتبه، ومما قاله في ذلك:"كتاب سيبويه مثلاً ممّا لا يقدر على مثله عامّة الخلق[1]"،"ونحو سيبويه لا نظير له[2]"، "سيبويه الذي ليس في العالم مثل كتابه وفيه حكمة لسان العرب[3]"، "سيبويه حكيم لسان العرب[4]"، "كتاب سيبويه كتاب عظيم المنفعة[5]"، "كتاب سيبويه في العربية لم يصنف بعده مثله[6]"، وقال عنه الإمام النووي رحمه الله: "إمام النحوين سيبويه[7]"،وقال أيضا:"سيبويه إمام العربية وكتابه إمام كتب العربية[8]"،وقال عنه معاصره أبو عبيد القاسم بن سلام (224هـ): "كان سيبويه النحوي مولى بني الحارث بْن كعب غاية الخلق في النحو، وكتابه هو الإمام فيه"[9]، وكان أبو العباس ناصر الدين ابن المنير الإسكندراني (683هـ) يقارن يقارن بين كتابي صحيح البخاري وكتاب سيبويه ويثني على عنوانات الأبواب

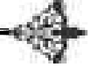
(1) كتاب النبوات لابن تيمية 1/ 172.
(2) المصدر السابق 1/ 174.
(3) مجموع الفتاوى 9/ 46.
(4) المصدر السابق 12/ 460.
(5) المصدر السابق 16/ 15.
(6) المصدر السابق11/ 370.
(7) المجموع شرح المهذب 1/ 77.
(8) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج 1/ 170.
(9) تاريخ بغداد 14/ 99.



فيهما، فيقول:"كِتَابَانِ فقههما فِي تراجمهما: كتاب البُخَارِيّ فِي الحَدِيث، وَكتاب سِيبَوَيْهِ فِي النَّحْو[1]"، وقال أبو حيان في تفسيره البحر المحيط - في معرض ثنائه على سيبويه رحمه الله-: "فجدير لمن تاقت نفسه إلى علم التفسير، وترقَّت إلى التحقيق فيه والتحرير، أن يعتكف على كتاب سيبويه، فهو في هذا الفن المعول عليه، والمستند في حل المشكلات إليه"[2]، ويرى الإمام الرازي (606هـ) أن أجل الكتب المصنفة في النحو كتاب سيبويه[3]، ووصف ابن القيم سيبويه في بدائع الفوائد بأنه المعظم المقدم في الصناعة[4]، وأنه إمام الصناعة[5]، وترحم عليه كثيرًا واستشهد بكثير من أقواله عند حديثه على بعض المسائل الشرعية، وبعد هذه الأمثلة أقول: لله در سيبويه فقد استقى من معين كتابه أغلب من ألف في الشريعة وعلومها، فضلاً عن اللغة وعلومها، فعلماء التفسير لا يستغنون عنه البتة، وتفاسيرهم مشحونة بالنقل عنه، وكذلك علماء الحديث في شروحهم، وعلماء الفقه في شروحهم وأصولهم، ولا يمكن لباحث أن يحصي نقولات هؤلاء عن سيبويه، وصدق الزمخشري عندما عبر عن الدور النحوي في فهم العلوم الشرعية وأنه واضح غير خفي بقوله: لاتجد"عِلمًا من العلوم الإسلامية فقهِها وكلامِها وعلمي تفسيرها وأخبارها إلا وافتقاره إلى العربية بين لا يدفع ومكشوف لا يتقنع، ويرون الكلام في معظم أبواب أصول الفقه ومسائلها مبنيا على علم الإعراب" ثم ذكر أن تلك الكتب والتفاسير مشحونة بالروايات عن سيبويه وكتابه[6].

---

(1) المتواري على تراجم أبواب البخاري لابن المنير الاسكندراني 37.
(2) البحر المحيط 1/ 11.
(3) ينظر: المحصول في أصول الفقه للرازي (1/ 286).
(4) 1/ 219.
(5) 2/ 21، 148.
(6) المفصل 1/ 18، وشرح المفصل لابن يعيش 1/ 8.



3- مذهبه العقدي:

لنبوغ سيبويه وأهمية كتابه تنازعته بعض الفرق -كالشيعة والمعتزلة- فنسبته إليها، فممن نسبه إلى الشيعة وأدرَج اسمه ضمن طبقاتهم صاحب كتاب"الذريعة إلى تصانيف الشيعة"[1]، وممن نسبه إلى الاعتزال المرتضى أحمد بن يحيى (793هـ) في كتابه"طبقات المعتزلة"[2]، ومن المحدثين سعيد الأفغاني في كتابه "في أصول النحو"[3]، ولم يأت هؤلاء ببرهان واحد حتى ولو كان واهيًا يعضد زعمهم، وما ذكروه ذكروه بلا سند وبلا تحقق علمي أو تاريخي، والصحيح أن سيبويه -رحمه الله-كان سنيًّا على مذهب أهل السنة والجماعة، يدل على ذلك ويؤكده أمور، منها:

1- نص عدد من العلماء القدامى على ذلك، يقول الزبيدي: "كان سيبويه سنيًّا على مذهب السنة"[4]، ويقول أبو منصور عبدالقاهر بن طاهر بن محمد التميمي البغدادي (ت 429هـ) عن سيبويه وبعض النحويين:"وكالخليل، وأبي عمرو بن العلاء،... وسيبويه،... كل هؤلاء من أهل السنة والجماعة"[5]، وقال أبو المظفر الإسفراييني (471هـ): "لم يكن فِي أَئِمَّة الْأَدَب أحد إِلَّا وَله إِنْكَار على أهل الْبِدْعَة شَدِيد وَبعد من بدعهم بعيد مثل الْخَلِيل بن أَحْمد وَيُونُس بن حبيب وسيبويه... وما منهم أحد إلا وله في تصانيفه تعصب لأهل السنة والجماعة ورد على أهل الإلحاد والبدعة[6]"، وقال عنه الإمام الشاطبي(790هـ): "كان سنيًّا في مذهبه"[7].

(1) 17/ 261، وينظر: مناهج اللغويين في تقرير العقيدة إلى نهاية القرن الرابع الهجري172.
(2) ص 131.
(3) ص 103.
(4) طبقات النحويين واللغويين 68.
(5) ينظر: الملل والنحل 156.
(6) التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين 188.
(7) المقاصد اشافية 5/ 443.



2- تتلمذه على حماد بن سلمة الذي اشتهر بعقيدة السلف، وبمناصرة السنة ونبذ المبتدعة[1]، وكذلك تتلمذه للخليل بن أحمد، وأبي عمرو بن العلاء، ويونس بن حبيب، وهؤلاء جميعًا -وبإجماع- هم من أهل السنة، المحاربين لأهل البدع[2].

3- لم يرد في كتابه -أعني سيبويه- فقرة واحدة بل ولا كلمة واحدة تجعلنا من خلالها نحكم عليه بأنه شيعي أومعتزلي، بل إنه لما ذكر عليًّ بن أبي طالب ترضى عنه[3]، وهذا منهج أهل السنة الذين لا يفرقون بين علي وبين غيره من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في مسألة الترضي عليهم عند ورود ذكرهم، ولو كان شيعيًا لعبر بتعبير الشيعة تجاه آل البيت من قولهم: عليه السلام.

4- انحياز علماء السنة في كتبهم في العقيدة له باختيار رأيه في كثير من المسائل الخلافية، وهذا ظاهر بأدنى تأمل.

(1) ينظر: الثقات لابن حبان 6/ 216-217، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال 7/ 259.
(2) ينظر: تاريخ بغداد 12/ 157، وتاريخ دمشق لابن عساكر 37/ 79، وتهذيب التهذيب 3/ 164.
(3) ينظر: الكتاب 2/ 297.

الفصل الأول: مظاهر تدين سيبويه من خلال كتابه: وفيه ثلاثة مباحث

1- أمانته العلمية:

وهي مظهر من مظاهر التزامه الديني، وقد أجمع القدماء[1] على أن سيبويه ثقة حافظ، صدوق في كل ما يروي، وأن كتابه يعد تسجيلاً أمينًا لما كان يدور في حلقات الدرس ومجالس العلم، ولم يكتف العلماء بتوثيق سيبويه فحسب بل وثقوا من روى عنهم سيبويه، لأنه عندهم -أعني سيبويه- لا يمكن أن ينقل إلا عن ثقة[2]، ولهذا كانت عبارة "وهو أحد من روى عنهم سيبويه" شائعة في كتب التراجم، وهي كافية في الحكم على أمانة الشخص المتحدث عنه، ولما ذكر عبدالقادر البغدادي بعض الأبيات غير المعروفة القائل في كتاب سيبويه علق بقوله:"وزعم بعض الذين ينظرون في الشعر أن في كتابه أبياتا لا تعرف، فيقال له لسنا ننكر أن تكون أنت لا تعرفها ولا أهل زمانك، وقد خرج كتاب سيبويه إلى الناس والعلماء كثير، والعناية بالعلم وتهذيبه أكيده، ونظر فيه وفتش فما طعن أحد من المتقدمين عليه، ولا أدعى أنه أتى بشعر منكر"[3]، وقال الشاطبي مثنيًا على سيبويه:"كان -رحمه الله- ثقة ثبتا فيما ينقله، محققا في علمه، لم ير في زمانه مثله فهمًا لكلام العرب، وشرحًا لمقاصده، وهو أثبت من أخذ عن الخليل"[4]، ويروي المبرد عن يونس بن حبيب وهو أحد شيوخ سيبويه قوله وَقد ذُكِر عِنْده سِيبَوَيْه:"أَظنُ هَذَا الْغُلَام يكذب على الْخَلِيل، فَقيل لَهُ: قد روى عَنْك أَشْيَاء، فَانْظُر فِيهَا فَنظر، وَقَالَ: صدق فِي جَمِيع مَا

---

(1) ينظر: الانتصار 54-55، وإصلاح الخلل 220، والبسيط 2/ 1059، وشرح التسهيل 3/ 81، والخزانة 8/ 169.

(2) ينظر: البسيط 2/ 1059.

(3) الخزانة 1/ 370.

(4) المقاصد الشافية 5/ 443.



قَالَ هُوَ قولي"[1]، ولما شكك أبو زيد الأنصاري في نقل سيبويه في الكتاب قال له الجرمي: قد روى عنك شيئًا كثيرًا فهل صدق فيه؟ قال: نعم، فقال له الجرمي: إذن فصدقه فيما يروي عن غيرك[2].

2- كثرة استشهاده بالآيات القرآنية مما يدل على حفظه لكتاب الله عزوجل واستنباط القواعد النحوية من خلاله:

يظهر أن سيبويه كان حافظًا لكتاب الله مستظهرًا له، ومن ينظر في كتابه بتمعن يخيل إليه أنه وهو يتناول القضايا النحوية قد وضع المصحف بين يديه، وقل أن تجده يتحدث عن مسألة ولايستشهد لها بآية أوأكثر، وعبارة"ومثل ذلك كثيرٌ في القرآن" وأشباهها تكررت كثيرًا في الكتاب، ويوردها بعدما يسوق عددًا من الآيات القرآنية كشاهد على مسألة من مسائله النحوية التي يتحدث عنها[3]، وقد بلغت الآيات القرآنية في الكتاب- حسب إحصاء الدكتور سليمان خاطر[4]- أربعمائة وسبعة وسبعين آية، ولكثرة آيات القرآن الكريم التي استشهد بها سيبويه امتنع أبو عثمان المازني (ت247هـ) من إقراء كتاب سيبويه ليهودي، ورأى أن في تمكين اليهودي من كتاب سيبويه تمكين له من كتاب الله عزوجل[5]، والذي دفع سيبويه إلى الإكثار من الاستشهاد بالآيات القرآنية هو إخلاصه وحرصه على بناء القواعد على أصلها الأول، وهو بهذا العمل يتقرب إلى الله عزوجل بخدمة كتابه، والملاحظ أن سيبويه –رحمه الله– عند إيراده للآية يسند القول إلى الله عزوجل مع

---

(1) الخزانة 1/ 372.

(2) ينظر: مراتب النحويين 87، ومقدمة الكتاب 1/ 28.

(3) ينظر على سبيل المثال: الكتاب 1/ 89، 2/ 39، 325، 3/ 143، 162، 188.

(4) في كتابه: التوجيه النحوي لوجوه القراءات القرآنية المشكلة في كتاب سيبويه ص 101، وذكر الشيخ محمد عبدالخالق عضيمة في كتابه"فهارس كتاب سيبويه ص 737" أنها زادت على ثلاثمائة وتسعين شاهدًا.

(5)ينظر: نزهة الألباء 141،ووفيات الأعيان 1/ 284،ومعجم الأدباء 7/ 111،والغيث المسجم في شرح لامية العجم 2/ 142.

الإجلال والتعظيم والتنزيه، ومن عباراته التي يقدم بها للآيات القرآنية: "قال جلَّ ثناؤه"[1]"، قال الله تعالى جده"[2]"، قال عز وجل"[3]"، قال جلَّ وعزَّ"قال تعالى"، قال سبحانه"، "قال الله تبارك وتعالى"[4].

3- عدم استشهاده بشيء من الحديث النبوي منسوبًا إلى النبي ﷺ:

مسألة الاستشهاد بالحديث لاتخفى وهي من المسائل التي أشبعت دراسة وبحثًا[5]، وقد نص أبو حيان على أن سيبويه وغيره من النحويين المتقدمين لم يستدل بما وقع في الاحاديث النبوية على إثبات القواعد الكلية في لسان العرب[6]، وعلل لذلك بأمرين:

1- أن الرواة جوزوا النقل بالمعنى، فتجد قصة واحدة جرت في زمانه ﷺ نقلت بألفاظ عديدة، ومن المجزوم به أن النبي ﷺ لم ينطق بتلك الألفاظ جميعها.

2- أن كثيرا من الرواة كانوا غير عرب، ولا يعلمون لسان العرب بصناعة النحو، فوقع اللحن في كلامهم، وهم لا يعلمون ذلك.

وما ذكره أبو حيان من عدم استشهاد سيبويه بالأحاديث النبوية على إثبات القواعد صحيح، ولا ينقضه وجود بعض الأحاديث النبوية الواردة في الكتاب،

---

(1) ينظر: الكتاب 1/ 237، 326، 381، 2/ 63، 48، 205.

(2)ينظر: الكتاب 1/ 141، 2/ 154،40.

(3)ينظر: الكتاب 1/ 15، 237، 2/ 9، 63، 3/ 123، 432.

(4)ينظر: الكتاب 1/ 155، 237، 381،، 384، 2/ 41.

(5) ينظر بحث هذه المسألة في: الاقتراح للسيوطي 29-32، والسير الحثيث إلى الاستشهاد بالحديث للدكتور محمود فجال 47-114، والأصول للدكتور تمام حسان 105-114، وأصول النحو العربي للدكتور محمود نحلة 46-57، ودراسات في كتاب سيبويه للدكتورة خديجة الحديثي 48-68، وحذف نون الرفع لغير ناصب ولاجازم في بعض مرويات الحديث النبوي بين التخطئة والتخريج، بحث للدكتور عبدالله النغيمشي 1-3، 10-11.

(6) ينظر: التذييل والتكميل 8/ 130(مطبوع)، 5/ 169(مخطوط)، وتمهيد القواعد 9/ 4408، والاقتراح 29.



لأمرين:

أحدهما: أن سيبويه لم يأت بتلك الأحاديث لإثبات قاعدة نحوية، وإنما أتى بها لمجرد التمثيل ولتقوية ما لديه من شواهد.

الثاني: أنه ذكرها على أنها من كلام العرب ولم يعزها إلى النبي ﷺ، مثل قوله[1]: "ومن العرب من يَرفع فيقولُ: سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ رَبُّ الملائكة والرُّوح"[2].

و-في نظري- أن الذي منع سيبويه من الاستشهاد بالحديث النبوي على إثبات القواعد، وكذلك عدم نسبته ما أورده من أحاديث إلى النبي ﷺ إنما هو الورع والدين والخشية من أن ينسب إليه عليه الصلاة والسلام ما لم يقله، وهو مصيب -في نظري- فبعض الأحاديث المروية ضعيف السند، وبعضها موضوع، وكثير منها صحيح السند لكنه جاء بأكثر من رواية وأكثر من لفظ، فتجد في أحيان كثيرة الحديث الواحد مخرج في الصحيحين أو أحدهما بروايتين مختلفتين إحداهما فيها شاهد والأخرى لاشاهد فيها.

فإن قيل هذه الاحتمالات التي توجب سقوط الاستشهاد بالحديث -من الوضع وتغيير اللفظ والرواية بالمعنى- ثابتة أيضًا في أشعار العرب وكلامهم، ومع ذلك لم يمتنع سيبويه من الاستشهاد بها، فالجواب أن ما قالته العرب من شعر أو نثر لو حصل فيه وضع أوتغيير فالأمر يسير، أما الوضع والتغيير في لفظ وارد عن الرسول ﷺ فيخشى منه الوقوع تحت الوعيد الوارد في قوله ﷺ:"من كَذَبَ عليّ متعمّدًا فليتبوأ مقعده من النار"، وهذا الحديث مخرج في الصحيحين والسنن والمسانيد، وليس في بعض الروايات لفظ"متعمدًا".

---

(1) الكتاب 1/ 327، وينظر أمثلة أخرى في: 2/ 3،393،32/ 268،237.

(2) جزء من حديث روته عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول في ركوعه وسجوده: "سبوح قدوس رب الملائكة، والروح"، أخرجه مسلم في صحيحه 1/ 353 (487)، والإمام أحمد في مسنده 40/ 73، وغيرهما من أصحاب المسانيد والسنن.

الفصل الثاني: أثر تدينه في دراسته النحوية: وفيه خمسة مباحث

1- مسألة لفظ الجلالة "الله" أعرف المعارف:

لفظ الجلالة "الله" اسم من أسماء الخالق جل وعز، خاص به لا يشاركه فيه غيره، ولم يتجرأ أحد من المخلوقين أن يتسمى به، قال ابن خروف:"قال الفراء في قوله تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾[1]: هل تعلم هذا الاسم يقال لغير الله ؟"[2]، و"الله"أعظم أسماء الله الحسنى، لأنه دال على الذات الجامعة لصفات الألوهية كلها، أما سائر الأسماء فتدل على معان منفردة كالعلم والقدرة والسمع والبصر، ولذلك أضاف الله تعالى سائر الأسماء الحسنى إلى هذا الاسم العظيم في قوله: ﴿وَلِلّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُواْ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَآئِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[3]، ويقال: الرحمن، والرحيم، والقدوس، والسلام، والعزيز، والصبور، والشكور من أسماء الله، ولا يقال: "الله" من أسماء الرحمن، ولا من أسماء العزيز ونحو ذلك.

وإذا كان النحويون قد اختلفوا في المعارف أيها أعرف[4]، فإنهم قد أجمعوا على أن لفظ الجلالة"الله" أعرفها[5]، وذلك لأنه ممتنع الإلباس، لشدة تميزه، وغلبة

---

(1) من الآية 65 من سورة مريم.

(2) شرح الجمل لابن خروف 1/ 248، ولم أجده في معاني القرآن للفراء.

(3) من الآية 180 من سورة الأعراف.

(4) فذهب الجمهور إلى أن المضمر هو أعرف المعارف، ثُمَّ الاسم العلم، ثم الاسم المبهم، ثُم ما فيه الألف واللام، وأعرف الضمائر ضمير المتكلم، لأنَّه لا يشاركه فيه أحد غيره، فلا يقع فيه الْتِبَاس، بخلاف غيره. ينظر: الأصول 2/ 313، والإنصاف 2/ 581، وأسرار العربية 243-244، واللباب 1/ 494، وشرح المفصل 3/ 349، والتذييل والتكميل 2/ 113، وتمهيد القواعد 1/ 434، والهمع 1/ 191.

(5) ينظر: همع الهوامع 1/ 191، وحاشية الصبان 1/ 159، والكواكب الدرية شرح على متممة الأجرومية 1/ 53.



ظهوره، فهو لا يحتمل إلا الله عزوجل، يروى إن سيبويه رُئِيَ في المنام، فقيل له: "ما حالك عند الله؟ فقال: قد غفر لي، وأدخلني الجنة، لأني جعلت أعرف المعارف: "الله""[1]، وعزا الرعيني المالكي (954هـ) تلك الحكاية عن سيبويه إلى ابن جني، قال: "وحكى ابن جني أن سيبويه رئي بعد موته فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: خيرًا، وذكر كرامة عظيمة، فقيل له: بم؟ فقال: لقولي: إن اسم الله أعرف المعارف"[2]، ولم أجد -وبعد تتبع- تلك الحكاية في كتب ابن جني ولا في أي كتاب من كتب النحو المتقدمة، وجميع من ذكرها هم من المتأخرين، وأول من ذكرها-فيما اطلعت عليه- هو الإمام الزركشي (794هـ) في كتابه "معنى لا إله إلا الله"[3]، ويظهر أن المتأخرين ينقلونها عنه[4]، وكون تلك الحكاية لم ينقلها إلا المتأخرون أمر لا إشكال فيه إذ يحتمل أن تكون الرؤيا متأخرة، لكن الإشكال هو هل نص سيبويه على أن لفظ الجلالة أعرف المعارف؟، وقبل الجواب عن هذا التساؤل يجب أن يُعلم أن كون اللفظ العظيم "الله" أعرف المعارف أمر بدهي ومستقر في عقيدة سيبويه وعقيدة كل مسلم يؤمن بالله رب العالمين، والكلام هنا ليس عن ذلك فهو أمر مفروغ منه، وإنما عن مسألة التنبه لذلك الأمر والتصريح به، إذ التصريح به فيه تعظيم للواحد الأحد، أقول: تحدث سيبويه عن المعارف،

(1)ينظر: كتاب معنى لا إله إلا الله للزركشي 106.

(2) مواهب الجليل في شرح مختصر خليل 1/ 11.

(3) ص 106.

(4) ذكرت تلك الحكاية بالإضافة إلى ما سبق في: نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، لشمس الدين الرملي الشهير بالشافعي الصغير (1004هـ)، 1/ 21، وحاشية الجمل- سليمان بن عمر العجيلي الأزهري، المعروف بالجمل (المتوفى: 1204هـ)- على شرح منهج الطلاب لزكريا الأنصاري 1/ 9، وتيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب (المتوفى: 1233هـ) ص 9، والكواكب الدرية شرح على متممة الأجرومية للشيخ محمد بن أحمد الأهدل، من علماء القرن الثالث عشر.1/ 53، وفيض الباري على صحيح البخاري(أمالي) محمد أنور شاه بن معظم شاه الكشميري الهندي ثم الديوبندي (المتوفى: 1353هـ) 3/ 16، وحاشية الإمام عبدالحميد الشرواني على كتاب تحفة المحتاج في شرح المنهاج لابن حجر الهيتمي 1/ 8.

فقال:"المعرفةُ خمسة أشياء: الأسماء التي هي أعلامٌ خاصة، والمضاف إلى المعرفة، إذا لم ترد معنى التنوين، والألف واللامُ، والأسماء المبهمة، والإضمارُ"(1)، ثم بدأ يشرح معنى التعريف فيها، ويسوق الأمثلة، دون أن ينص على الأعرف منها، وإن كان يفهم من ظاهر قوله لا صريحه أنه يرى أن المضمر أعرف المعارف وذلك أنه ذكر الأشياء التي توصف بها المعارف إذا خيف التباسها بغيرها(2)، فلما وصل إلى ذكر المضمر قال:"واعلم أن المضمر لا يكون موصوفًا، من قِبل أنك إنما تضمِر حين ترى أن المحدَّث قد عرف مَن تعني"(3)، فكون المضمر لا اشتراكَ فيه لتعينه لم يحتج إلى صفة، أما بقية المعارف فإنه يقع فيها الاشتراك فتميز بالصفة، ولم يتعرض سيبويه في كتابه – فيما اطلعت عليه– لمسألة تعريف لفظ الجلالة، وإن كان ظاهر كلامه يؤيد الحكاية السابقة المروية عنه، وذلك أنه تحدث عن لفظ الجلالة فذكر أن له خصائص ليست لغيره، قال: "قد صرفوا هذا الاسم على وجوه لكثرته في كلامهم، ولأن له حالاً ليست لغيره"(4)، وأختم الحديث هنا بتنبيه وهو أن عدم وجود المقولة المنقولة عن سيبويه"الله أعرف المعارف"في كتابه المطبوع

لا يعني أنه لم يقلها، إذ ربما يكون ما نُقل عنه ماخوذاً من نسخة أخرى غير تلك التي اعتمد عليها محقق الكتاب، وربما يكون قاله في غير الكتاب، والله أعلم.

2- حديثه عن "كان" عند دخولها على أسماء الله وصفاته وأنها مرادفة للفعل (لم يزل) :

"كان" فعل ناسخ يأتي منه الماضي والمضارع والأمر، فإذا قلت: كان زيدٌ قائمًا،

(1) الكتاب 2/ 5.
(2) ينظر: الكتاب 2/ 6-8، 413.
(3) الكتاب 2/ 11.
(4) الكتاب 2/ 196-197.



فإن قيام زيد كان فيما مضى، وليس الآن بقائم[1]، وعليه فصيغة "كان" تدل في أصل وضعها اللغوي على الزمن الماضي، قال أبو حيان:"والذي تلقناه من الشيوخ أن"كان" تدل على الزمان الماضي المنقطع، وكذلك سائر الأفعال الماضية"[2]، وقال سيبويه: "تقول:كان عبدُ الله أخاك، فإنَّما أردْتَ أن تُخْبِرَ عن الأُخوّة، وأدخلتَ "كانَ" لتَجعلَ ذلك فيما مضى"[3]، فإذا جاء خبرها مقررًا صفة من صفات الله تعالى، كما في قوله:﴿وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾[4]، وقوله: ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[5] فإنها عند سيبويه تقتضي الاستمرار، لفساد معنى المضي فيها، لأن كل صفة لله مستحقة في حال فهي مستحقة في كل حال، قال الزجاج: "ومعنى ﴿إِنَّ اللهَ كانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾... قال سيبويه: كَأن القوم شاهدوا علمًا وحكمة ومغفرة وتَفَضلاً، فقيل لهم: إن الله كان كذلك ولم يزل، أي لم يزل على ما شاهدتم"[6]، وهذا القول الذي أورده الزجاج لم أعثر عليه في كتاب سيبويه، ولا يستبعد أن يكون الزجاج -وحسبك به ثقة- رواه عن سيبويه من غير جهة كتابه، وقد أشار العلماء إلى أن هناك العديد من المسائل الثابتة عن سيبويه من غير جهة الكتاب، قال البغدادي نقلاً عن ابن خالويه:"وقد وقعت إلينا مسائل جمة روى سيبويه الجواب فيها عن الخليل ولم يضمن كتابه شيئًا من ذلك"[7]، وهناك احتمال آخر وهو أن يكون الزجاج اطلع على نسخة من الكتاب لم تصل إلينا، وهي غير النسخ التي اعتمد عليها من حقق كتاب سيبويه، وما ذهب إليه سيبويه من خروج "كان" من معنى المضي

---

(1) ينظر: أمالي ابن الشجري 2/ 483، وشرح الجمل 1/ 412.
(2) التذييل والتكميل 4/ 212.
(3) الكتاب 1/ 45.
(4) من الآية من 96 سورة النساء.
(5) من الآية 24 من سورة النساء.
(6) معاني القرآن وإعرابه 2/ 25، وينظر النقل عن سيبويه أيضًا في: إعراب القرآن للنحاس 1/ 440، وأمالي ابن الشجري 2/ 482.
(7) خزانة الأدب 10/ 357.

إلى الاستمرار إذا كان الخبر صفة من صفات الله تعالى هو قول من عدة أقوال قيلت في المسألة، أحدها: أن الأصل في "كان" الاستمرار، وأنه لاتدل على الانقطاع إلا بقرينة[1]، الثاني: أنها تقتضي الانقطاع وعدم الاستمرار، وأن دلالتها على الاستمرار في بعض المواضع كان من خلال دليل خارج -عقلي أو شرعي- لا من حيث وضع اللفظ[2].

3- الألفاظ الخاصة بتعظيم الله تعالى عند سيبويه:

يرى سيبويه أن اللغة خصصت ألفاظًا لاستعمالها عند تعظيم الله تعالى لا تجوز لتعظيم غيره، ومن ذلك لفظ "الحمد" مُعَرَّفًا، فإنه لا يقال إلا في حقّ الله عز وجل لأنه يدلُّ على التعظيم، إذ معناه: جميعُ المحامد لله، فدخول الألف واللام التي تفيد الاستغراق دل على أن عموم الحمد وثباته لله دون تجدده وحدوثه، ولو أسقطتا فقيل: حمدًا لله، لم يأت هذا المعنى، وعليه فلا يجوز أن يقال: الحمدُ لِزَيْدٍ، وإن كان عظيمًا، قال سيبويه:"واعلم أنه ليس كل موضع يجوز فيه التعظيم، ولا كل صفة يحسن أن يعظَّم بها...، وليس كل شيء من الكلام يكون تعظيمًا لله عز وجل يكون تعظيمًا لغيره من المخلوقين، لو قلت: الحمدُ لزيد؛ تريد: العظمةَ، لم يجز، وكان عظيمًا"[3]، أي أمرًا منكرًا غير مغتفر أن تمدح المخلوق وتعظمه بلفظ لا يصلح إلا للخالق سبحانه، وذلك أن معنى قولك: الحمدُ لزيد: جميع المحامد لزيد، وهذا لا يقال في حق أحد من المخلوقين، ولهذا المحذور الشرعي-لا النحوي- وهو إشراك المخلوق مع الخالق في صفة لا تصلح إلا للخالق، عظم سيبويه هذا الأمر ومنعه.

---

(1) ينظر: شرح التسهيل 1/ 345.
(2) ينظر: التذييل والتكميل 4/ 212.
(3) الكتاب، لسيبويه 2/ 69.

4- تنزيهه الله عن ما لايليق به:

وتحت هذا المبحث عدة مسائل تناولت بعض الآيات القرآنية المتصلة باسم من أسماء الله أو صفة من صفاته، فخرجها سيبويه تخريجًا يليق بالله وصفاته:

الأولى: "أم" في نحو قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾:

تحدث سيبويه عن "أم" فذكر أنها تكون على وجهين، متصلة فيراد بها تعيين أحد المتعاطفين، فتكون بمعنى:أيهما، أو أيهم، تقول: أزيد عندك أم عمرو؟، ومنقطعة فلا يراد بها التعيين[1]، وجعل من ذلك "أم" في قوله تعالى: ﴿الم * تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾[2]، و"أم" في الآية بمعنى الاستفهام، والتقدير: أيقول يا محمد هؤلاء المشركون من قومك: افترى محمد هذا القرآن؟، وبين سيبويه أن هذا الاستفهام ليس حقيقيًا، وأن الله سبحانه وتعالى منزه عن هذا، إذ هو علام الغيوب لا تخفى عليه خافية، وبين أن الاستفهام في الآية للتقرير المؤدي إلى الإنكار والتوبيخ، قال:"وبمنزلة "أم" [المنقطعة] قوله عز وجل:﴿الم * تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾، فجاء هذا الكلام على كلام العرب قد علم تبارك وتعالى ذلك من قولهم، ولكن هذا على كلام العرب ليُعَرَّفوا ضلالتهم"[3].

الثانية: معنى "لعل" في القرآن الكريم:

نص سيبويه على أن "لعل" في أصل وضعها اللغوي معناها الترجي، قال:"وإذا قلت لعل فأنت ترجوه أو تخافه"[4]، وقال: "لعل... طمعٌ وإشفاقٌ"[5]، فالطمع

(1) ينظر: الكتاب 3/ 169-175.
(2)الآية 1 و 2 و3 من سورة السجدة.
(3) الكتاب 3/ 173.
(4) الكتاب 2/ 148.
(5) الكتاب 4/ 233.

يكون في ارتقاب شيء محبوب،نحو: لعلي أنجح، والإشفاق يكون في ارتقاب شيء مكروه، نحو: لعل العدو يقدم، وهذه المعاني مما يستحيل صدور مثلها عن الله جل جلاله، إذ هو سبحانه يعلم ما كان وما سيكون، وهو القوي العزيز، ولهذا صرف سيبويه الترجي المدلول عليه ب"لعل" في قوله تعالى:﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾[1] ليكون في حق المخاطبين، قال:"قوله تعالى:﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾[2] فالعلمُ قد أتى من وراء ما يكون، ولكن اذهَبَا أنتما فى رَجائكما وطَمَعِكما ومبلغكما من العلم، وليس لهما أكثرُ من ذا ما لم يعلما"[3]، وعليه فالمعنى في الآية: يا موسى وهارون باشرا أمر فرعون مباشرةَ من يرجو ويطمع في إيمانه، قال أبو حيان بعد أن ذكر أن الترجي يكون في هذه الحالة للمخاطبين:"لأن الترجي لا يقع من الله سبحانه وتعالى إذ هو عالم الغيب والشهادة"[4]، وما ذكره سيبويه رحمه الله من توجيه ل "لعل" في الآية السابقة قد لا يصلح لكل آية وردت فيها "لعل"، فمثلاً "لعل" في قوله تعالى:﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[5] لا يمكن أن تكون لترجي المخلوقين، لأنهم لم يكونوا حال الخلق عالمين بالتقوى حتى يرجوها[6]، وإنما هي في الآية بمعنى"كي" فتكون للتعليل، وعليه ف"لعل" الواردة في آيات كثيرة يمكن أن توجه بأحد أمرين، الأول ما ذكره سيبويه من بقاء"لعل" على معناها

(1) الآية 44 من سورة طه.
(2) الآية 44 من سورة طه.
(3) الكتاب 1/ 331.
(4) ينظر: البحر المحيط 1/ 155.
(5) الآية 21 من سورة البقرة.
(6) حاشية الصبان 1/ 400.



وهو الترجي، ولكن الترجي يكون في حق المخاطبين لا المتكلم[1]، والثاني أن تخرج عن معنى الترجي إلى معنى آخر وهو التعليل، فتكون بمعنى "كي"[2].

الثالثة: ألفاظ الدعاء إذا وقعت من الله عزوجل فهي من طريق اللفظ على ما قد تعارفه الناس، وهو من الله عزّ وجلّ واجب:

يرى سيبويه أن "ويل" كلمة تقال لمن وقع في هلكة[3]،أَو بَلِيَّة لَا يُتَرحَّمُ عَلَيْهِ مَعهَا، تقول: ويلٌ لزيد، بالرفع، و:ويلاً له بالنصب، فالرفع على الابتداء[4]، والنصب والنصب على المفعولية المطلقة، والعامل فيها فعل مهمل[5]، والفرق بين النصب والرفع أنك إذا رفعتها فكأنك ابتدأت شيئًا قد ثبت عندك واستقر وفيها معنى الدعاء[6]، وإذا نصبت فكأنك ترجَّاه في حال حديثك وتعمل في إثباته[7]، وقد وردت وردت هذه اللفظة في القرآن، قال تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾[8]وقال:﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾[9]، فمنع سيبويه أن يكون فيها هنا معنى الدعاء تنزيهًا لله رب العالمين، وبين أن الله تبارك وتعالى خاطب العرب في القرآن على ما يعرفونه من كلامهم،

---

(1) واختاره مجموعة من العلماء، منهم: المبرد في المقتضب 4/ 183، وأبو حيان في البحر المحيط 1/ 155، والمرادي في الجنى الداني 580، وغيرهم.

(2) القول بأن "لعل" في القرآن الكريم تفيد التعليل هو قول جماعة كبيرة من العلماء. ينظر: تهذيب اللغة 1/ 79، وشرح السيرافي 2/ 223، وشرح المفصل 4/ 570، والتذييل والتكميل 5/ 23، والارتشاف 3/ 1240.

(3) ينظر: الكتاب 1/ 331، وتهذيب اللغة 5/ 191، ولسان العرب 11/ 737 (ويل)، وقيل: الويل: واد في جهنم، وقيل: شدة من العذاب. ينظر: تهذيب اللغة 15/ 327، ولسان العرب 11/ 737 (ويل).

(4) والمسوغ للابتداء بالنكرة هو التعظيم المفهوم من التنوين أو التنكير، أو لأن الكلمة تضمنت معنى الدعاء.

(5) ينظر: الفاخر 21، والأصول 3/ 386.

(6) ينظر: الكتاب 1/ 310، والمقتضب 3/ 221، واللامات للزجاجي 125، وشرح السيرافي 2/ 222، والتذييل والتكميل 7/ 165، وتمهيد القواعد 4/ 1849.

(7) ينظر: شرح المفصل 1/ 122.

(8) الآية 15 من سورة المرسلات.

(9) الآية 1 من سورة المطففين.

وساروا عليه في خطابهم، فلما كان معروفًا في كلامهم أن يقول أحدهم لصاحبه: ويلٌ لك، إذا أراد الدعاء عليه، خاطبهم على حسب ما قد جرى به استعمالهم في ذلك الكلام بينهم وما قد عرفوه في منطقهم، قال:"وأمّا قوله تعالى جدُّه: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾، و: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾، فإنّه لا ينبغى أن تقول إنّه دعاءٌ ههنا، لأنّ الكلام بذلك قبيح، واللفظ به قبيحٌ، ولكنّ العبادَ إنَّما كُلِّموا بكلامهم، وجاء القرآنُ على لغتهم وعلى ما يَعنون، فكأنَّه واللهُ أعلمُ قيل لهم: وَيلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ، ووَيْلُ يَوْمَئِذٍ لِلمُكَذِّبِينَ، أى هؤلاءِ ممن وجب هذا القولُ لهم، لأنَّ هذا الكلامَ إنّما يقال لصاحب الشر والهلكلة، فقيل: هؤلاء ممن دخل فى الشرّ والهلكة ووجَبَ لهم هذا"[1]، وجعل مثل ذلك قوله تعالى: ﴿قَاتَلَهُمُ اللهُ﴾[2]، قال بعد نصه السابق:"ومثله: ﴿قَاتَلَهُمُ اللهُ﴾، فإنما أُجرى هذا على كلام العباد وبه أُنزل القرآنُ"[3]، وقد علق السيرافي على كلام سيبويه بكلام جميل ذكر فيه أن اللفظ المتعارف عليه عند الناس في كلامهم أنه دعاء إذا وقع من الله عزّ وجلّ فهو من طريق اللفظ على ما قد تعارفه الناس، وهو من الله عزّ وجلّ واجب، لأن القائل إذا قال: قاتلك الله، ولعنك الله، وويل لك، فإنما يريد أن يوقع الله ذلك بالذي دعا عليه، فإذا قاله الله عزّ وجل فهو على طريق أنه يوقعه ويوجبه لمن قيل في حقه، لأنه هو المدعوّ المستدعى منه ذلك[4].

5- علاقة الإيمان بالنفس عند سيبويه:

النفس في القرآن الكريم يراد بها الذات الإنسانية لشخص ما، قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾[5]، وتكرر هذا اللفظ في القرآن في

---

(1) الكتاب 1/ 331.
(2) من الآية 30 من سورة التوبة، والآية 4 من سورة المنافقون.
(3) الكتاب 1/ 332.
(4) شرح السيرافي 2/ 223.
(5) من الآية 1 من سورة النساء.



أكثر من مائتين وتسعة وأربعين موضعًا، وقد حث الله تعالى على تزكية هذه النفس بالإيمان والعمل الصالح، فقال:﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا* وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾[1]، ونقل أبو جعفر النحاس عن سيبويه ما يؤكد وجود عَلاقة قوية عضوية بين الإيمان الصادق والنفس البشرية، وأن كل واحد منهما مشتمل على الآخر، وبهذا الحس الديني علل تعليلاً نحويًا لقراءة ابن سيرين وأبي العالية[2]:﴿يوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لا تَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا﴾[3]بالتاء، قال أبو جعفر النحاس:"في هذا شيء دقيق من النحو ذكره سيبويه وذلك أنّ الإيمان والنفس كلّ واحد منهما مشتمل على الآخر فجاز التأنيث"[4]، وهذه القراءة التي نقل النحاس تخريج سيبويه لها خطأها مجاهد، وأبو حاتم[5]، وانتقدهما ابن جني وذكر أنه لاينبغي أن يُطْلَق على قراءة لها وجه في العربية قائم -وإن كان غيره أقوى منه- أنه غلط، ثم ذكر توجيهين -وافقه عليهما أبو حيان-[6] أحدهما ما ذكر عن سيبويه، والثاني أن يكون أنث "الإيمان" لكونه طاعة في المعنى، فكأنه قال: لا تنفع نفسًا طاعتها، على حد قول بعض العرب: فلان لغوب جاءته كتابي فاحتقرها، فقيل له: أتقول جاءته كتابي؟ فقال: نعم، أليس بصحيفة؟[7].

6- أفعال الدعاء:

تحدث سيبويه عن فعل الأمر، وهو ما دل على طلب وقوع الفعل من الفاعل المخاطب بغير لام الأمر، ومثل له في كتابه بأمثلة عديدة، وتحدث كذلك عن لام

---

(1) الآيتان 9 و 10 من سورة الشمس.

(2) ينظر: إعراب القرآن للنحاس 2/ 109، والمحتسب 1/ 236، والكشاف 2/ 82، والبحر المحيط 4/ 700، والدر المصون 5/ 232.

(3) من الآية 158 من سورة الأنعام.

(4) إعراب القرآن للنحاس 2/ 109، والبحر المحيط 4/ 700، ولم أجده في كتاب سيبويه.

(5) ينظر: المصدران السابقان.

(6) ينظر: البحر المحيط 4/ 700.

(7) ينظر: المحتسب 1/ 236، 238.

الأمر، و"لا" الناهية، فقال:"باب ما يعمل في الأفعال فيجزمها، وذلك: لم، ولما، واللام التي في الأمر، وذلك قولك: ليفعل، ولا في النهي، وذلك قولك لا تفعل؛ فإنما هما بمنزلة لم"[1]، فإن كانت هذه الأشياء تتعلق باسم من أسماء الله أو صفة من صفاته فقد نص سيبويه على أنها لا يجوز ولا يليق أن يطلق عليها أمر ولا نهي، وإنما يطلق عليها لتعظيم الله تعالى وتوقيره: دعاء، قال:"واعلم أَنّ الدعاءَ بمنزلة الأمر والنهى، وإنما قيل:"دعاءٌ" لأنه استُعْظِمَ أَنْ يقال: أمرٌ أو نَهْيٌ، وذلك قولُك: اللهمَّ زيدًا فاغفرْ ذنبَه، وزيدًا فأَصلحْ شأْنَه، وعَمْراً لِيَجْزِه اللهُ خيراً"[2]، وقال:" واعلم أن هذه "اللام" و"لا" في الدعاء بمنزلتهما في الأمر والنهي، وذلك قولك: لا يقطع الله يمنيك، وليجزك الله خيراً"[3]، وقال:"والدعاء بمنزلة الأمر والنهي"[4]، ولأجل ما ذكره سيبويه ذهب كثير من النحويين إلى أن الأمر والنهي يكون من الأعلى إلى الأدنى، والدعاء من من الأدنى إلى الأعلى، والالتماس من المتساويين[5]، وفي رأيي أن تسمية جميع ما سبق بالطلب أولى لتشمل الأمر والنهي والدعاء، فكل واحد من هذه الثلاثة طلب، أما تسمية الأمر والنهي إذا كان من الأدنى إلى الأعلى دعاء، فهو غير صحيح وأرى أن يكون هذا المصطلح مختصًا بالله تعالى، ولا يطلق في أمرٍ أو نهي مخلوقٍ مهما نزل لمخلوق مهما علا.

---

(1) الكتاب 3/ 8.
(2) الكتاب 1/ 142.
(3) الكتاب 3/ 8.
(4) الكتاب 3/ 511.
(5) ينظر: المقتضب 2/ 132، والأصول 2/ 170، وشرح التسهيل 4/ 57، والتصريح على التوضيح 2/ 395.



الخاتمة

حاولت هذه الدراسة أن تقدم تصورًا وافيًا وكافيًا لمظاهر وأثر التزام سيبويه الديني، وقد توصلت -بحمد الله- إلى نتائج عديدة، أهمها ما يلي:

1- التزام سيبويه الديني بدأ في فترة مبكرة من حياته، اتضح ذلك من خلال اختياره لتخصص لعلوم الشرعية في أول أيامه، حيث بدأ حياة الطلب بمصاحبة الفقهاء، وأهل الحديث، ومنهم شيخ البصرة وعالمها ومفتيها حماد بن سلمة.

2- لحن سيبويه في حلقة شيخه حماد بن سلمة كان نقطة تحول في حياته العلمية، حيث التحق بالخليل وغيره من شيوخ اللغة.

3- أثنى علماء الشريعة على سيبويه وعلمه، وفضلوا أقواله على أقوال غيره في كثير من مناقشاتهم العقدية والشرعية مما يدل على رضاهم عن دينه وخلقه وأمانته.

4- سيبويه -رحمه الله- كان سنيًّا على مذهب أهل السنة والجماعة، وقد دلل البحث على ذلك بما يكفي ويقنع بإذن الله.

5- أمانة سيبويه العلمية المجمع عليها مظهر من مظاهر التزامه الديني، ولم يكتف العلماء بتوثيق سيبويه فحسب بل وثقوا من روى عنهم سيبويه، لأنه عندهم -أعني سيبويه- لا يمكن أن ينقل إلا عن ثقة.

6- تجاوزت الآيات القرآنية في كتاب سيبويه أربعمائة وسبعين آية، وقل أن تجده يتحدث عن مسألة ولايستشهد لها بآية أوأكثر، مما يدل على أنه كان حافظًا لكتاب الله مستظهرًا له.

7- الوازع الديني هو الذي منع سيبويه من الاستشهاد بالحديث النبوي على إثبات القواعد، وكذلك عدم نسبته ما أورده من أحاديث إلى النبي ﷺ، وقد بين البحث ذلك وعلل له بما يكفي.

8- الحس الديني كان واضحًا عند سيبويه في مناقشته لبعض المسائل النحوية، وقد درس البحث مجموعة من المسائل.

9- كما كان الحس الديني واضحًا عند سيبويه في مناقشته لبعض المسائل النحوية، كذلك كان واضحًا في أسلوبه في الكتاب، وقد لاحظت هذا في الأمور الآتية:

أ- لاحظت أنه يربط كل أمر سيذكره في الكتاب مستقبلاً بمشيئة الله تعالى: مثل قوله: وستراه مفصلاً في بابه إن شاء الله، وسأخبرك عن ذلك إن شاء الله، وقد كتبنا ذلك فيما مضى، وسنراه فيما يُستقبل إن شاء الله، وأشباه، تلك العبارات، وقد أحصيت له من ذلك في الكتاب مائة وعشرة مواضع، ولم أره في موضع واحد يحيل إلى شيء سيذكره مستقبلاً ولم يعلقه بالمشيئة.

ب- كذلك كان من أسلوبه -في الغالب- عند إيراده للآيات القرآنية إسناد القول إلى الله عزوجل مع الإجلال والتعظيم والتنزيه، ومن عباراته التي يقدم بها للآيات القرآنية:"قال جلَّ ثناؤه""، قال الله تعالى جده"، قال عز وجل"، قال جلَّ وعزَّ"قال تعالى"، قال سبحانه"، "قال الله تبارك وتعالى".

ت- يرى الشيخ عضيمة أن سيبويه لتواضعه لم يبدأ كتابه بخطة يتحدث فيها عن جهوده، ويتحدث عن حسن بلائه، وإنما بدأه بالبسملة، ثم دخل إلى الموضوع[1]، ولا شك أن التواضع هو سممة العلماء المخلصين.

هذه جملة من أبرز ما جاء في البحث، وهناك أشياء بارزة أخرى تراها منثورة فيه، وختامًا رحم الله سيبويه رحمة واسعة وأسكنه فسيح جنانه، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

---

(1) ينظر: فهارس كتاب سيبويه لعضيمة 11.



ثبت المصادر

1- أخبار النحويين البصريين. أبوسعيد الحسن بن عبدالله السيرافي:تحقيق د. محمد إبراهيم البنا، دار الاعتصام، ط (1) 1405هـ.

2- أدب الاملاء والاستملاء. عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي السمعاني المروزي: تحقيق ماكس فايسفايلر، دار الكتب العلمية، ط1، 1401هـ.

3- ارتشاف الضرب من لسان العرب. أبو حيان الأندلسي: تحقيق د. رجب عثمان، مكتبة الخانجي (القاهرة)، ط (1) 1418هـ.

4- أسرار العربية. أبوالبركات الأنباري:تحقيق محمد حسين شمس الدين،دار الكتب العلمية (بيروت)،ط (1) 1418هـ.

5- الأصول في النحو. أبوبكر محمد بن سهل بن السراج:تحقيق د. عبدالحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة، ط (3) 1408هـ.

6- أصول النحو العربي. د. محمود نحلة:دار العلوم العربية – بيروت، ط (1) 1407هـ - 1987م.

7- إعراب القرآن. أبوجعفر النحاس:تحقيق د. زهير غازي زاهد، عالم الكتب، ط (3) 1409هـ - 1988م

8- الأعلام. خيرالدين الزركلي:دار العلم للملايين (بيروت – لبنان) ط (8) 1989م.

9- الاقتراح (الإصباح في شرح الاقتراح) جلال الدين السيوطي:تحقيق د. محمود فجال، دار القلم (دمشق)،ط (1) 1409هـ

10- أمالي ابن الشجري. هبة الله بن علي الشجري:تحقيق د. محمود محمد الطناحي، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط (1) 1413هـ.

11- إنباه الرواة على أنباه الرواة. أبوالحسن القفطي:تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم، دار الفكر العربي (القاهرة)، مؤسسة الكتب الثقافية (بيروت) ط (1) 1406هـ

12- الانتصار لسيبويه على المبرد. أحمد بن محمد بن ولاد:تحقيق د. زهير عبدالمحسن سلطان، مؤسسة الرسالة، ط (1) 1416هـ.

13- البحر المحيط. أبوحيان الأندلسي:تحقيق صدقي جميل، دار الفكر،ط (1) 1420هـ.

14- الاستذكار. يوسف بن عبد الله بن عبد البر تحقيق: سالم محمد عطا، محمد علي معوض، دار الكتب العلمية – بيروت، ط1، 1421هـ.

15- بدائع الفوائد. ابن قيم الجوزية: ضبط نصه وخرج آياته أحمد عبدالسلام، دار الكتب العلمية، ط(1) 1414هـ.

16- البسيط في شرح جمل الزجاجي.ابن أبي الربيع عبيدالله بن أحمدالقرشي:تحقيق د. عياد الثبيتي،دار الغرب الإسلامي (بيروت)، ط (1) 1407هـ – 1986م.

17- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة. جلال الدين السيوطي:تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم، المكتبة العصرية)1419هـ.

18- البلغة في تراجم أئمة النحوواللغة. الفيروز آبادي: تحقيق د. محمد المصري، منشورات مركزالمخطوطات والتراث بجمعية إحياء التراث الإسلامي – الكويت، ط (1) 1407هـ.

19- تاريخ دمشق. اللإمام ابن عساكر، تحقيق عمرو العمروي، دار الفكر، 1415هـ.

20- تاريخ بغداد. الحافظ أبوبكر البغدادي:المكتبة السلفية (المدينة المنورة). ب_ دار الكتب العلمية (بيروت).

21- تحفة المحتاج في شرح المنهاج (حاشية الشرواني)، المكتبة التجارية بمصر، 1357ه.

22- تذكرة الحفاظ. الإمام الذهبي، دار الكتب العلمية، ط1، 1419هـ.

23- تهذيب الكمال. الحافظ المزي، تحقيق د. بشار معروف، مؤسسة الرسالة، 1400هـ.



24- التذييل والتكميل في شرح كتاب التسهيل. أبوحيان الأندلسي: تحقيق د. حسن هنداوي، ط (1)، من الجزء الأول حتى الخامس نشرته دار القلم بدمشق، والجزء السادس حتى الثالث عشر نشرته دار كنوز إشبيليا، في الرياض.

25- التصريح على التوضيح . خالد الأزهري:تحقيق محمد باسل، دار الكتب العلمية (بيروت)، ط (1)1421هـ.

26- تمهيد القواعد بشرح تسهيل الفوائد. محب الدين محمد بن يوسف المعروف بناظر الجيش، تحيق د.علي فاخر وزملائه، دار السلام، القاهرة، ط (1) 1428هـ-2007م.

27- تهذيب التهذيب. ابن حجر العسقلاني، دائرة المعارف، الهند، ط1، 1326هـ.

28- تهذيب اللغة. أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري:تحقيق عبدالسلام هارون، الدار المصرية، مطابع سجل العرب.

29- التوجيه النحوي لوجوه القراءات القرآنية المشكلة في كتاب سيبويه. د. سليمان خاطر، مكتبة الرشد الرياض، ط1، 1430هـ.

30- تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد. سليمان بن عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب، تحقيق زهير الشاويش، ط1، 1423هـ.

31- الثقات لابن حبان. محمد بن حبان، دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن الهند، ط1، 1393هـ.

32- الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع. الخطيب البغدادي، تحقيق محمود الطحان، مكتبة المعارف، الرياض.

33- الجنى الداني في حروف المعاني.الحسن المرادي:تحقيق د. فخر الدين قباوة ومحمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية، ط (1).

34- حاشية الجمل على شرح المنهج. سليمان بن عمرو المعروف بالجمل، دار الفكر.

35- حاشية الصبان على شرح الأشموني. محمد بن علي الصبان، دار الكتب العلمية، ط1، 1417هـ.

36- خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب. عبدالقادر البغدادي:تحقيق عبدالسلام هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط (4).

37- الدر المصون في علوم الكتاب المكنون. السمين الحلبي:تحقيق علي محمد معوض، دار الكتب العلمية (بيروت)، ط (1).

38- دراسات في كتاب سيبويه. د. خديجة الحديثي، وكالة المطبوعات، الكويت.

39- الذريعة إلى تصانيف الشيعة، لآغا بزرك الطهراني، الناشر: إسماعيليان، قم مكتبة إسلامية، طهران 1408هـ.

40- شرح التسهيل. محمد بن عبدالله بن مالك: تحقيق عبدالرحمن السيد ومحمد بدوي المختون،هجر للطباعة والنشر،ط (1).

41- شرح جمل الزجاجي. ابن خروف الإشبيلي: تحقيق د. سلوى محمد عرب، منشورات جامعة أم القرى، 1419هـ.

42- شرح كتاب سيبويه. أبو سعيد السيرافي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2008م.

43- شرح مشكل الوسيط. ابن الصلاح، تحقيق د. عبدالمنعم خليفة، دار كنوز اشبيليا، الرياض، ط1، 1432هـ.

44- شرح المفصل. ابن يعيش: عالم الكتب، بيروت.

45- طبقات النحويين واللغويين. أبوبكر محمد بن الحسن الزبيدي:تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر، ط (2).

46- طبقات المعتزلة، المرتضى أحمد بن يحيى، الناشر: جمعية المستشرقين الألمانية، 1380هـ، 1961م.

47- الغيث الغيث المسجم في شرح لامية العجم. صلاح الدين الصفدي: دار الكتب العلمية (بيروت)، ط (1) 1395هـ.



48- فهارس كتاب سيبويه. محمد عبدالخالق عضيمة، ط1، 1395هـ.

49- في أصول النحو. سعيد الأفغاني، دار المكتب الإسلامي، بيروت، 1407هـ.

50- فيض الباري على صحيح البخاري. أمالي محمد أنور شاه، تحقيق محمد بدر عالم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1426هـ.

51- كتاب سيبويه. عمروبن عثمان بن قنبر " سيبويه ":تحقيق عبدالسلام هارون،مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط (3) 1408هـ.

52- الكشاف. جارالله الزمخشري: تحقيق عبدالرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ الإسلامي (بيروت)، ط (1) 1417هـ- 1997م.

53- الكواكب الدرية على متممة الأجرومية. الشيخ محمد الأهدل، ط2، 1356هـ.

54- اللباب في علل البناء والإعراب. أبوالبقاء العكبري: تحقيق غازي مختار طليمات، دار الفكر المعاصر، بيروت.

55- لسان العرب. ابن منظور:دار صادر (بيروت).

56- المتواري على تراجم أبواب البخاري. أحمد بن محمد الاسكندراني، تحقيق صلاح الدين مقبول، مكتبة المعلا، الكويت.

57- مجالس العلماء. أبوالقاسم عبدالرحمن بن إسحاق الزجاجي: تحقيق عبدالسلام هارون، مكتبة الخانجي بمصر، ط (3) 1420هـ.

58- مجموع الفتاوى. شيخ الإسلام ابن تيمية: جمع وترتيب عبدالرحمن بن محمد بن قاسم وابنه محمد، مطابع دار العربية، بيروت ط (1) 1398هـ.

59- المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها. أبوالفتح ابن جني:تحقيق علي النجدي ناصف وزميليه، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية(القاهرة) 1386هـ.

60- المحصول في أصول الفقه. فخر الدين الرازي، تحقيق د. طه جابر، مؤسسة الرسالة، ط3، 1418هـ.

61- مراتب النحويين. أبوالطيب عبدالواحد بن علي اللغوي:تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم، دار الفكر العربي القاهرة.

62- مشكلات موطأ مالك. ابن السيد البطليوسي، تحقيق طه علي، دار ابن حزم، بيروت، ط1، 1420هـ.

63- معاني القرآن وإعرابه. أبوإسحاق الزجاج:تحقيق د. عبدالجليل عبده شلبي، عالم الكتب (بيروت)، ط (1).

64- معجم الأدباء. ياقوت الحموي:تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، ط1 1993م.

65- معنى لا إله إلا الله. بدر الدين الزركشي، تحقيق علي محيي الدين، دار الاعتصام، القاهرة، ط3، 1405هـ.

66- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب. ابن هشام،:تحقيق د.مازن المبارك،ومحمد علي حمدالله،دار الفكر، بيروت.

67- المفصل في علم العربية: جارالله الزمخشري: دار الجيل، بيروت.

المقاصد الشافية. في شرح الخلاصة الكافية. أبو إسحاق الشاطبي: تحقيق مجموعة من الأساتذة، منشورات جامعة أم القرى، ط (1) 1428هـ-2007م.

68-المقتضب. أبوالعباس المبرد:تحقيق د.محمد عبدالخالق عضيمة، لجنة إحياء التراث الإسلامي في مصر 1415هـ.

69- مناهج اللغويين في تقرير العقيدة. د. محمد الشيخ عليو محمد، دار المنهاج، الرياض، ط1، 1427هـ.

70- الملل والنحل، للشهرستاني، تحقيق: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت، 1404هـ.

71- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم. أبوالفرج ابن الجوزي: تحقيق محمد ومصطفى ابني عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية (بيروت).

72- مواهب الجليل في شرح مختصر خليل. الحطاب الرعيني المالكي، دار الفكر، ط3، 1412هـ.



73- النبوات. شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق عبدالعزيز الطويان، دار أضواء السلف، الرياض، ط1، 1420هـ.

74- نزهة الألباء في طبقات الأدباء. أبوالبركات الأنباري:تحقيق د. إبراهيم السامرائي، مكتبة المنار (الأردن)، ط (3) 1405هـ.

75- نهاية المحتاج في شرح المنهاج. شمس الدين الرملي، دار الفكر، بيروت، 1404هـ.

76- همع الهوامع في شرح جمع الجوامع. جلال الدين السيوطي:تحقيق د. عبدالعال سالم مكرم، عالم الكتب، القاهرة.

77- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان. أحمد بن خلكان:تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر (بيروت).

ملامح التفسير في كتاب سيبويه

عادل فائز

أستاذ اللغويات العربية

كلية الآداب والعلوم الإنسانية أكادير

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، وعلى آله وصحابته أجمعين.

أما بعد:

فَلكتاب سيبويه في شرعة النحاة اعتبار مكين، ومقام أمين، برَّ به صاحبُه السابقين، وأزرى باللاحقين، لاجرم أن نُعت بقرآن النحو، ووسم بالبحر، استعظاما لأمره، واستصعابا لشأنه...

ومذ نهاية القرن الهجري الثاني وأقلام الجهابذة من النحاة تتأثفه، وتتبارى في فك مغلقه، وشرح عويصه، "فلا يحصى كم شارح له ومختصر، ومدافع عنه ومنتصر..."

ولئن كان هذا العِلْق التفيس قد أسس أصول الفكر اللغوي وأحكم قواعده، فإن نفاسته لا تقف عند هذا الحد، بل تتعداه إلى مجالات معرفية أخرى، كان لأبي بشر عليها كبير فضل لا يجحد، وعظيم معروف لا يقنَّع، من أبينها في ذا السياق علم التفسير.

فلئن كان كتاب سيبويه كتابا في النحو أصالة فإنه عُدَّ إرهاصا أوليا هيأ المناخ، وأنهج السبيل المعرفي إلى منحى في تفسير القرآن تفسيرا فنيا، يقوم على الدراية، في

مقابل ما كان سائدا من تفسير أثري قائم على الرواية، ومن ثم اهتبله الخالفون من النُّظار في آي الذكر الحكيم، سالكين نهجه، ومترسمين سبيله.

يقول إبرهيم رفيدة: "كتاب سيبويه أقدم مؤلف يحمل تحليلا فنيا للآيات، وأقدم نص نحوي يتوفر لدينا هو كتاب سيبويه، ومعلوم أن الكتاب كتاب نحو يتناول نص القرءان الكريم باعتباره الدليل الأول من أدلة النحو... ولكننا لا نعدم فيه تحليلا فنيا لمعاني بعض الآيات القرآنية، مما يعتبر مقدمة ومن المحاولات الأولى لنشأة التفسير الفني...مما يجعل لهذا السفر الضخم قيمة أكبر في توجيه العلماء نحو التفسير الفني، مع التفسير الأثري الذي كان هو السائد في عصر سيبويه، كما يجعل له فضلا أوسع على النحويين اللاحقين، لفتحه لهم باب النظر لغويا في كتاب الله عز وجل من حيث النحو والإعراب والمعاني والاحتجاج وهي الميادين التي توسع فيها النحويون بعده" (1)

فقد تجلت في الكتاب مجموعة من ملامح التفسير، أكد بها صاحبها ما بين النحو والنص القرآني من قوة الآصرة ومتين النسب.

يروم هذا المقال تبريز ملامح التفسير في الكتاب، وكيف استثمر اللاحقون تلك الملامح فأسسوا عليها كثيرا من الأنظار التفسيرية لأي الذكر الحكيم، تكشيفا، وفسرا، واستنباطا.

فتقصد البحث بُداءة حصر النصوص التي وردت فيها لفظة "المفسرين" في الكتاب، وما يرمز إليه ذلك الإيراد من مقاصد ومآلات، ومعان ودلالات، هي خليقة بالبحث والمفاتشة والتهمم.

---

(1) إبراهيم عبد الله رفيدة: النحو وكتب التفسير، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، ط.3. 1990. ج1 ص 176



ثم تقصد في خطوة ثانية تبيين مسألة لها وثيق الصلة بعلم التفسير، مضمنها: أن الشواهد القرآنية في الكتاب ليست إلا بؤرا تفسيرية بامتياز، تتقصد فيها الصناعةُ النحوية فهم معاني الآي، وإزاحة ما قد يعتري الذهن من إشكال في فسر دلالاته، وإغناء مفاداته، موردا من النماذج ما يتناسب مع المقام.

أما الخطوة الثالثة فرمت فيها إيراد مجموعة من ملامح التفسير في الكتاب، مقتصرا على ما يستوجبه المقام ويقتضيه.

أما الخطوة الأخيرة فألمعت فيها إلى أثر تلك الملامح في تفاسير الخالفين، كل ذلك ألمعت إليه في وجازة من القيل، تساوقا مع ما طلب في البحث من إقصار اللفظ وإطالة المعنى، وعدم الإغراق في النزع مع الإبعاد في المرمى.

ومن ثم جاء هذا المقال في مباحث أربعة

المبحث الأول: لفظة " المفسرين" في الكتاب، السياق والدلالة

المبحث الثاني: شواهد القرآن في الكتاب بؤر تفسيرية

المبحث الثالث: من ملامح التفسير في الكتاب

المبحث الرابع: نموذجان من تأثير "ملامح التفسير" في المدونات التفسيرية



المبحث الأول: لفظة "المفسرين" في الكتاب: السياق والدلالة

وردت لفظ "المفسرين" في الكتاب في مواضع أربعة[1]، فيما يلي تلك النصوص الأربع، أبين بادئ الأمر سياقها النحوي، ومبينا ثانيا ما تشير إليها تلك النصوص من ملاحظ وإشارات

النص الأول:

يقول سيبويه "وسألت الخليل رحمه الله تعالى عن قوله ﴿وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ﴾ وعن قوله تعالى جده ﴿وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ فزعم أنها "وي" مفصولة من كأن، والمعنى وقع على أن القوم انتبهوا فتكلموا على قدر علمهم، أو نُبِّهوا فقيل لهم: أما يشبه أن يكون هذا عندكم هكذا. والله تعالى أعلم وأما المفسرون فقالوا: ألم تر أن الله ".[2]

اختلف النحاة في كلمة (ويكأن) من جانبين: الجانب التأليفي، والجانب الدلالي، أما الجانب التأليفي فأشهر الأقوال فيها قول الخليل وسيبويه، وهو الذي نقله أبو بشر في هذا النص، وهو: أنها مركبة من كلمتي "وي" و"كأن"،[3] بمعنى: أن

(1) أشارت فهارس هارون (5/ 202) إلى ثلاثة منها، وفاته موضع هو 3/ 138. أما لفظ التفسير، فقد جاء في الكتاب في مواضع كثيرة، وبدلالات مختلفة، وأريد به البيان والتوضيح غالبا.

(2) سيبويه: الكتاب، تحقيق وشرح، عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط.4. 2004. ج 2 ص 154.

(3) ينظر: أبو حيان الأندلسي: البحر المحيط، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان. ج 7 ص 30. - أحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي: الدر المصون في علوم الكتاب المكنون:، تحقيق أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق ط. 2. 2003. ج 8 ص 697.- جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، وعيون الأقاويل، في وجوه التأويل: تحقيق وتعليق عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي معوض، مكتبة العبيكان، 1998. ج 4 ص 527.



المتكلم يقول: "ويْ"، ثم يبتدئ فيقول:"كأن الله"[1]. وقد استشهد سيبويه على هذا المذهب بمجموعة من الأبيات الشعرية[2].

أما الجانب الدلالي: فإن الخلاف فيه ينبني على الجانب التأليفي، فعلى قول الخليل يكون معنى "ويكأن" "والمعنى وقع على أن القوم انتبهوا فتكلموا على قدر علمهم، أو نبهوا فقيل لهم: أما يشبه أن يكون هذا عندكم هكذا"، ويوضح السيرافي هذا الكلام قائلا: "ويْ كلمة يقولها المتندم عند إظهار ندامته، ويقولها المندم لغيره، والمنبه له، ومعنى كأن الله يبسط الرزق، أي تنبه لبسط كلام الله الرزق"[3]

ولما عرض سيبويه هذا الخلاف الصناعي والدلالي في هذه الكلمة، أشار إلى قول المفسرين بقوله:" وأما المفسرون فقالوا: ألم تر أن الله ".[4] بمعنى أنهم حملوها على التقرير.

النص الثاني:

يقول سيبويه:" وسألت الخليل عن قوله جل ذكره: " وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربُّكم فاتقون "، فقال: إنَّما هو على حذف اللام، كأنه قال: ولأن هذه أمتكم أمةً واحدةً وأنا ربُّكم فاتقون.

وقال: ونظيرها: " لإيلاف قريشٍ " لأنه إنما هو: لذلك " فليعبدوا ".

---

(1) ينظر: مولاي مصطفى أبو حازم: شواهد القرآن في كتاب سيبويه وأثرها في كتب التفسير: أطروحة مرقونة. السنة الجامعية 2001 2002 ص 335.

(2) سيبويه: الكتاب، مصدر سابق ج 2 ص 155. وفي المسألة أقوال أخرى من أشهرها قول أبي الحسن الأخفش وقول قطرب ينظر في المسألة ينظر: أبو علي الفارسي، المسائل العضديات: تحقيق شيخ الراشد، منشورات وزارة الثقافة دمشق 1986.ص 59.

(3) نقل ابن الشجري في الجزء 2 ص183.هذا الكلام عن السيرافي، ولم أعثر عليه فيما طبع من شرح السيرافي، لأن هذه الأبواب مبتورة فيما طبع.

(4) سيبويه: الكتاب مصدر سابق ج2 ص 155.

فإن حذفت اللام من أن فهو نصبٌ، كما أنَّك لو حذفت اللام من لإيلاف كان نصبًا. هذا قول الخليل. ولو قرؤها: " وإن هذه أمتكم أمة واحدة " كان جيداً، وقد قرىء. ولو قلت: جئتك إنَّك تحب المعروف، مبتدأ كان جيداً.

وقال سبحانه وتعالى: " فدعا ربه أنِّي مغلوبٌ فانتصر ". وقال: " ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه أنَّي لكم نذير مبين "، إنما أراد بأنِّي مغلوبٌ، وبأنيِّ لكم نذيرٌ مبين، ولكنه حذف الباء. وقال أيضًا: " وأن المساجد لله فلا تدعوا مع اللَّه أحدا " بمنزلة: " وإن هذه أمتكم أمة واحدة "، والمعنى: ولأن هذه أمتكم فاتقون، ولأن المساجد لله فلا تدعوا مع اللَّه أحداً.

وأما المفِّسرون فقالوا: على أوحي"[1]، ذهب الخليل إلى أن الهمزة في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ﴾ [المومنون الآية 52]، فتحت مع أنها وقعت في ابتداء الكلام، لأنها على توهم إضمار اللام، وحذف اللام مع إن كثير الوقوع في كلام العرب، فكأنه قال: ولأن هذه أمتكم أمة واحدة[2].

وذكر سيبويه لحذف حرف الجر قبل (أن) شواهد أخرى: هي:

- قوله تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ﴾ [القمر:10]. إنما أراد: بأني مغلوب.

- وقوله: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ﴾ [هود:25]. أراد: بأني لكم نذير مبين، ولكنه حذف الباء.

---

(1) سيبويه: الكتاب مصدر سابق ج 3 ص 126 127.

(2) ينظر: أبو نصر هارون بن موسى المجريطي القرطبي: شرح عيون كتاب سيبويه، دراسة وتحقيق عبد ربه عبد الله عبد ربه، مطبعة حسان، ط. 1. 1984. ص 189.



- وقوله: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: 18]. المعنى: ولأن المساجد لله[1]

ولما عالج سيبويه همزة "إن" في الآية معالجة صناعية، أشار إلى مذهب المفسرين فقال:" وأما المفِّسرون فقالوا: على أوحي "[2]

النص الثالث:

يقول سيبويه: "وأمّا قوله عزّ وجل: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ فأنَّ جرم عملت فيها لأنَّها فعل، ومعناها: لقد حقَّ أنّ لهم النار[3]، ولقد استحق أن لهم النار، وقول المفسرين: معناها: حقّاً أنَّ لهم النار، يدلُّك أنَّها بمنزلة هذا الفعل إذا مُثِّلت، ف"جرم" بعدُ عملت في أنَّ عملها في قول الفزاريّ:

ولقد طَعَنت أبا عيينة طَعْنةً   جَرَمت فزارةَ بعدها أن يَغْضبوا

أي: أحقّت فزارة"[4].

ذهب سيبويه إلى أن لا جرم فعل، ومعناه: حقا، فقوله تعالى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ [النحل الآية 62]، معناه: حقا أن لهم النار والهمزة بعدها مفتوحة[5].

---

(1) سيبويه: الكتاب. مصدر سابق ج 3 ص127. ونبه ابن عطية على أن (أنَّ) عند سيبويه في موضع خفض. وهي عند الخليل في موضع نصب لما زال الخافض. وقال: "وقد عكس هذا الذي نسبت إليهما بعض الناس ". ابن عطية الأندلسي: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز،، تحقيق: الرحالة الفاروق، عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، السيد عبد العال السيد إبراهيم، محمد الشافعي الصادق العناني، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، ط.2. 2007. ج 11 ص 237.

(2) سيبويه: الكتاب. مصدر سابق ج 3 ص 126 127.

(3) ينظر: أبو حيان الأندلسي: التذييل والتكميل في شرح كتاب التسهيل، تحقيق حسن هنداوي، دار القلم، دمشق، د.ت. ج 5 ص 90.

(4) سيبويه: الكتاب، مصدر سابق ج 3 ص138.

(5) هناك من ذهب إلى جواز الكسر في همزة إن بعد "لاجرم"، وقد قرئ في الشواذ بالكسر، يقول أبو حيان:" وقرأ الحسن وعيسى بن عمر إن لهم بكسر الهمزة" أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، مصدر سابق، ج 5 ص490.

النص الرابع:

يقول سيبويه " إذا كان اسم الأرض على ثلاثة أحرف خفيفة وكان مؤنثا، أو كان الغالب عليه المؤنث كعمان، فهو بمنزلة: قدر، وشمس، ودعد. وبلغنا عن بعض المفسرين أن قوله عز وجل: ﴿ٱهۡبِطُواْ مِصۡرًا﴾ إنما أراد مصر بعينها"[1].

أورد سيبويه هذا النص في باب " هذا باب أسماء الأرضين" فبين أن اسم الأرض إذا كان ساكن الوسط مؤنثا أو غلب عليه التأنيث فإنه ينصرف، ثم حكى رأي بعض المفسرين أن "مصر" في قوله تعالى "اهبطوا مصر" (بمنعها من الصرف) لأنه أراد بها مصرا بعينها، فتمنع حينئذ للعلمية والتأنيث، يقول الواحدي:" وقوله تعالى: ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ﴾ [البقرة: 61] أي: انزلوا مصرا من الأمصار، فإن الذي سألتم لا يكون إلا فِي القرى والأمصار، وفي الكلام إضمار كأنه قيل: فدعا موسى فاستجبنا له وقلنا لهم: اهبطوا مصرا، ويجوز أن يكون أراد: مصر بعينها، وصرفها لخفتها وقلة حروفها، مثل: جمل، ودعد، وهند"[2].

تلك نصوص أربعة وردت فيها لفظ المفسرين في الكتاب، وبعد إيرادها وبيان السياق النحوي الذي وردت فيه تتبدى لي حول استعمال هذه الكلمة في الكتاب الملحوظات الآتية:

1 - تفريق سيبويه بين عمل النحويين وعمل المفسرين:

كان سيبويه مدركا غاية الإدراك أن جهوده في مقاربة الآيات، لا تصب إلا في شعبة واحدة من المعرفة التي يستغرقها علم التفسير، أو هو على الأقل، كان حاضر

(1) سيبويه: الكتاب، مصدر سابق، ج 3 ص242.

(2) أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (المتوفى: 468هـ): الوسيط في تفسير القرآن المجيد، تحقيق وتعليق: ا عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد معوض، أحمد محمد صيرة، أحمد عبد الغني الجمل، عبد الرحمن عويس،دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان ط. 1، 1994. ج1 ص 147.

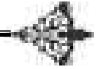


الانتباه إلى أن المعرفة اللغوية النحوية ركن أساس لتعاطي التفسير، من غير أن تتزاحم هذه المعرفة أو تحل محل الممارسة التأويلية التي هي من محض عمل المفسر، فبينهما حدود وفروق. فلم يرتب صاحب الكتاب عمله في الآيات على أنه من قبيل تفسير القرآن، بمعناه الشامل المتداول عند أهل الاختصاص في هذا العلم، ذلك أن معالجته للآيات معالجة آلية صناعية تمتح من قواعد النحو ومقولاته، بينما عمل المفسر لا يعنى بتلك الحدود والرسوم، خاصة إذا استحضرنا أن التفسير السائد في عصر سيبويه وما قبله إنما هو التفسير بالمأثور، ومن ثم شرع سيبويه بابا آخر في التفسير كما سيأتي وهو التفسير الفني أو التفسير اللغوي، ومن ثم فكلما عالج ما تفتر عنه قواعد النحو من معاني الآيات، أشار إلى قول المفسرين، وكأنه يقابل بين عمل النحويين وعمل اللغويين، وهذا مضمن الملاحظة الثانية.

2- تبين النصوص السالفة أن لفظة "المفسرين" وردت في مقابل صناعة النحويين، وذلك ما فتئ يؤكد أن سيبويه يفرق بين منهجين في تناول الآيات القرآنية: منهج المفسرين القائم على الرواية، ومنهج النحويين القائم على الدراية.

3 - أما الملاحظة الأخيرة فهي أن القول في التفسير يتوقف على التمهر في علم النحو، إذ ليس ممكنا النفاذ إلى معاني الآي، وإزاحة ما قد يعلق بها من إشكال، إلا بالتوسل بقواعد النحو وآلياته، ولا غرابة، فالقرءان في تراكيبه انتهج نهج كلام العرب وسننهم في الكلام، وقد لهج سيبويه بهذا في كثير من نصوص الكتاب، من ذلك قوله: " لكن العباد إنما كلموا بكلامهم، وجاء القرآن على لغتهم، وعلى ما يعنون "[1].وقوله: " إنما أجري هذا على كلام العباد وبه أنزل القرآن "[2].

(1) سيبويه: الكتاب، مصدر سابق، ج 3 ص332.
(2) المصدر السابق.



وقوله:"جاء هذا الكلام على كلام العرب قد علم تبارك وتعالى ذلك من قولهم، ولكن هذا على كلام العرب "[1].

ولئن كان سيبويه كما سلف مدركا للعلاقة بين النحو والتفسير وفرق بين المنهجين، فإن شواهد القرآنية في الكتاب تؤكد ذاك المعنى وتجليه، فليست شواهده القرآنية إلا بؤرا تفسيرية تتولى فيها قواعد النحو مهمة إبراز المعنى وتجليته، وإزاحة ما قد يعتري الذهن في فهمه من غموض وإبهام، وهذا ما سيوضحه المبحث الثاني من ذا المقال فإليه.

المبحث الثاني: الشواهد القرآنية في الكتاب بؤر تفسيرية

اهتبلت بحوث عديدة دراسة الشاهد القرآني في كتاب سيبويه عدا وتصنيفا وفهرسة[2]، وليس التّهمم في هذا المقام بدراسة الشواهد القرآنية في الكتاب من تلك الزوايا، فالبحث فيها لا بعدو أن يكون من باب القول المكرور المعاد، وإنما المأم الإلماع إلى قضية أراها من الأهمية بمكان، وهي أن تلك الشواهد القرآنية هي بؤر تفسيرية، ذلك أن سيبويه لا يسوق آية إلا إذا كان هناك إشكال لغوي اعترى فهم تلك الآية، وحال حاجزا دون كشف معناها وفسر دلالاتها، وقد اهتبل المفسرون تلك الإشكالات اللغوية التي أوردها سيبويه حول تلك الآيات فلم يزالوا يثيرون ما أثاره حولها من الإشكالات، وفاقا أو خلافا.

---

(1) سيبويه: الكتاب، مصدر سابق ج 3 ص172.

(2) من بين من تناول الشاهد القرآني في الكتاب: إبراهيم عبادة في كتابه: الشواهد القرآنية في كتاب سيبويه، مكتبة كلية العلوم القاهرة، وإبراهيم رفيدة في كتابه: النحو وكتب التفسير، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، ط.3. 1990. ويبقى بحث الدكتور مولاي مصطفى أبو حازم "شواهد القرآن في كتاب سيبويه" أطروحة مرقونة بكلية الآداب جامعة القاضي عياض. السنة الجامعية 2001 2002 من أهم ما كتب في الموضوع فقد تناول فيه القضايا المتعلقة بالشواهد القرآنية في الكتاب: من العد والدراسة والتأثير



وسأكتفي في هذه العجالة بسوق خمسة نماذج تكون عيارا على غيرها، ونموذجا لما عداها، وقد حرصت على أن تكون تلك النماذج مما سأل فيه سيبويه شيخه الخليل، ذلك أن أبابشر لم يكن ليسأل وهو الفطن الألمعي لولا إشكال دقيق اعترى الذهن في فهم تلك الآية، إذ ليس يصح عند أمثاله الاستفهام، إلا إذا صح الاستبهام. خاصة وأن المسؤول عبقري البصرة الخليل بن أحمد الفراهيدي، وليس يخفى أن تلك الاستشكالات هي التي جعلت من تلك الشواهد بؤرا تفسيرية بامتياز.

وقد بذلت قصارى الجهد في أن أبين السياق النحوي لتلك الإشكالات، وكيف أزاحها الخليل حتى غدا معنى الآية سافرا للعيان، وما بعد العيان من بيان، وقد اقتصرت على أربع منها، فإليها:

النموذج الأول:

قال تعالى ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ إِنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام الآية 109]

تفتح همزة إنَّ إنْ سد المصدر مسدها،[1] وتكسر فيما عدا ذلك، ويصح الوجهان إن صح الاعتباران،[2] وقد أوفى سيبويه الحديث عن ذلك في باب "إن وأن"[3] فالقاعدة تقتضي إذن كسر الهمزة في قوله تعالى ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ إِنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ إذ ليس فيها مقتض من مقتضيات الكسر، وهي على مثال قول العرب "ما يدرك أنه لا يفعل" فلمَ فتحت الهمزة في "ما يدريك أنه لا يفعل" وكسرت في "وما يشعركم أنها إذا جاءت"؟ مع أن التعبيرين متشابهين؟ هذا الاستشكال انتزع السؤال

(1) ابن هشام الأنصاري: أوضح المسالك، تحقيق وشرح بركات يوسف هبود، دار الفكر، 2000. ج 1، ص 320.

(2) ينظر: أبو حيان النحوي: منهج السالك في الكلام على ألفية بن مالك، أضواء السلف 1947. ص 74 75.

(3) سيبويه: الكتاب، مصدر سابق ج 3 ص119.

من سيبويه، واستحق الجواب من الخليل، يقول سيبويه: "وسألته عن قوله عز وجل ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ إِنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام الآية 109] ما منعها أن تكون كقولك ما يدريك أنه لا يفعل؟ فقال: لا يحسن ذا في ذا الموضع، إنما قال: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ ثم ابتدأ فأوجب فقال: ﴿إِنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ولو قال:" ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ كان ذلك عذرا لهم"[1].

استشكل سيبويه عدم التسوية في الحكم بين الآية وبين قول العرب، ما يدريك أنه لا يفعل، مع أن الظاهر أن لا فرق بينهما، فبين الخليل أن بين التركيبين تغاير، وإن كان ظاهرهما التشابه، أسوق ذا التبيين في نقطتين:

أ – قول الخليل: لا يحسن ذا في الموضع إنما قال وما يشعركم ثم ابتدأ فأوجب فقال: إنها إذا جاءت لا يمنون.

وجه التغاير هنا أن الهمزة فتحت في كلام العرب، لأن الكلام متعلق بما بعده، فلم يتم عند قولهم: "ما يدريك" بل هو متعلق بقوله: "أنه لا يفعل"، لأنه علة له، أما الكلام في الآية، فتم عند قوله: "وما يشعركم"، ثم استأنف[2] بإِنَّ، فقال: إنها إذا جاءت لا يمنون، فإِنَّ واقعة في ابتداء الكلام، فتوفر فيها شرط الكسر وهو الابتداء، ومعمول يشعركم محذوف، والمعنى وما يشعركم إيمانهم إنها إذا جاءت لا يمنونط

ب – ولو قال وما يشعركم أنها... كان ذلك عذرا لهم" بين الخليل العلة في عدم جواز الفتح، إذ لو فتحت لأفادت العذر للمشركين في عدم الإيمان، فإن قيل كيف يفيد الفتح العذر لهم؟

---

(1) ا سيبويه: الكتاب، مصدر سابق ج 3 ص153

(2) السمين الحلبي: الدر المصون مصدر سابق ج 5 ص101.



يجيب أبو علي الفارسي عن هذا السؤال قائلا: "لو قال لك قائل في رجل يقرأ شيئا إنه لا يفهم ما يقرأ، فقلت: ما يدريك أنه لا يفهم، كان ذلك عذرا للقارئ، أي أنه يفهم، وكذلك قوله تعالى وما يشعركم أنها، مفتوحا لكان التقدير: ما يدريكم أنهم لا يؤمنون إذا جاءت، أي لو جاءت لآمنوا"[(1)]

جواب الخليل اقتدح سؤالا آخر في ذهن سيبويه، فالفتح الذي عده الخليل مفيدا العذر للمشركين، قرئ به،[(2)] فما توجيه تلك القراءة ياترى؟

يقول سيبويه في جملة خبرية مضمنها استفهام: "وأهل المدينة يقولون أنها"،[(3)] - وكأن أبا بشر يعترض على شيخه؟

فكشف الخليل محيا ذا الوجه قائلا:"هي بمنزلة قول العرب ائت السوق أنك تشتري لنا شيئا، أي لعلك، فكأنه قال:" لعلها إذا جاءت لا يومنون"[(4)].

فأوضح الخليل أن معنى "أنَّ" في قراءة الفتح "لعل"، فيكون المعنى: وما يشعركم لعلها إذا جاءت لا يمنون، ومجيئ "أن" بمعنى لعل كثير في كلام العرب، من ذلك قول الشاعر:

قلت لشيبان ادن من لقائه   أنا نغذي القوم من شوائه[(5)]

---

(1) أبو علي الحسن بن أحمد الفارسي، التعليقة على كتاب سيبويه، تحقيق وتعليق عوض بن حمد القوزي، جامعة الملك سعود، ط. 1. 1996. ج 2 ص235.

(2) قرأ نافع وعاصم في رواية حفص وحمزة والكسائي همزة إن بالفتح، ينظر: ابن مجاهد، السبعة في القراءات: تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف، مصر.د.ت.ص 265، 1492.

(3) سيبويه: الكتاب، مصدر سابق ج 3 ص123.

(4) سيبويه: الكتاب، مصدر سابق ج 3 ص 123.

(5) أبو العباس أحمد بن عمار المهدوي. شرح الهداية في توجيه القراءات، تحقيق ودراسة حازم سعيد حيدر. مكتبة الرياض. ط: 1. 1995. ج2 ص 287.

فالخليل في ذا المثال فسر الآية تفسيرا نحويا، وأتبع المعنى للإعراب، فكل حركة إعرابية تفيد معنى معينا، ففتح الهمزة يفيد معنى، بينما كسرها يفيد معنى آخر، ومن ثم فهي بؤرة تفسيرية بامتياز استحقت السؤال من سيبويه والجواب من الخليل.

النموذج الثاني:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ [الحج الآية 63]، تدور الفاء في اللغة العربية على معنيين اثنين[1]:

1 – أن تكون عاطفة، وتفيد مع العطف السببية والترتيب والتعقيب،[2] وتشرك المعطوف مع المعطوف عليه في الإعراب والحكم.

2 – أن تكون جوابية،[3] قد يجاب بها الشرط، وقد يجاب بها نفي محض، أو طلب محض،[4] والطلب يشمل الأمر، والنهي، والدعاء، والاستفهام، والعرض، والتحضيض، والتمني، وتسمى هذه الفاء: فاء السببية، والمضارع بعدها منصوب بأن مضمرة بعدها.

وإنما سميت هذه الفاء بالسببية؛ لأن ما قبلها يكون سببا فيما بعدها من الفعل وشرطا فيه.[5]

---

(1) هناك من النحويين من أضاف معنى ثالثا: وهو كونها زائدة، وهذا الوجه لم يثبته سيبويه، وأجازه الأخفش، والجرمي، والفراء،

(2) ينظر: ابن هشام الأنصاري: مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، 2006. ج 1 ص 183 188.

(3) الحسين بن قاسم المرادي: الجنى الداني في حروف المعاني:،تحقيق فخر الدين قباوة ومحمد نادم فاضل، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، ط. 1. 1992. ص 61-72

(4) ينظر: ابن يعيش: شرح المفصل، إدارة الطباعة المنيرية. ج 8 ص94.

(5) أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي: المقاصد الشافية في شرح الخلاصة الكافية، تحقيق جماعة من المحققين، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي، جامعة أم القرى،مكة المكرمة، ط: 1. 2007. ج 6 ص 46.



سؤال سيبويه لشيخه الخليل متعلق بالفاء، لكن ليس من جهة هذه الأحكام التفصيلية، فقد بين سيبويه هذه الأحكام في الباب الذي عقده للفاء[1]، لكن سؤاله منصب على الفاء في تركيب قرآني، ظاهره مخالف لما قرر سيبويه من الأحكام في هذا الباب، مما يجعل من الشاهد بؤرة من البؤر التفسيرية في الكتاب.

يقول سيبويه:" وسألته عن قوله عز وجل ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾

فالفاء واقعة في جواب استفهام، والفاء الواقعة في جواب الاستفهام ينتصب الفعل بعدها،[2] فما باله قد رفع في هذه الآية؟

يجيب الخليل عن هذا الإشكال قائلا: "فقال: هذا واجب وهو تنبيه، كأنك قلت أتسمع أن الله أنزل من السماء ماء فكان كذا وكذا، وإنما خالف الواجب النفي لأنك تنقض النفي إذا نصبت وتغير المعنى"[3].

المراد بالواجب عند الخليل وسيبويه: الواقع الذي تم وحصل، وغير الواجب غير الواقع. [4]، فالمضارع ينتصب بعد الفاء حينما يكون الاستفهام على حقيقته، أما في هذه الآية فليس الاستفهام على حقيقته، بل المراد به: التنبيه على قدرة الله والتقرير بها،[5] أي تنبه أنزل الله من السماء ماء فاخضرت الأرض،[6] فالفعل

(1) سيبويه:الكتاب مصدر سابق ج 3 ص28.
(2) يقول سيبويه:" وتقول ألم تأتنا فتحدثنا، إذا لم يكن على الأول، يعني إذا لم يعطفه على المجزوم"3 ج ص 34
(3) سيبويه:الكتاب مصدر سابق ج 3 ص40.
(4) مولاي مصطفى أبو حازم: شواهد القرآن في كتاب سيبويه مصدر سابق ص 312.
(5) هبة الله بن علي بن محمد بن حمزة الحسني العلوي: أمالي ابن الشجري، تحقيق ودراسة: محمود محمد الطناحي، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط.2. 2006.ج2 ص 158.
(6) ينظر: أبو حيان الأندلسي: البحر المحيط مصدر سابق ج 6 ص355-356.

المرفوع "فتصبح" ليس بداخل في الكلام الذي قبله، ولا متصل به،[1] وهو معنى قول الخليل "وهو تنبيه"، ولأنه لو نصب الفعل، لاقتضى أن ما قبل الفعل سبب لما بعده، وإذا انتفى ما قبل الفعل، انتفى ما بعده ضرورة، -كما قرر سيبويه في هذا الباب - فانتفت عدم رؤية إنزال المطر، لينتفي معها اخضرار الأرض، وهو عكس المعنى المراد من الآية.

وقد نقل ابن الريان الاستشكال كما رفعه سيبويه إلى الخليل وأوضحه فقال: "ألم تر أن الله انزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة، كان الوجه في فتصبح: النصب جوابا للاستفهام فما باله جاء مرفوعا؟

لو نصب لأعطى عكس المعنى، لأن معناه إثبات الاخضرار، فينقلب بالنصب إلى نفيه، كما تقول لصاحبك ألم ترني أنعمت عليك فتشكر؟ إن نصبت فأنت ناف للشكر، وإن رفعت فأنت مثبت للشكر"[2].

ويوضح أبو العباس هذا الأمر بمزيد من التوضيح قائلا: "وأما قول الله عز وجل ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ فهذا هو الوجه، لأنه ليس بجواب، لأن المعنى في قوله "ألم تر" إنما هو: انتبه، وانظر أنزل الله من السماء فكان كذا وكذا، وليس كقولك ألم تأت زيدا فيكرمك، لأن الإكرام يقع بالإتيان، وليس اخضرار الأرض واقعا من أجل رؤيتك"[3].

---

(1) أبو سعيد السيرافي: شرح كتاب سيبويه، تحقيق جماعة من المحققين، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ج 10 ص40.

(2) الشيخ شرف الدين الحسين بن سليمان بن ريان: الروض الريان في أسئلة القران: تحقيق عبد الحليم بن محمد نصار السلفي، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة. ط:1. 1994.ج 1 ص271.

(3) أبو العباس محمد بن يزيد المبرد: المقتضب، تحقيق: محمد عبد الخالق عضيمة، القاهرة، 1994. ج2 ص 19.



وقد تنبه الهمذاني إلى أن في المسألة بعض غموض فحاول إزالته قائلا:"... ولفظه الاستفهام، ومعناه الخبر، أي قد علمت أو رأيت، لهذا رفع الفعل بعده، وهو "فتصبح"، ولم ينصب على الجواب لما ذكر آنفا... وأيضا فإن الرفع يدل على إثبات الاخضرار، وهو الغرض، ولو نصب لانقلب إلى نفي الاخضرار، ألا ترى أن القائل إذا قال: ألم ترني أنعمت عليك فتشكر، إن رفع كان مثبتا للشكر، وإن نصب كان نافيا له، فاعرفه فإن فيه أدنى غموض"[1].

فالخليل بن أحمد في هذه المسألة يفسر معنى آية قرآنية انطلاقا من قاعدة نحوية، ويوضح دور حركة إعرابية في فسر المعنى وتوضيحه، فاتضح أن حركة الفعل المضارع من الرفع إلى النصب قد يقلب المعنى رأسا على عقب، وينتقل معه المعنى من الإثبات إلى النفي، فمعنى الآية مرتبط بنوع الحركة، ولا ريب أن فهم معنى الآية هو متقصد علم التفسير ومأمه.

النموذج الثالث:

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ﴾ [الشورى الآية 51].

الأصل في "أو" العطف حيث كانت،[2] وتفيد مع العطف معاني تستفاد من سياق الكلام[3]. إلا أن معنيين من تلك المعاني، يقتضيان نصب الفعل المضارع بعد "أو" بأن مضمرة وجوبا[4] وهما:

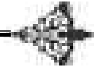
---

(1) المنتجب حسين بن أبي العز الهمذاني: الفريد في إعراب القرآن المجيد، تحقيق محمد حسن النمر، دار الثقافة، ط. 1. 1991 ج 2 ص547.

(2) أبو سعيد السيرافي: شرح كتاب سيبويه مصدر سابق ج 10 ص51

(3) ينظر: ابن هشام الأنصاري: مغني اللبيب مصدر سابق ج 1 ص74- 80.

(4) أبو إسحاق الشاطبي: المقاصد الشافية مصدر سابق ج 6 ص33.



1- أن يصح وقوع "حتى" الغائية أو التعليلية محلها، من غير أن يتغير المعنى، نحو الزم زيدا أو يعطيك، أي حتى يعطيك، ولأرضين الله أو يغفر لي، أي كي يغفر لي[(1)].

2 - أن تكون بمعنى "إلا" الاستثنائية، وذلك حين يخالف ما قبلها ما بعدها في الحكم، فإن لم تكن "أو" بمعنى حتى، ولا بمعنى إلا، كانت لمجرد العطف فقط، ولا ينصب المضارع بعدها إلا إن كان معطوفا على منصوب.

وفي كلا الوجهين تفيد أو العطف، وهذا منشأ الاستشكال في هذه الآية؛ أين هو المعطوف عليه؟ أو هو قوله: "أن يكلمه"، فيحور المعنى إلى ضده، أو أنه غير معطوف على "أن يكلم" فما هو وجه نصبه؟

هذا الاستشكال بمثابة معادل بياني لقول سيبويه: "وسألت الخليل عن قوله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ [الشورى الآية 51] "[(2)]، فأزاح الخليل الإشكال، وبين وجه المسألة فقال: "فزعم أن النصب محمول على أن سوى هذه التي قبلها، ولو كانت هذه الكلمة على أن هذه، لم يكن للكلام وجه، ولكنه لما قال: إلا وحيا أو من وراء حجاب، كان في معنى إلا أن يوحي أو يرسل، لأنه لو قال: إلا وحيا وإلا أن يرسل كان حسنا، وكان "أن يرسل" بمنزلة الإرسال، فحملوه على أن، إذ لم يجز أن يقولوا أو إلا أن يرسل، فكأنه قال: إلا وحيا وأن يرسل"[(3)].

ليست قراءة الرفع محل السؤال وإنما قراءة النصب، لأنه إذا كان المعطوف عليه: "أن يكلم" فسينقلب المعنى إلى ضده، أي ما كان لبشر أن يرسل إليه رسولا وهو

---

(1) رضى الدين محمد بن الحسن الإسترباذي: شرح الرضي على الكافية، تحقيق يوسف حسن عمر، منشورات جامعة قان يونس، بنغازي، ط.2. 1996.ج 2 ص120.
(2) سيبويه: الكتاب مصدر سابق ج 3 ص49.
(3) نفسه 49.



فاسد،[1] وهو معنى قول الخليل " لم يكن للكلام وجه" أي أن المعنى سيكون فاسدا.

لكن المعطوف عليه هو الفعل المؤول بالمصدر في قوله: "إلا وحيا" فيكون المعنى:" وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا أن يوحي أو يرسل".

ويوضح السيرافي الاستشكال وجواب الخليل عنه قائلا: "فقوله "يرسل" لا يجوز أن يكون معطوفا على يكلمه الله، ولا يكون الناصب له أنْ هذه الظاهرة، لأنا إذا أوقعنا أنْ هذه الظاهرة على يرسل، صار التقدير: ما كان لبشر أن يرسل الله إليه رسولا، وهذا فاسد في المعنى، ولكنه محمول على ما بعد إلا، وتقديره: ما كان لبشر أن يكلمه الله إلا أن يوحي إليه، أو يرسل إليه، وهو عطف مصدر على مصدر"[2].

وعلى منوال الخليل صار النحاة والمفسرون في تأويل هذه الآية، لا يحيدون عن سبيله، ولا يتنكبون تفسيره، يقول أبو العباس:"فأما قوله عز وجل: وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وارء حجاب أو يرسل رسولا فإن النحويين يزعمون أن الكلام ليس محمولا على أن يكلمه الله، ولو كان يرسل محمولا على ذلك لبطل المعنى لأنه كان يكون: ما كان لبشر أن يكلمه الله أو يرسل، أي ما كان لبشر أ ن يرسل الله إليه رسولا فهذا لا يكون"[3].

فالخليل يفسر معنى الآية انطلاقا من النظر النحوي، فقواعد النحو هي التي تفك لنا في كثير من الآحايين مغاليق الآيات القرآنية، وتزيح الإشكال الذي قد يعتري الفهم في إدراك مرادها، وهذا يوضح التلاحم القائم بين النحو وبين القرءان من

(1) أبو علي الفارسي: الحجة للقراء السبعة، تحقيق: بدر الدين قهوجي و بشير جويجاتي، دار المأمون للتراث، ط.1. 1984.ج 6 ص133.

(2) أبو سعيد السيرافي: شرح كتاب سيبويه مصدر سابق ج 10 ص53.

(3) أبو العباس المبرد: المقتضب مصدر سابق ج 2 ص33-34. أبو البقاء العكبري: التبيان في إعراب القرءان، تحقيق علي محمد البجاوي، عيسى البابي الحلبي، د.ت..ج 2 ص1136.

جهة، ويوضح من جهة أخرى أن الشواهد القرآنية في الكتاب إنما هي بؤر تفسيرية لمعاني أي الذكر الحكيم.

النموذج الرابع:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ [الزمر الآية 73] ﴿وَلَوۡ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذۡ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ﴾ [البقرة الآية 165] ﴿ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ [الأنعام الآية:28]، كل شرط لا بد له من جواب، سواء أكانت الأداة جازمة، أو غير جازمة، ذلك أن المعنى لا يتم إلا به.

لكن ورد في القرءان ما ظاهره عدم ذكر الجواب، مما جعل سيبويه يستفسر عن ذلك شيخه الخليل قائلا: "وسألت الخليل عن قوله جل ذكره: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ أين جوابها؟، وعن قوله جل وعلا: ﴿وَلَوۡ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذۡ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ﴾ ﴿ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾"[1]

وقع استفسار سيبويه عن ثلاث آيات:

* الآية الأولى: قوله تعالى ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ أداة الشرط في هذه الآية هي إذا.

* الآيتان الأخريان: هما قوله تعالى ﴿وَلَوۡ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذۡ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ﴾، ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ والأداة في هاتين الآيتين: لو، ولو لها خمس معان،[2] من بينها كونها شرطية تقتضي شرطا وجوابا، وهو الوارد في هاتين الآيتين.

والجامع بين هذه الآيات هي كون جوابها غير مذكور، وذلك مبعث السؤال عند سيبويه، وقد أفصح عنه بوضوح حينما قال: "أين جوابها"؟

(1) سيبويه: الكتاب مصدر سابق ج 3 ص103.
(2) أحمد بن عبد النور المالقي: رصف المباني في شرح حروف المعاني: تحقيق أحمد محمد الخراط، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق. د.ت. ص 289.



فأجاب الخليل: "فقال إن العرب قد تترك في مثل هذا الخبر [الجواب] في كلامهم لعلم المخبر لأي شيء وضع هذا الكلام"(1)، رسم الخليل بذا الجواب مذهب البصريين في هذه المثل ونحوها، وهو: أن جوابها محذوف،(2) يدل عليه السياق، فتقدير الكلام في الآية الأولى "حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها كذا وكذا صُدقوا وعدهم، وطابت نفوسهم، ونحو ذلك مما يقال في مثل هذا"(3)، وحذف الجواب إذا دل عليه دليل كثير ومنه قول الشاعر:

فلما أجزنا ساحة الحي وانتحى   بنا بطن خبت ذي حقاف عقنقل

أما الفائدة من الحذف في ذي الآي فيقول فيها ابن سنان: "وفي هذا الحذف في الكلام مع الدلالة على المراد فائدة، لأن النفس تذهب فيه كل مذهب، ولو ورد ظاهرا في الكلام لاقتصر به على البيان الذي تضمنه، فكان حذف الجواب أبلغ لهذه العلة"(4).

أما مذهب الكوفيين والأخفش(5) فهو: أن الواو زائدة، والجواب هو "فتحت"، ودليلهم: أن زيادة الواو كثير الورود في كلام العرب، وفي القرآن الكريم(6)، فمن القرءان قوله عز وجل: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ

---

(1) سيبويه: الكتاب مصدر سابق ج 3 ص103.

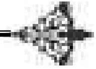
(2) االمنتجب الهمذاني: لفريد في إعراب القرءان المجيد مصدر سابق ج 4 ص202. أبو البقاء العكبري: اللباب في علل البناء والإعراب، تحقيق غازي مختار طليمات، دار الفكر، دمشق، ط.1. 1995.ص 420.

(3) أبو الفتح عثمان بن جني: الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، دار الكتب المصرية، 1952.ج 2 ص464.

(4) ابن سنان الخفاجي: سر الفصاحة مصدر سابق ص 210.

(5) نسب ابن الأنباري هذا القول للمبرد أيضا، والذي يظهر من كلام هذا الأخير في المقتضب أنه يذهب مذهب البصريين، يقول: "المعنى عندهم (أي الكوفيين) حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها... وزيادة الواو غير جائزة عند البصريين... ولا يجوز الحذف حتى يكون المحذوف معلوما بما يدل عليه من متقدم خبر أو مشاهدة حال" أبو العباس المبرد: المقتضب مصدر سابق ج 2 ص7879.

(6) ينظر: كمال الدين أبو البركات الأنباري: الإنصاف في مسائل الخلاف: تحقيق، محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، 1987.ج 1 ص407 408.



وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ﴾ [الأنبياء الآية 96 -97] فالجواب عندهم "اقترب"، والواو زائدة، وتقدير الكلام حتى إذا فتحت... اقترب[1].

وقد أجاب البصريون عن هذه الشواهد بكون الواو فيها أصلية، لأنه حرف وضع لمعنى، ولا يجوز الحكم بزيادته، ما أمكن أن يجرى على أصله،[2] وقد أمكن بتقدير الجواب محذوفا، والواو عاطفة على المحذوف.

وذهب جماعة من النحاة كالحريري وابن خالويه والثعلبي إلى تسمية هذه الواو واو الثمانية،[3] أي لما كانت أبواب جهنم سبعة لم تجئ فيها الواو، ولما كانت أبواب الجنة ثمانية جيئ بالواو للدلالة على كون الأبواب ثمانية، وهذا أضعف الأقوال، يقول صاحب الفصول المفيدة في رده:"وأعجب من ذلك أنهم قالوا في قوله تعالى ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ إنها واو الثمانية، لأن الجنة كلها ثمانية أبواب، وهو تخيل عجيب"[4].

وقد رجح ابن جرير رأي البصريين، وعده المناسب للمعنى، وإن كان رأي الكوفيين غير مدفوع عنده[5]، أما قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذۡ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ﴾ ﴿ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ فقد خط الخليل بذا الجواب القول الفصل في تفسيره، إذ تقفى المفسرون والنحاة مذهبه، فلم يقع خلاف في كون

---

(1) أبو زكرياء يحي بن زياد الفراء: معاني القرءان، تحقيق ج1 أحمد يوسف نجاتي ومحمد علي النجار، ج2 محمد علي النجار، ج3 عبد الفتاح إسماعيل شلبي، وعلي النجدي ناصف.دار السرور، بيروت لبنان،. ج2 ص 211.

(2) أبو الفتح عثمان ابن جني: سر صناعة الإعراب، دراسة وتحقيق حسن هنداوي، دار القلم، دمشق، ط.2. 1993. ص 646

(3) ابن هشام الأنصاري: مغني اللبيب ج 2 ص 418.

(4) صلاح الدين أبو سعيد خليل بن كيكلدي بن عبد الله الدمشقي العلائي: الفصول المفيدة في الواو المزيدة، تحقيق، حسن موسى الشاعر، دار البشير – عمان، ط. 1. 1990 ص 142

(5) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري: جامع البيان في تأويل القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان. 1992.ج 11 ص34.



الجواب في هذه الآي محذوف [1]، تقديره: ولو يرى الذي ظلموا العذاب لكان منهم ما لا يدخل تحت الوصف من الندم والحسرة، ووقوع العلم بظلمهم وضلالهم [2]، وفي الثانية: ولو ترى الذين ظلموا إذ وفقوا على النار، لرأيت أمرا شنيعا، وإنما حذف الجواب أيضا لتذهب نفس السامع كل مذهب، فيكون أدخل في التهويل [3].

فالخليل في جوابه عن استشكال سيبويه ينحو منحى تفسيريا؛ فقد استشكل سيبويه معنى الآية، لأن المعنى غير تام، والسبب في عدم تمامه، عدم ذكر جواب الشرط، فأوضح الخليل المعنى، بتقديره أن الجواب الذي شوش على المعنى محذوف، جريا على سنن العرب في حذف ما علم، ففسر الخليل معنى الآية انطلاقا من مقولة نحوية، وقد تقفى المفسرون والنظرة في كتاب الله عز وجل تفسيره، وجعلوه مفتاحا لفك مغاليق هذه المثل في القرءان، وهذا أمر ما فتئ يؤكد على المقصد من هذا المبحث وهو أن شواهد سيبويه القرآنية هي بؤر تفسيرية بامتياز، كما يؤكد من جهة أخرى على التلاحم المتين بين التفسير والنحو في كتاب سيبويه، بل لدى الرعيل الأول من النحاة.

ولئن استبان في ذا المبحث أن الشواهد القرآنية في الكتاب هي بؤر تفسيرية، وتم الاقتصار على نماذج محدودة منها نظرا لضيق المقام، فإن هناك مواطن أخرى في الكتاب شرع فيها سيبويه للمفسرين سبُلا،وذلل لهم فيها طرائق لمن سوف يتعاطى منهم فيما بعد صناعة التفسير، مما يمكن عده إرهاصا لظهور علم قائم بذاته وهو علم التفسير، أو ما سميته ب"ملامح التفسير في الكتاب"، وهو مأم المبحث الثالث فإليه.

---

(1) ينظر: أبو سعيد السيرافي: شرح كتاب سيبويه، مصدر سابق ج 3 ص311.
(2) الزمخشري: الكشاف، مصدر سابق ج 1 ص354.
(3) الألوسي: روح المعاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت. ج 7 ص 128.

المبحث الثالث: من ملامح التفسير في الكتاب

حاولت جهدي جمع تلك الملامح منقبا عن تجلياتها في الكتاب، فتجمع لي منها مادة غزيرة، أربت على أربعين ملمحا، وليس يخفى أن المقام لا يتسع لعرضها على الوجه المطلوب، فاقتصرت على ستة منها، مرجئا بقيتها إلى فرصة لاحقة، وقد أفسحت المجال للنصوص تعرب عن معاني الآيات كما أراد لها صاحب الكتاب أن تعرب عن ذلك، فلم أقحم عليها من أقوال المفسرين شرحا ولا تعليقا، كما حرصت في الاختيار أن تكون النصوص قصيرة واضحة، منفلتة من تمهرات الصناعة النحوية وحذق سيبويه فيها.

الملمح الأول: تفسير الإعراب وتفسير المعنى

الفرق بينهما أن تفسير الإعراب لابد فيه من ملاحظة الصناعة النحوية، وتفسير المعنى قد تلاحظ فيه الصناعة أو لا. لكن التفسيرين قد يتجاذبان الكلام الواحد، فيختلفان بأن يدعو الإعراب إلى تقدير، والمعنى يمنع منه، أو العكس[1]. نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ [الطارق: 9،8]، " فالظرف الذي هو (يوم) يقتضي المعنى أنه يتعلق بالمصدر، وهو (رجع)، أي أنه على رجعه في ذلك اليوم لقادر؛ لكن الإعراب يمنع منه لعدم جواز الفصل بين المصدر ومعموله"[2].

وينبه ابن جني إلى أن " هذا الموضع كثيرا ما يستهوي من يضعف نظره، إلى أن يقوده إلى إفساد الصنعة"[3].

---

(1) لمزيد من التفصيل ينظر: مولاي مصطفى أبو حازم: النحو والتفسير أصول نظرية ونماذج تطبيقية، منشورات المطبعة والوراقة الوطنية مراكش، 2015، ص 125 وما بعدها

(2) جلال الدين السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة 1967. ج2 ص 269.

(3) أبو الفتح عثمان بن جني: الخصائص مصدر سابق ج 1 ص279.



ثم إن أبا الفتح رسم السبيل إلى التحلل من الإشكال، فقال: " إن أمكنك أن يكون تقدير الإعراب على سمت تفسير المعنى فهو ما لا غاية وراءه، وإن كان تقدير الإعراب مخالفا لتفسير المعنى تقبلت تفسير المعنى على ما هو عليه وصححت طريق تقدير الإعراب حتى لا يشذ شيء منها عليك"[1].

وقد اهتم إمام الصناعة سيبويه بإيقاع تقديرات الإعراب على أصول المعاني التي تتطلبها الآيات، وترفق في التقريب بين طريق الإعراب وطريق المعنى، كما اجتهد في المؤاخاة بينهما في تحليل شواهده القرآنية.

والواقع أن الملاءمة بين تفسير المعنى وتفسير الإعراب، كانت أبرز ملامح التفسير في الكتاب، وهي قد غطت على سائر الملامح، واكتست لدى سيبويه طابع التقليد الذي اطرد لديه.

ولا غرو، فشواهد الكتاب القرآنية قد سيقت – كما أوضحت في المبحث الثاني – وهي محملة بإشكالات وأسئلة شتى؛ كان من متطلباتها فض حالات المنافرة بين المعنى والإعراب، وإرساء التآزر والانسجام بينهما.

ونظرا لاستفاضة هذا الملمح في الكتاب، وكثرة اقترانه بشواهد القرآن فيه، أكتفي في التمثيل له بنموذج واحد، امتدت آثاره قوية في كتب اللغة والتفسير. وذلك قول سيبويه:

" وأما قوله عز وجل: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٖ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾ فإن هذا لم يبن على الفعل، ولكنه جاء على مثل[2] قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ ثم قال بعد:

---

(1) نفسه ج 1 ص283-284.

(2) وجه التمثيل أنه صدر الكلام بقوله (مثل الجنة)، ولا يستقيم جزما أن يكون قوله (فيها أنهار) خبره، فتعين تقدير خبره محذوفا وأصله: فيما نقص عليكم مثل الجنة.

"فيها أنهار من ماء "، فيها كذا وكذا. فإنما وضع المثل للحديث الذي بعده، فذكر أخبارا وأحاديث، فكأنه قال: ومن القصص مثل الجنة، أو مما يقص عليكم مثل الجنة، فهو محمول على هذا الإضمار ونحوه. والله تعالى أعلم. وكذلك (الزانية والزاني) كأنه لما قال جل ثناؤه: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا﴾ قال: في الفرائض الزانية والزاني، أو الزانية والزاني في الفرائض. ثم قال: فاجلدوا، فجاء بالفعل بعد أن مضى فيهما الرفع"[1].

الملمح الثاني: اعتماد التفسير في التخريج النحوي وتوجيه القراءات

تحدث العكبري عن العناية الواجبة لعلوم القرآن فكان مما قال: " فأول مبدوء به من ذلك تلقف ألفاظه عن حفاظه، ثم تلقي معانية ممن يعانيه، وأقوم طريق يسلك في الوقوف على معناه، ويتوصل به إلى تبيين أغراضه ومغزاه، معرفة إعرابه، واشتقاق مقاصده من أنحاء خطابه، والنظر في وجوه القراءات، المنقولة عن الأئمة الأثبات "[2].

وقد كان متوقعا أن يساعف عمل سيبويه، في التخريج النحوي وتوجيه القراءات بملامح متميزة في تفسير القرآن. وألم سيبويه بذلك في محلات من الكتاب، منها:

أ – في التخريج النحوي: يقول سيبويه:

- " قال الله عز وجل: ﴿فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ﴾ فارتفعت لأنه لم يخبر عن الملكين أنهما قالا: لا تكفر فيتعلمون، ليجعلا كفره سببا لتعلم غيره، ولكنه على كفروا فيتعلمون. ومثله: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ كأنه قال: إنما أمرنا ذاك فيكون "[3].

(1) سيبويه: الكتاب مصدر سابق ج 1 ص142-143

(2) أبو البقاء العكبري: التبيان في إعراب القرآن مصدر سابق ج 1 ص212.

(3) سيبويه: الكتاب مصدر سابق ج 3 ص38-39.



- " وفي الكتاب: " وقالوا لئن زرته ما يقبل منك وقال: لئن فعلت ما فعل، يريد معنى ماهو فاعل وما يفعل، كما كان لظلوا مثل[1] ليظلن، وكما جاءت: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ أَدَعَوۡتُمُوهُمۡ أَمۡ أَنتُمۡ صَٰمِتُونَ﴾ على قوله أم صمتم. فكذلك جاز هذا على ما هو فاعل. قال عز وجل: ﴿وَلَئِنۡ أَتَيۡتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٖ مَّا تَبِعُواْ قِبۡلَتَكَۚ﴾ أي ما هم تابعين "[2].

ب – في توجيه القراءات: اضطلع نحو العربية بفن التوجيه اللغوي للقراءات، وأظهر النحاة في الميدان تقدما باهرا، وأثروه بمادة لغوية وفيرة.

ومع أن اختلاف القراءات يحرض التوجيه النحوي ويدعو إليه، ومع كثرة الاختلاف، وتعقده وتنوعه، فإنه " لم يتطرق إليه تضاد، ولا تناقض، ولا تخالف، بل كله يصدق بعضه بعضا، ويبين بعضه بعضا، ويشهد بعضه لبعض على نمط واحد وأسلوب واحد "[3].فتحولت بذلك أوجه الخلاف بين الأحرف إلى مناسبة علمية بادر فيها اللغويون والنحاة إلى كشف النظام ومظاهر الائتلاف، وإلى درء التعارض والتناقض عن معاني القراءات. فهذا مدخل التوجيه إلى التفسير، وسر تعلقه بملامحه ومسائله.

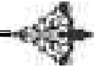
وكتاب سيبويه أحد منطلقات هذا الفن، لا تجده يذكر قراءة قرآنية، إلا التمس لها وجها في العربية، وغالبا ما يشتمل هذا الوجه على ملامح في التفسير؛ تؤكد التوجيه النحوي وتظهر ملاءمته لدلالة النص.

---

(1) يقصد سيبويه جواب الخليل حين سأله عن قوله تعالى: " ولئن ارسلنا ريحا فرأوه مصفرا لظلوا من بعده يكفرون " [الروم:51]. قال الخليل: " هي في معنى ليفعلن، كأنه قال: ليظلن "، سيبويه: الكتاب مصدر سابق ج 3 ص108

(2) سيبويه: لكتاب مصدر سابق ج 3 ص108–109.

(3) أبو الخير محمد بن محمد المشهور بابن الجزري: النشر في القراءات العشر،، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان. د.ت.ج 1 ص52.



ومن نماذج ذلك قول سيبويه:

- " وبلغنا أن بعضهم قرأ هذا الحرف نصبا: ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ﴾ لم يجعل الحمالة خبرا للمرأة، ولكنه كأنه قال: أذكر حمالة الحطب، شتما لها، وإن كان فعلا لا يستعمل إظهاره"[1].

- وقوله: "... وإن شئت جعلت الكلام على الأول فقلت: إن زيدا منطلق وعمرا ظريف، فحملته على قوله عز وجل ﴿وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ﴾. وقد رفعه قوم على قولك: لو ضربت عبد الله وزيد قائم ما ضرك، أي لو ضربت عبد الله وزيد في هذه الحال، كأنه قال: ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر هذا أمره، ما نفدت كلمات الله " [2].

الملمح الثالث:

شرح ألفاظ الآيات شرحا معجميا، يوافق المعنى المراد منها في الآية. وهذه نماذج من معجم ألفاظ القرآن المشروحة في الكتاب:

- " قال قوم "صبغة الله" منصوبة على الأمر. وقال بعضهم: لا بل توكيدا. والصبغة: الدين "[3].

- " قال جل ثناؤه: ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ﴾ كقولك: (لا تعرفونهم الله يعرفهم)[4].

- " قال أبو عمرو: ﴿أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ مَّثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ﴾ صفة كأنك قلت: أولي أجنحة اثنين اثنين، وثلاثة ثلاثة"[5]

(1) سيبويه: الكتاب مصدر سابق ج 2 ص70.
(2) سيبويه: الكتاب مصدر سابق ج 2 ص144.
(3) سيبويه: الكتاب مصدر سابق ج 1 ص382.
(4) سيبويه: الكتاب مصدر سابق ج 1 ص237.
(5) سيبويه: الكتاب مصدر سابق ج 3 ص225.



- " قال الله عز وجل: ﴿إِنِ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾ أي ما الكافرون إلا في غرور."[1]

- " ومثل ذلك: ﴿إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ﴾ إنما هي لعليها حافظ. وقال تعالى: ﴿وَإِن كُلّٞ لَّمَّا جَمِيعٞ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ﴾ إنما هي لجميع، وما لغو" [2].

<u>الملمح الرابع:</u> استعمال الألفاظ التي يعبر بها عن الأشياء[3]

ومرجعها – كما قال ابن فارس – إلى ثلاثة، وهي:المعنى، والتفسير، والتأويل. وهي وإن اختلفت فإن المقاصد بها متقاربة.

أ – المعنى: وهو أكثر استعمالا في الكتاب. وهو لغة الإظهار. يقال: عنت القربة إذا لم تحفظ الماء بل أظهرته، ومنه عنوان الكتاب.

وقيل: المعنى القصد والمراد، يقال: عنيت بالكلام كذا وكذا أي قصدت وعمدت. والمراد بالمعنى الشيء الذي يفيده اللفظ[4]، فإذا قال المفسر: معنى الآية كذا وكذا فكأنه يقول: عنى الله بألفاظ هذه الآية كذا، وأراد بها كذا. ومن نماذج ذلك في الكتاب قول سيبويه:

- " ومثله في الاتساع قوله عز وجل: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءٗ وَنِدَآءٗ﴾، فلم يشبهوا بما ينعق، وإنما شبهوا بالمنعوق به. وإنما المعنى: مثلكم ومثل الذين كفروا كمثل الناعق والمنعوق به الذي لا يسمع. ولكنه جاء على سعة الكلام والإيجاز لعلم المخاطب بالمعنى "[5].

(1) سيبويه: الكتاب مصدر سابق ج 3 ص152.
(2) سيبويه: الكتاب مصدر سابق ج 2 ص139.
(3) انظر "باب معاني الألفاظ التي يعبر عنها عن الأشياء": أحمد بن فارس: الصاحبي، تحقيق السيد أحمد صقر، دار إحياء الكتب العربية، د.ت. ص192.
(4) أحمد بن فارس: الصاحبي، مصدر سابق ص 192.
(5) سيبويه: الكتاب مصدر سابق ج 1 ص212.

وقوله: " تقول: أن تأتيني خير لك، كأنك قلت: الإتيان خير لك. ومثل ذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿وأن تصوموا خير لكم﴾ يعني الصوم خير لكم "[1].

- وقوله: " قال الله عز وجل: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾، فالمعنى والله أعلم:ألم يروا أن القرون الذين أهلكناهم إليهم لا يرجعون"[2].

ب – ونسجل من ملامح التفسير في الكتاب ما حصل بلفظ التفسير، من حيث هو لفظ يتوصل به إلى بيان المعنى وكشف المراد. فمن ذلك قول سيبويه:

- " قال بعضهم: كان أنت خير منه، كأنه قال: إنه أنت خير منه. ومثله: (كاد تزيغ قلوب فريق منهم)، وجاز هذا التفسير لأن معناه: كادت قلوب فريق منهم تزيغ"[3].

- وقال في الكتاب: "سمعت عربيا يقول: أنعم أن تشده، أي بالغ في أن يكون ذلك هذا المعنى، وأن محمولة على أنعم. وقال جل ذكره: ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ﴾ ثم قال: أن يكفروا على التفسير، كأنه قيل له ما هو؟ فقال: هو أن يكفروا"[4].

- وليسيخفى أن طلبة المفسر هو إدراك معاني الآي وفسر دلالالتها.

ج – وفي الكتاب ألفاظ استعملها سيبويه، تفيد هي كذلك شيئا من ملامح التفسير، التي وجدت في هذه الصيغ وسيلة للتعبير والظهور. ومن الألفاظ المتصلة بهذا الغرض لفظ البيان[5]، ولفظ المراد[6]. غير أن استعمالهما كان قليلا.

---

(1) سيبويه: الكتاب مصدر سابق ج 3 ص153.
(2) سيبويه: الكتاب مصدر سابق ج 3 ص132.
(3) سيبويه: الكتاب مصدر سابق ج 1 ص71.
(4) سيبويه: الكتاب مصدر سابق ج 3 ص155.
(5) انظر سيبويه: الكتاب مصدر سابق ج 1 ص166.
(6) انظر ا سيبويه: الكتاب مصدر سابق ج 1 ص212.



الملمح الخامس: توظيف "أي" التفسيرية

تنقسم (أي) في العربية إلى قسمين، الأول: أن تكون حرف نداء، كقولك أي زيد، والثاني: أن تكون حرف تفسير، وهذه تدخل على الجملة والمفرد، وتقع بعد القول وغيره[1].

واستخدم سيبويه (أي) المفسرة ليأتي بعدها في الكلام بما يريد بيانه من المعنى الذي يتطلبه وجه الشاهد في الآية. وتكرر استعمالها في الكتاب لهذا الغرض مرات، وصار لافتا، فاستحقت أن تعد ملمحا تفسيريا فيه.

وتكتسي (أي) طابع الأداة التي يعبر بها الشارح من النص إلى المعنى، أو جزء المعنى. قال عنها سيبويه:

" وتقول إذا أردت أن تخبر ما يعني المتكلم: أي إني نجد إذا ابتدأت كما تبتدئ، أي أنا نجد. وإن شئت قلت أي أني نجد، كأنك قلت: أي لأني نجد"[2].

ومن البين أن دلالة (أي) تعرب عن وظيفتها. وهذه نماذج من توظيفها في الكتاب، اشتملت على ملامح من التفسير:

- جاء في الكتاب: " ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـمَ حَنِيفًا﴾، أي بل نتبع ملة ابراهيم حنيفا، كأنهم قيل لهم: اتبعوا، حين قيل لهم: " كونوا هودا أو نصارى"[3].

- وجاء فيه: "... ومثل هذا قوله جل ثناؤه: ﴿وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ أي حراما محرما، يريد به البراءة من الأمر ويبعد عن نفسه أمرا، فكأنه قال: أحرم ذلك حراما محرما "[4].

---

(1) أبو القاسم المرادي: الجنى الداني،مصدر سابق ص 233.

(2) سيبويه: الكتاب مصدر سابق ج 3 ص124.

(3) سيبويه: الكتاب مصدر سابق ج 1 ص257.

(4) سيبويه: الكتاب مصدر سابق ج 1 ص326.

- وفيه:"...ولكنه أضمر هذا كما يضمر ما بني على الابتداء نحو قوله عز وجل: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾، أي طاعة وقول معروف "أمثل" [1].

- وقال سيبويه: " وتقول: كل لحما أو خبزا أو تمرا، كأنك قلت: كل أحد هذه الأشياء فهذا بمنزلة الذي قبله، وإن نفيت هذا قلت: لا تأكل خبزا أو لحما أو تمرا كأنك قلت لا تأكل شيئا من هذه الأشياء. ونظير ذلك قوله عز وجل: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾، أي لا تطع أحدا من هؤلاء "[2].

الملمح السادس: المنزع العقلي في التفسير

بدأ التفسير العقلي " على هيئة محاولات فهم شخصي، وترجيح لبعض الأقوال على بعض، وكان هذا أمرا مقبولا مادام يرجع الجانب العقلي منه إلى حدود اللغة، ودلالة الكلمات القرآنية "[3].

وقد انتشرت هذه النزعة في شواهد الكتاب، وتصورت في ضرب من الجدل الخفيف، وأحيانا بدت في شكل اعتراض، وربما قيدت الإشكال بالسؤال، لتمضي فيه بعد هذا، أحكام العقل ومقتضيات الصنعة. كل ذلك أجراه سيبويه برفق واعتدال، وأنهاه إلى حدود قريبة، لا تكلف فيها ولا تعقيد.

ونقدم من نصوص الكتاب لمحات عابرة تمثل فيها هذا المنزع العقلي على نحو ما وصفنا:

أ- قال سيبويه: "قال الله عز وجل: ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ﴾ أي ونحن نقر في الأرحام؛ لأنه ذكر الحديث للبيان ولم يذكره للإقرار.

---

(1) سيبويه: الكتاب مصدر سابق ج 2 ص136.

(2) سيبويه: الكتاب مصدر سابق ج 3 ص184.

(3) محمد حسين الذهبي: التفسير و المفسرون، دار القلم بيروت 1982. ج1 ص150.



وقال عز وجل: ﴿أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى﴾ فانتصب لأنه أمر بالإشهاد لأن تذكر إحداهما الأخرى، ومن أجل أن تذكر.

فإن قال إنسان: كيف جاز أن تكون أن تضل ولم يعد هذا للضلال وللالتباس؟ فإنما ذكر أن تضل لأنه سبب الإذكار، كما يقول الرجل: أعددته أن يميل الحائط فأدعمه، وهو لا يطلب بإعداد ذلك ميلان الحائط، ولكنه أخبر بعلة الدعم وبسببه"[1].

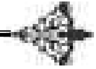
ب- ويقول في "باب ما ينتصب فيه المصدر المشبه به على إضمار الفعل المتروك إظهاره، وذلك قولك مررت به فإذا له صوت صوت حمار، ومررت به فإذا له صراخ صراخ الثكلى "[2]. وفيه يقول:

" فإنما انتصب هذا لأنك مررت به في حال تصويت، ولم ترد أن تجعل الآخر صفة للأول ولا بدلا منه. ولكنك لما قلت: له صوت، علم أنه قد كان ثم عمل، فصار قولك: له صوت بمنزلة قولك: فإذا هو يصوت، فحملت الثاني على المعنى. وهذا شبيه في النصب لا في المعنى لقوله تبارك وتعالى: ﴿وَجَاعِلُ ٱلَّيۡلِ سَكَنًا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانًا﴾ لأنه حين قال: جاعل الليل، فقد علم القارئ أنه على معنى جعل، فصار كأنه قال: وجعل الليل سكنا، وحمل الثاني على المعنى. فكذلك له صوت. فكأنه قال: فإذا هو يصوت فحمله على المعنى فنصبه"[3].

تلك نماذج من ملامح التفسير في الكتاب ومثلها في الكتاب كثير منعني من إيرادها ضيق المقام،

---

(1) سيبويه: الكتاب مصدر سابق ج 3 ص53.
(2) سيبويه: الكتاب مصدر سابق ج 1 ص355.
(3) سيبويه: الكتاب مصدر سابق ج 1 ص356.



وقد تطايرت تلك الملامح في المدونات التفسيرية، وكان لها من الاهتبال عند المفسرين ما بوأ سيبويه مقام الصدارة والتقدير، عند أهل ذاك الفن، فأثاروا ما أثاره حول تلك الآيات القرآنية من إشكالات، واستثمرا ما أداره حولها من معان ودلالات وهو ما يسعى المبحث الرابع إلى تجليته.

المبحث الرابع: نموذجان من تأثير "ملامح التفسير" في المدونات التفسيرية

تأثير سيبويه في المدونات التفسيرية له أشكال متعددة، ووجوه متنوعة، إذ لم تزل كتب التفسير على مر الحقب والأعصار تستثمر ما سطره أبو بشر حول مجموعة من الآيات، تقتفي أثره، وترسم سبيله، وتثير من الإشكالات حول الآيات ما أثاره[1] مجاهرة باسمه في كثير من الأحيان، وساكتة عنه في بعض الأحايين، وليس من سبيل في ذا المقام إلى استقصاء كافة أوجه هذا التأثير وحصر نماذجه، لذا سأكتفي بعرض نموذجين من أمثلته، وما لا يدرك كله لا يترك كله.

النموذج الأول:

يقول سيبويه: " وزعم أن أبا ربيعة كان يقول: إذا لقيت فلانا فقل له سلاما. فزعم أنه سأله ففسره له بمعنى: براءة منك، وزعم أن هذه الآية: (وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما) بمنزلة ذلك، لأن الآية فيما زعم مكية، ولم يؤمر المسلمون يومئذ أن يسلموا على المشركين، ولكنه على قولك: براءة منك وتسلما، لا خير بيننا وبينكم ولا شر. وزعم أن قول الشاعر، وهو أمية بن أبي الصلت:

سلامك ربنا في كل فجر ... بريئا ما تغنثك الذموم

(1) يستثنى من هذا الحكم ابن جرير الطبري في جامع البيان، فلم يورد فيه أي نص من نصوص سيبويه وهذا راجع إلى نزعته الكوفية في النحو.



على قوله: براءتك ربنا من كل سوء "[1].

انتشر هذا النص في كتب المفسرين انتشارا واسعا فقد جاءت ملامح التفسير فيه قوية بينة، وانتبه المفسرون إلى محله من الكتاب، فأودعوا كتبهم ما أورد فيه سيبويه من شرح ومعنى. والنصوص الآتية تبين احتذاءهم صنيعه، وتحريهم عبارته. فمن ذلك:

أ – الأخفش يردد عبارة الكتاب، ويأتي بشاهده من الشعر: جاء في المعاني:

" وقال: (وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما) أي قالوا براءة منكم؛ لأن السلام في بعض الكلام هو البراءة. يقول: إنما فلان سلام بسلام، أي لا يخالط أحدا؛ قال الشاعر أمية بن أبي الصلت:

سلامك ربنا في كل فجر   بريئا ما تغنثك الذموم

ب – الزجاج يستفيد مما روى سيبويه في الكتاب عن أبي الخطاب[2] أن (سلاما) معناها: تسلما منك، كما قلت براءة منك. جاء في معاني الزجاج: " (وَإِذَا خَاطَبَهُمْ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا) أي نتسلم منكم سلاما لا نجاهلكم، كأنهم قالوا: تسلما منكم "[3].

---

(1) سيبويه: الكتاب مصدر سابق ج 1 ص325. وتغنثك أي: تتغنثك بحذف إحدى التاءين. بمعنى تعلق بك. والذمو م: العيوب، جمع ذم.

(2) سيبويه: الكتاب مصدر سابق ج 1 ص324.

(3) أبو إسحاق إبراهيم بن السري الزجاج: معاني القرءان وإعرابه:، تحقيق عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب، ط.1. 1988. ج 4 ص74.

ج – الزمخشري يضع عبارته على نمط عبارة الزجاج ويمزجها بعبارة الكتاب: قال في الكشاف: "(سلاما): تسلما منكم لا نجاهلكم، ومتاركة لا خير بيننا ولا شر"[1]. فالعبارة الأخيرة لسيبويه، والأولى للزجاج.

د – ابن عطية يسمي سيبويه، متمثلا رأيه في تفسير الآية، ويصدر حكما دالا على إلمام دقيق بالكتاب. قال في المحرر الوجيز: " وهذه الآية كانت قبل آية السيف فنسخ منها ما يخص الكفرة، وبقي أدبها في المسلمين إلى يوم القيامة. وذكر سيبويه النسخ في هذه الآية في كتابه، وما تكلم على نسخ سواه، ورجح به أن المراد السلامة لا التسليم، لأن المؤمنين لم يؤمروا قط بالتسليم على الكفار، والآية مكية فنسختها آية السيف "[2].

النموذج الثاني:

يقول سيبويه: "... ومثله في الاتساع قوله عز وجل: (وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً)، فلم يشبهوا بما ينعق، وإنما شبهوا بالمنعوق به. وإنما المعنى: مثلكم ومثل الذين كفروا كمثل الناعق والمنعوق به الذي لايسمع. ولكنه جاء على سعة الكلام والايجاز لعلم المخاطب بالمعنى "[3].

هذا النص من أقرب نصوص الكتاب إلى أعمال المفسرين، وأبينها أثرا في باب التفسير، ومن أكثرها تمثيلا لملامحه ونسقه. فكيف استقبلت كتب المفسرين شرح سيبويه للآية ؟

أ – الأخفش يطابق لفظه لفظ سيبويه: جاء في المعاني: "(ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق)، فإنما هو والله أعلم: مثلكم ومثل الذين كفروا كمثل الناعق

(1) الزمخشري: الكشاف مصدر سابق ج 3 ص99.
(2) ابن عطية: المحرر الوجيز مصدر سابق ج 12 ص38.
(3) سيبويه: الكتاب مصدر سابق ج 1 ص212.



والمنعوق به؛ فحذف هذا الكلام ودل ما بقي على معناه، ومثل هذا في القرآن كثير"[1].

ب – الزجاج يستفيد من سيبويه، ومن الفراء حين تناول الآية فقال في معاني القرآن: " أضاف المثل إلى الذين كفروا ثم شبههم بالراعي. ولم يقل: كالغنم. والمعنى والله أعلم مثل الذين كفروا كمثل البهائم التي لا تفقه ما يقوله الراعي أكثر من الصوت "[2].

وقد ألف الزجاج بين هذا النص ونص الكتاب، وجنح إلى رأي سيبويه فقال في المعاني: " وضرب الله عز وجل لهم هذا المثل، وشبهه بالغنم المنعوق بها، بما لا يسمع منه إلا الصوت، فالمعنى مثلك يا محمد، ومثلهم كمثل الناعق والمنعوق به، بما لا يسمع، لأن سمعهم ما كان ينفعهم"[3].

ج – الزمخشري يستفيد من سيبويه وينتفع بكلام الزجاج. جاء في الكشاف: " والمعنى: مثل داعيهم إلى الايمان في أنهم لا يسمعون من الدعاء إلا جرس النغمة، ودوي الصوت من غير القاء أذهان ولا استبصار، كمثل الناعق بالبهائم التي لا تسمع إلا دعاء الناعق ونداءه "[4].

د – ابن عطية يذكر اسم سيبويه وتفسيره للآية: جاء في المحرر الوجيز: " وقوله تعالى: (ومثل الذين كفروا) الآية، المراد تشبيه واعظ الكافرين وداعيهم والكافرين

(1) أبو الحسن الأخفش: معاني القرءان، تحقيق هدى محمود قراعة، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط.1. 1990. ج1 ص 53.
(2) أبو زكرياء الفراء: معاني الفراء، مصدر سابق ج 1 ص99.
(3) أبو إسحاق الزجاج: معاني القرءان وإعرابه ج 1 ص242.
(4) الزمخشري: الكشاف مصدر سابق ج 1 ص328.



الموعوظين بالراعي الذي ينعق بـالغنم أو الابـل فـلا تسـمعه إلا دعـاءه ونـداءه، ولا تفقه ما يقول، هكذا فسر ابن عباس وعكرمة والسدي وسيبويه "[1]

ذانك نموذجان ومثلها في كتب التفسير كثير يوضحان كيف فرض سيبويه سلطانه على المدونات التفسيرية، وكيف اهتبله المفسرون واقتفوا أثره وإن اختلفـوا معـه في بعض الأحيان، فالاختلاف نفسه ضرب من التأثر، وبذلك يكون سيبويه كما سـلف قد فتح في الدراسات القرءانية بابا وهو التفسير الفني للقرءان، وشرعه سبيلا ليخـب في مضاميره ثلة من المفسرين اللاحقين.

(1) ابن عطية: المحرر الوجيز مصدر سابق ج 1 ص45.

الشاهد القِرَائي في (الكتاب) قراءة في المنهج والتوظيف

الباحث: عبد الواحد الصمدي

أستاذ متعاقد بمعهد محمد السادس للقراءات والدراسات القرآنية

جامعة القرويين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

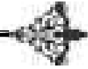
وبعد:

فقد فارق سيبويه الدنيا تاركا وراءه عملا ضخما من أعمال الفكر الإنساني، يدل على عظمة صاحبه، وسعة فكره، وقوة ملاحظته، وحِدة ذكائه.

ومن المتفق عليه أن سيبويه هو الذي سبق إلى النحو وجمع شعاعه، وشرع أوضاعه، ورسم أشكاله، ووَسَمَ أغفاله، وخَلَجَ أشطَانَه، وبَعَجَ أحضانه، وزَمَّ شواردَه، وَأَفَاءَ فَوَاردَه[1].

يعتبر الكتاب أقدم المصادر التي وصلتنا في: الأصوات، والصرف، والنحو، والبلاغة، والقراءات.

(1) ابن جني، الخصائص، تحقيق، علي النجار، دار الكتب المصرية القاهرة:1/ 308-309.



وقد أحصى بعض الباحثين شواهد القراءات في كتاب سيبويه من خلال فهرسة كتاب سيبويه الذي وضعه الأستاذ أحمد راتب النفاخ فوجد أن عدتها نحو: سبعة وخمسين ومائة شاهد، وهي نسبة عالية تبرز اهتمامه بالقراءات واعتماده عليها.

يهدف هذا العرض إلى بيان موقف سيبويه من القراءات القرآنية ومدى اعتماده عليها وتعامله معها في التقعيد النحوي والاستشهاد بها في المجالات المختلفة.

وسيحاول هذا العرض أن يجلي بوضوح الفكرة الشائعة لدى بعض الباحثين، والتي مفادها: " أن سيبويه كان يضعف القراءات المتواترة إذا خالفت قياسا معتمدا عنده".

كما أننا سنقف مع قول سيبويه: (إلاَّ أنّ القراءة لا تُخالَفُ، لأنّ القراءة السُّنَّةُ[1])، وما مدى التزامه بهذه القاعدة التي قررها.

ثم سنحاول إماطة اللثام عن الفكرة التي عبر عنها بعض الباحثين بقوله:((والقراءات مصدر هام من مصادر النحو الكوفي، ولكن البصريين كانوا قد وقفوا منها موقفهم من سائر النصوص اللغوية، وأخضعوها لأصولهم وأقيستهم، فما وافق منها أصولهم –ولو بالتأويل- قبِلُوه، وما أباها رفضوا الاحتجاج به ووصفوه بالشذوذ.[2]))

وسيتعرض العرض للمطالب التالية:

---

(1) سيبويه، الكتاب، تحقيق، عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي القاهرة، ط.1408هـ1988:1/ 148.

(2) مهدي المخزومي، مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو، دار المعرفة بغداد، 1374-1955: ص 384.



المطلب الأول: سيبويه قارئا

سيبويه هو: أبو بشر عمرو بن عثمان بنِ قَنْبَر، الفارسي ثم البصري إمام النحو، وكنيته: أبو بشر، ويقال أبو الحسن، والأول أشهر. وكان مولى لبني الحارث بن كعب[1].

أجمعت كتب التراجم أن سيبويه كان في بداية طلبه للعلم، مشتغلا بالعلوم الشرعية، ونصت بعضها على اشتغاله بعلم الحديث، واشتغاله بالعلوم الشرعية يقتضي اطلاعه على القرآن الكريم وعلومه، إذ إن الاشتغال بالقرآن الكريم وقراءاته كان من أَوْلَى الأولويَّات عندهم.

قال ابن عائشة: كنا نجلس مع سِيبويهِ النحويِّ في المسجد -وكان شابًّا جميلًا نظيفًا، قد تعلَّق من كل علمٍ بسبَب، وضَرَبَ فيه بسَهْمٍ، مع حداثة سنه، وبراعته في النحو[2].

يستفاد من هذا الكلام أن سيبويه درس القراءات في مبدأ طلبه للعلم كما جرت العادة في تلك الفترة أن يبدؤوا بما يتصل بالقرآن الكريم.

وقد حاولنا أن ننقب في أسفار التراجم عن مِشْيَخة سيبويه القرائية، فألفى البحث عددا صالحا من الذين أثروا في تكوين سيبويه في هذا المجال:

من شيوخه في القراءات:

❖ أبو عمرو بن العلاء (ت154هـ)

---

(1) أبو البركات الأنباري، نزهة الألباء في طبقات الأدباء، تحقيق، إبراهيم السامرائي، مكتبة المنار الأردن، ط،3، 1405-1985،: ص 54.

(2) أبو بكر الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، تحقيق، محمد أبو الفضل إبراهيم، ط،2، دار المعارف: ص 67.

في أخذ سيبويه عن أبي عمرو خلاف بين المترجمين، وممن أثبت أخذه عنه: الإمام أبو القاسم الهذلي المغربي(ت465هـ) في كامله، بل حافظ لنا الهذلي على إسناده الذي يصله بسيبويه في القراءات، قال في معرض سوق أسانيد قراءة أبي عمرو: (رواية يونس وسيبويه قرأت على أَبِي عَمْرٍو بن سعيد قرأت على أبي طاهر الصيدلاني على محمد بن يزيد على أبي عثمان المازني على أبي عمر الجرمي على يونس وسيبويه على أبي عمرو[1]). بل إن الهذلي روى لنا بعضا مما رواه سيبويه عن أبي عمرو يقول: ﴿والسَّارِقَ والسَّارِقَةَ﴾ المائدة: ٣٨ بالنصب فيهما الهمداني، وَحُمَيْد، وشِبْل في اختياره، وسيبويه عن أَبِي عَمْرٍو[2]).

ويقول: ﴿بَارِئكُم﴾ البقرة: ٥٤ باختلاس الهمزة أبو عمرو، غير اختيار صاحبيه في قول البصريين، البغداديون وسيبويه عنه بالإشباع[3]).

وقد أدرج سيبويه في تراجم القراء ابنُ الجزري رحمه الله، فقال: (روى القراءة عن أبي عمرو بن العلاء كذا روى الهذلي وهو بعيد، روى القراءة عنه أبو عمر الجَرمي والله أعلم[4]). ويلحظ القارئ أن ابن الجزري كان مضطربا في تتلمذ سيبويه على أبي عمرو، ففي ترجمة سيبويه استبعد أخذه عن أبي عمرو، بينما نجده في ترجمة أبي عمرو يقول: وروى عنه الحروف[5] محمد بن الحسن بن أبي سارة، وسيبويه[6].

---

(1) أبو القاسم الهذلي، الكامل في القراءات العشر والأربعين الزائدة عليها، تحقيق، جمال بن السيد الشايب، مؤسسة سما للتوزيع والنشر،ط1، 1428-2007،: ص 261.

(2) أبو القاسم الهذلي، الكامل في القراءات العشر والأربعين الزائدة عليها، تحقيق، جمال بن السيد الشايب، مؤسسة سما للتوزيع والنشر،ط1، 1428-2007: ص 534.

(3) المصدر نفسه: ص 373.

(4) ابن الجزري، غاية النهاية في طبقات القراء، تحقيق،برجستراسر، مكتبة ابن تيمية، ط،1،:1/ 602.

(5) هي نوع من أنواع التلقي عند القراء، وهي: تلقي الحروف المختلف فيها عن القراء مجردة عن التلاوة، وتكون بقراءة الطالب على الشيخ أو العكس، انظر: إبراهيم الدوسري، مختصر العبارات لمعجم مصطلحات القراءات، دار الحضارة للنشر المملكة العربية السعودية،ط،1، 1429-2008: ص 96.

(6) ابن الجزري، غاية النهاية في طبقات القراء، تحقيق،برجستراسر، مكتبة ابن تيمية، ط،1،:1/ 290.



بل وجدناه في ترجمة أبي عمرَ الجَرمي يذكر روايته للقراءة عن سيبويه ويونس بن حبيب عن أبي عمرو[1]، وقد أثبت أخذ سيبويه عن أبي عمرو القراءة كثيرون، ففي قوله تعالى: ﴿بَارِئِكُم﴾ ورد عن أبي عمرو الوجهان: إسكان الهمزة، واختلاس الكسرة، وروى سيبويه وجه الاختلاس عن أبي عمرو، كما نص عليه أبو حيان[2]. وكما نص عليه سيبويه نفسه في كتابه حيث قال:

(وأما الذين لا يُشبِعون فيَخْتَلِسُون اختلاسًا، وذلك قولك: يضرِبُها، ومِنْ مَأْمَنِكَ، يُسْرِعُونَ اللفظَ. ومن ثم قال أبو عمرو: " إِلَى بَارِئِكُمْ "[3]). وسيبويه هنا يحكي كيف تلقَّى أداء هذا الحرف عن أبي عمرو.

وقال الزجاج: (وأحسِبُ أن الرواية الصحيحة ما روى سيبويه فإنه أضبط لِمَا رَوَى عن أبي عمرو[4]). وهذا نص صريح من الزجاج في رواية سيبويه عن أبي عمرو.

وحكى ابن مجاهد عن سيبويه قال: (كان أبو عمرو يختلس الحركة من: ﴿بَارِئِكُم﴾، و﴿يَأْمُرُكُم﴾، وما أشبه ذلك مما تتوالى فيه الحركات فَيَرَى من سمعه أنه قد أسكن ولم يكن يُسكن[5]).

---

(1) المصدر نفسه:1/ 332.

(2) أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط في التفسير،تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر – بيروت، ط،1420هـ :1/ 333.

(3) الكتاب:4/ 202.

(4) أبو إسحاق الزجاج، معاني القرآن وإعرابه، تحقيق: عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب - بيروت، ط،1، 1408هـ/ 1988م:1/ 136.

(5) ابن مجاهد، السبعة في القراءات، تحقيق، شوقي ضيف،ط.دار المعارف مصر: ص 156.

ولم يكن سيبويه يسْطِيعُ وصف أداء الاختلاس، وهو من الخفاء بمكان، إن لم يكن تلقاه مشافهة عن أبي عمرو. وقد نقل سيبويه عن أبي عمرو في الكتاب أربعا وأربعين مرة[1].

❖ <u>الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت171هـ)</u>

يعتبر الخليل أبرز شيوخ سيبويه الذين لزمهم، وكانوا سببا في تأليفه الكتاب، وشهرة الخليل غنيةٌ عن مزيد قول فيه، إلا أننا نريد أن نشير إلى اهتمام الخليل بالقراءات، فقد ذكرت كتب التراجم[2] أنه أخذ القراءة عن عاصم بن أبي النجُود(ت 127هـ)، وعبد الله بن كثير(ت120هـ)، وهما من القراء السبعة، أولهما شيخ الإقراء في الكوفة، وثانيهما إمام أهل مكة في القراءة، كما أن للخليل رواية عن شيوخه في النحو ممن عُني بالقراءات كأبي عمرو بن العلاء، وعيسى بن عمر، فقد جزم ابن الجزري بقراءته على عيسى بن عمر[3]. كما أنه انفرد ببعض الأحرف القرائية التي عُرف بها ونسبت إليه، مما يدل على أن له اختيارا في القراءات، وقد وظَّف علمه بالقراءات في معجمه (العين) فوصلت استشهاداته بالقراءات إلى أربعة وثمانين موضعا[4].

ولا شك أن سيبويه أخذ عن شيخه من كل علم بسبب، وضَرَبَ من كل فنّ بسهم. وقد روى عنه في الكتاب (522) مرة.

---

(1) علي النجدي ناصف، سيبويه إمام النحاة، دار عالم الكتب القاهرة، ط2، 1399-1979: ص102.

(2) شمس الدين الذهبي، معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1417-1997: ص 51.

(3) ابن الجزري، غاية النهاية:1/ 613.

(4) انظر: القراءات القرآنية وتوجيهها في كتاب العين: جمع ودراسة، عبد الله بن محمد المسملي، مجلة الإمام الشاطبي للدراسات القرآنية، العدد السابع،1430هـ: ص 228.



❖ هارون بن موسى الأعور البصري (ت 170هـ)

وإلى هارون هذا ينسب أول تأليف في توجيه القراءات، وكان له الشرف في أن دلَّ الناس على هذا العلم الذي أثرى الدراسات اللغوية والقرآنية، وإن كان عمله لم يوافقه عليه الناس مبدأ الأمر، قال أبو حاتم السجستاني: (أول من تتبع بالبصرة وجوه القراءات وألَّفَها وتتبع الشاذَّ منها: هارون بن موسى الأعور. قال: وكان من القُراء. فكَرِه الناس ذلك وقالوا: قد أساء حين ألَّفَها. وذلك أن القراءة إنما يأخذها قُرون وأمة عن أفواه أمة ولا يلتفت منها إلا ما جاء من راوٍ راوٍ[1]).

ولا شك أن سيبويه تلقَّى عن هارون القراءات واطلع على كتابه، وكان عمل هارون قد فتح الباب لتعليل القراءات ونقدها من حيث اللغة، ولذلك وجدنا الأصمعي يقول عن هارون: وكنت أشتهي أن يُضرَبَ لمكان تأليفه الحروف[2].

روى سيبويه عن هارون في الكتاب خمسَ مرات، كلها من القراءات، مما يدل على أنه أخذ منه القراءات، ومن هذه المواضع، قال سيبويه:(وحدّثنا هارون أن ناسًا، وهم الكوفيون يقرؤونها: ث ﴿ثمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيَّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيّاً﴾ مريم: ٦٩، وهي لغة جيدة[3]).

وقال: (وزعم هارون أنها في بعض المصاحف: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُوا﴾ القلم:٩ [4]).

وقال: (وحدثني الخليل وهارون أن ناسًا يقولون: ﴿مُرُدِّفِينَ﴾الأنفال: ٩، فمن قال هذا فإنه يريد مرتدفين[5]).

---

(1) علم الدين السخاوي، جمال القراء وكمال الإقراء، تحقيق، مروان العطية ومحسن خرابة، دار المأمون للتراث بيروت،ط،1، 1418-1997،،:1/ 324.

(2) المصدر نفسه:1/ 324.

(3) الكتاب:2/ 399.

(4) المصدر نفسه:3/ 36.

(5) المصدر نفسه:4/ 444.

-عيسى بن عمر الثقفي (ت149هـ)

هو: أبو عمرو عيسى بن عمر الثقفي النحوي البصري، قيل كان مولى خالد بن الوليد، رضي الله عنه، أخذ القراءة عرضًا عن عبد الله بن أبي إسحاق، وروى الحروف عن عبد الله بن كثير، وابن محيصن، وسمع الحسن البصري، وله اختيار في القراءة على قياس العربية[1].

وهو صاحب الكتابين المشهورين في النحو: الإكمال، والجامع، اللذين أفاد منهما سيبويه. ويذكر أهل التراجم أن سيبويه أخذ عنه النحو، ولا يضيفون شيئا آخر، وروى عنه في الكتاب (22) مرة، ومن جملتها نقولا قرائية حدث بها عيسى أبا بشر، ومنها:

(وحدثنا عيسى أن ناسًا كثيراً يقرؤونها: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ الزخرف: ٧٦ [2]). بل هناك نقل صريح يدل على أخذ سيبويه القراءات عن عيسى وهو قوله:

(وكان عيسى يقرأ هذا الحرف: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ إِنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾ القمر: ١٠ [3]).

إذ كيف يطلع سيبويه على هذا الحرف دون بقية قراءته إن لم يكن تلقى عنه القرآن كاملا، أو على الأقل، تَلَقَّى عنه اختياره الذي خالف فيه الناس.

---

(1) ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق، إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط، 1900،:3/ 486.

(2) الكتاب:2/ 392-393.

(3) الكتاب:3/ 143.



المطلب الثاني: منزلة القراءات في الكتاب

عددها:

اشتمل الكتاب على عدد من الشواهد القرآنية التي تبرز اهتمامه بالقراءات، واعتماده عليها

وقد أحصينا شواهد القراءات في كتاب سيبويه من خلال فهرسة كتاب سيبويه الذي وضعه الأستاذ: محمد عبد الخالق عضيمة، فألفينا أن عدتها نحوُ: سبعة وخمسين ومائة، من جملة شواهد القرآن التي يبلغ عددها حسب الفهرس المذكور نحو: ستة وتسعين وثلاثمائة شاهد، وهي نسبة عالية تبرز اهتمامه بالقراءات واعتماده عليها[1].

تنوعها الجغرافي:

كان سيبويه يعتمد قراءات القرأة أيا كان موطنهم، وأيا كان مذهبهم في القراءة، فاستشهد بقراءات لقراء البصرة، والكوفة، والشام، والمدينة، ومكة، وليس كما زعم بعضهم أن سيبويه كان متعصبا لقراء بلده، وأنه كان يفضلهم على غيرهم، والذي يظهر أن سيبويه لم يكن مشغولا بنسبة القراءات، بل كان اهتمامه منصبا إلى القراءة نفسها.

طُرُق عزو القراءات في الكتاب:

الذي يتتبع استشهادات سيبويه بالقراءات يلف أنه قلما يعزو القراءة التي يستشهد بها إلى صاحبها، أو قلما يذكر اسم القارئ نفسه، ولنسبة القراءات عنده صور منها:

---

(1) محمد عبد الخالق عضيمة، فهارس كتاب سيبويه ودراسة له، مطبعة السعادة،ط،1، 11395-1975، ص 720.

❖ الصورة الأولى: إبهام النسبة.

وذلك باستعمال كلمة بعض أو ما يشبهها، ومن أمثلته: قوله: (وزعموا أنّ بعضَهم قرأ: ﴿وَلَاتَ حِينُ مَنَاصٍ﴾ ص: ٣ وهي قليلة[1])، وقوله: (وبلغنا أن بعضهم قرأ هذا الحرف نصبا: ﴿وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ المسد: ٤[2]). وقوله: (ألا ترى أنهّم قرءُوا: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ فصلت: ١٧، وقبله نصبٌ[3]).

ويستعمل ضمن هذا النوع مصطلحات منها:

(قرأ بعض القرّاء)، (وزعموا أنّ بعضَهم قرأ)، (قرأ بعضُهم)، (قرأ أناس)، (قرأ ناسٌ)، (قرأ بعض الناس)، (بعض القرَّاء قرأ)، (وقد قُرِئ هذا الحرف).

❖ الصورة الثانية: النسبة للبلد، وهي أقل إبهاما من سابقتها.

من ذلك قوله: (وقرأ أهل الكوفة: ﴿ فَتُذَكِّرُ﴾ رفعـًا[4])، وقوله: (وبلغنا أن أهل المدينة يرفعون هذه الآية: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلُ رَسُولًا فَيُوحِي بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ﴾ الشورى: ٥١[5]) وقوله: (وقراءة أهل مكة اليوم: ﴿حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ﴾ القصص: ٢٣، بين الصاد والزاي[6]).

واستعمل في هذا النوع المصطلحات التالية: (أهل الكوفة)، (الكُوفِيُّون)، (أهل المدينة)، (أهل مكة)، (أهل الحجاز).

---

(1) الكتاب:1/ 58.
(2) المصدر نفسه:2/ 70.
(3) المصدر نفسه:1/ 95.
(4) المصدر نفسه:3/ 54.
(5) المصدر نفسه:3/ 50.
(6) المصدر نفسه:4/ 196.



ومما يجدر التنبيه عليه أن سيبويه لا يقصد بهذه المصطلحات عيْنَ ما عند علماء القراءة المتأخرين، فلو أخذنا مصطلح "أهل الكوفة" -الذي يطلق عند المتأخرين على قراءة عاصم وحمزة والكسائي- لوجدنا أن سيبويه استعمله في موضعين:

في إحدى الموضعين أطلقه على قراءة حمزة وحده، قال:

(وقرأ أهل الكوفة: ﴿ فَتُذَكِّرُ﴾ رفعًا[1])، وهذه القراءة قرأ بها حمزة وحده من الكوفيين، مما جعل محقق الكتاب الأستاذ عبد السلام هارون يعلق على سيبويه بقوله: إطلاقه هذا يعوزه التحقيق، وقد وقع المحقق رحمه الله في هفوة، وذلك أنه حاكم سيبويه إلى مصطلح لم يتقرر معناه عند القَرَأَة إلا بعد تأليف السبعة لابن مجاهد (ت 324هـ)، وصار الكوفيون يراد بهم: عاصم وحمزة والكسائي[2].

وصنيع ابن مجاهد متأخر بقرن ونصف تقريبا عن تأليف سيبويه لكتابه، فلا يصح ولا يقبل تفسير نص سيبويه بهذا التفسير الذي لم يدُرْ بخَلَد سيبويه.

وفي الموضع الثاني قال سيبويه: (وحدّثنا هارون أن ناسًا، وهم الكوفيون يقرؤونها: ﴿ثمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيَّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيّاً﴾[3]).

وعلق المحقق على الكوفيين فقال: والكوفيون هم: عاصم، وحمزة، والكسائي.

وهذه هفوة أخرى من المحقق رحمه الله، فلم يقرأ بها أحد من الثلاثة المذكورين، وإنما هي قراءة طلحة بن مصرف، ومعاذ بن مسلم الهراء، وزائدة عن الأعمش، وهارون الأعور عن أهل الكوفة، ورواية عن يعقوب[4].

---

(1) الكتاب:3/ 54.

(2) انظر: ابن مجاهد، السبعة في القراءات، تحقيق، شوقي ضيف،ط.دار المعارف مصر: ص 163.

(3) الكتاب:2/ 399.

(4) عبد اللطيف الخطيب، معجم القراءات، دار سعد الدين للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط1، 1422-2002، :5/ 383.

وقد كان لسيبويه فضل السبق في إنشاء هذا المصطلح، الذي كان يطلق إطلاقا عاما على قراءة أي قارئ من أهل الكوفة، وقد تبع سيبويه في استعماله بهذا المعنى الفراء في معانيه[1]، وابن جرير الطبري[2]، وأبو إسحاق الزجاج[3].

وقد خُلد هذا المصطلح في كتب القراءات، فبعد تسبيع ابن مجاهد، وإدراجه ضمن السبعة القراءَ الثلاثة الكوفيين: عاصما وحمزة والكسائي، تقيَّد هذا المصطلح بهؤلاء الثلاثة.

مع أن تفسير الكوفيين بالقراء الثلاثة من السبعة غير مقبول علميا، لأن سيبويه لم يكن يقصد هؤلاء الثلاثة بهذه الكيفية، وبتتبع عزو القراءات في المواضع التي ورد فيها مصطلح "الكوفيين" في الكتاب، تبين أن مراد سيبويه بالكوفيين يشمل:

عاصم بن أبي النجود (ت 127هـ)، وأبان بن تغلب (ت141هـ)، والأعمش سليمان بن مهران (ت 148هـ)، وطلحة بن مصرف (ت146هـ)، وعيسى بن عمر الهمداني (ت150هـ)، وحمزة بن حبيب الزيات (ت156هـ)[4].

وإنما أجمل سيبويه النسبة في هذا النوع، لأنه لاحظ أن القراءة قرأ بها أكثر من قارئ، فأراد سيبويه الاختصار بنسبتها لأهل البلد ك: (أهل الكوفة)، أو: (أهل المدينة)، أو: (أهل مكة)، ففي هذا استغناء بالإجمال عن التفصيل.

وفيما تقدم من تصريح سيبويه بالكوفيين في عزو القراءات، أبلغ رد على الدكتور: عبد الفتاح شلبي الذي يذهب إلى أن سيبويه لم (يَنُصَّ إذا ما نَصَّ إلا على إمام

(1) أبو زكريا الفراء، معاني القرآن، تحقيق، أحمد يوسف النجاتي ومحمد علي النجار وعبد الفتاح إسماعيل الشلبي، دار المصرية للتأليف والترجمة، ط،1،:3/ 214.

(2) أبو جعفر الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط،1، 1420ه/ 2000م:5/ 481.

(3) معاني القرآن وإعرابه:1/ 354.

(4) بدر بن محمد الجابري، الكوفيون في كتاب سيبويه، مجلة جامعة أم القرى لعلوم اللغات وآدابها، العدد الحادي عشر،1435-2013، ص 22.



بصري كأبي عمرو بن العلاء، أو من قرأ على بصري كالأعرج، أو عيسى، أو من بعُدَ عن هذه العصبية كعبد الله بن مسعود، أو أُبي رضي الله عنهما[1]).

وقد صرح سيبويه بغير القراء البصريين، كما ستقف عليه في النوع الآتي، وهذا القول من الدكتور مبني على فكرة التعصب التي ليس من دليل عليها، مع ما في نسبة القراءة للكوفيين من مناقضة ومضادَّة لهذه الفكرة.

❖ الصورة الثالثة: النسبة للقارئ مع تعيين اسمه

وهي أوضح الصور في نسبة القراءة، إلا أنها أقل استعمالا وورودا في الكتاب، ولم يسم سيبويه من أعلام القَرَأَة إلا تسعة وهم: عبد الله بن مسعود[2]، وأبي بن كعب[3]، ومجاهد بن جبر[4]، والحسن البصري[5]، والأعرج[6]، وعبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي[7]، ومحمد بن مروان[8]، وعيسى بن عمر[9]، وأبو عمرو بن العلاء[10].وسيبويه في تعامله مع القراءات، لم يكن مهتما بنسبة القراءات إلا قليلا، لأن عزو القراءات ونسبتها لقارئها أو لقارئيها ليس من مقصد سيبويه، وإنما هدفه ومقصده من إيراد القراءة يتلخص في الاعتضاد بها أو توجيهها، وهو الأعم الأغلب،

(1) عبد الفتاح شلبي، أبو علي الفارسي حياته ومكانته بين أئمة التفسير والعربية وآثاره في القراءات والنحو، ط،دار المطبوعات الحديثة، المملكة العربية السعودية، ط 2،1409– 1989: ص 164.
(2) الكتاب:3/ 143، و:4/ 82.
(3) المصدر نفسه:1/ 95.
(4) المصدر نفسه:3/ 25.
(5) المصدر نفسه:1/ 172.
(6) المصدر نفسه:2/ 187، و:3/ 134، و:4/ 196.
(7) المصدر نفسه:3/ 44.
(8) المصدر نفسه:2/ 397.
(9) المصدر نفسه:3/ 143.
(10) المصدر نفسه:2/ 43.

أو ليوازن بين بعض القراءات. وكما نلحظ فمنهج سيبويه متنوع في نسبة القراءات، وقد نقل عن قراء من جميع الأمصار.

ويذهب الدكتور: عبد الفتاح شلبي إلى أن سيبويه لم ينسب بعض القراءات لعدم اتضاح منزلة القراء في زمنه، أو أن دافعه العصبية الطائفية أو المنافسة في الصنعة، وذلك حيث يقول: (أو الصواب أن القراء لم تتضح منزلة الأئمة منهم في زمنه، فنراه يقول: وقرأ أهل المدينة كذا دون إسناد إلى نافع مثلا، وقرأ أهل الكوفة كذا دون إسناد إلى حمزة والكسائي، وقرأ بعضهم كذا، أو أن هذه قراءة أهل الحجاز، أو قراءة أهل مكة كذا دون إسناد إلى ابن كثير، أو دفعته العصبية الطائفية، والمنافسة في الصنعة إلى عدم ذكر هؤلاء[1]).

والتعليل بعدم اتضاح المنزلة عند سيبويه الذي يذهب إليه الدكتور مبني على تسبيع القراءات، وهو أمر حدث بعد سيبويه، فلا يقبل التعليل به لصنيع سيبويه.

وأما التعليل بالعصبية الطائفية، فما من دليل عليه من ناحية، ومن ناحية أخرى فلو كان الأمر كذلك لما صرح سيبويه بالكوفيين.

❖ المطلب الثالث: تصنيف القراءات في الكتاب

نحاول في هذا المطلب أن نقف على مجالات استدلال سيبويه بالقراءات، هل كان يورد القراءة على سبيل إرساء القاعدة النحوية، أم لدعم القواعد وتوكيدها، وهل يقدم القراءة على الشاهد الشعري، وهل كان يورد القراءة للاحتجاج بها أم للاحتجاج لها؟

أخذنا نماذج من أبوابه وحاولنا أن نقف على منهجه في إيراد الشواهد القرائية، وتبين لنا أن منهجه يمكن أن يلخص فيما يلي:

---

(1) عبد الفتاح شلبي، أبو علي الفارسي حياته ومكانته بين أئمة التفسير والعربية وآثاره في القراءات والنحو: ص 164.



❖ **الحالة الأولى: أن يضع عنوان الباب ويمثل له بأمثلة يقيسها على القرآن، ويذكر بعدها الآيات الواردة في الموضوع، ثم ما ورد عن العرب من النثر مما تلقاه وسمعه، ثم يختم بالشاهد الشعري.**

ومن أمثلته: (هذا باب ما لا يكون إلا على معنى ولكنَّ).

قال: (فمن ذلك قوله تعالى: ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾ **هود: ٤٣، أي: ولكنَّ من رحم. وقوله عز وجل:** ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا﴾ **يونس: ٩٨ أي: ولكنَّ قوم يونس لما آمنوا. وقوله عز وجل:** ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ **هود: ١١٦، أي: ولكنَّ قليلاً ممن أنجينا منهم. وقوله عز وجل:** ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ **الحج: ٤٠، أي: ولكنهم يقولون: ربُّنا الله. وهذا الضربُ في القرآن كثير[1]).**

ثم يذكر بعد هذه الآيات القرآنية بعض ما رواه عن العرب، وهما نصَّان نثريان، ثم يختم الباب بشاهدين شعريين. ومثل هذا (باب ما يجري من الشتم مجرى التعظيم وما أشبهه)، فقد بدأه بمثال، وهو: (أتاني زيد الفاسقَ الخبيثَ)، ثم ذكر بعده قراءة عاصم بن أبي النجُود، فقال: وبلغنا أن بعضهم قرأ هذا الحرف نصبا: ﴿وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ **المسد: ٤، لم يجعل الحمالة خبرا للمرأة، ولكنه كأنه قال: أذكرُ حمّالةَ الحَطَبِ، شتمًا لها، ثم ذكر بعدها قول عروة الصعاليك العبسي:**

سَقَوْني الخمرَ ثمَّ تكنَّفوني ... عُداةَ الله من كَذِبٍ وزورِ

والشاهد فيه نصب (عُداةَ) على الشتم والذم.

(1) الكتاب: 2/ 326.

وقول النابغة:

لَعمــري ومــا عَمــري علــيَّ بهــيّنٍ لقــد نطقــتْ بُطــلاً علــيّ الأقــارعُ

أقــارعُ عَــوفٍ لا أُحــاوِلُ غيرَهــا وجــوهَ قــرودٍ تبتغــي مــن تُجــادع

والشاهد فيه: نصب (وجوهَ) على الذم أيضا.

وفي هذا الباب وجدناه يجعل قراءة عاصم أصلا، وما بعدها من شعر العرب إنما هو لتقوية القاعدة وتأكيدها.

وفي هذا النوع يجعل سيبويه القراءة أصلا، ويقيس عليها ما أشبهها، كما فعل عند حديثه على إجراء صلة (مَنْ) وخبره إذا عنيت اثنين، كصلة اللذينِ، وإذا عنيت جميعا كصلة الذينَ، ويقول:

(وزعم الخليل رحمه الله أن بعضهم قرأ: ﴿ وَمَنْ تَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ الأحزاب:٣١، فجُعلت كصلة التي حين عنيتَ مؤنثا. فإذا ألحقت التاء في المؤنث ألحقت الواو والنون في الجميع[1]). فقاس إلحاق الواو والنون في الجمع على إلحاق التاء في المؤنث.

❖ الحالة الثانية: أن يَعرِضَ القضيَّة النحوية، ثم يمثلَ لها بأمثلة على وفق ما قالت العرب، ثم ينتقل إلى ما ورد عن العرب: شعرها ونثرها، ثم يختم حديثه بذكر القراءة التي تدعم القاعدة وتعضدها.

ومن أمثلته: (هذا باب الأمر والنهى) فقد تكلم فيه عن كون الاسم عاملا في الفعل، مثل: عبد اللهُ اضربْه، ثم تدرج إلى مسألة دخول الفاء على الأمر، ضاربًا

(1) المصدر نفسه:2/ 415.



الأمثلة من النثر تارة ومن الشعر أخرى، ويورد أمثلة للموصول والدعاء، ويذكر جواز الرفع والنصب فيه كما في الأمر والنهي، ثم يقول بعد ذلك:

(**وأمّا قوله عزّ وجلّ**: ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ﴾ **النور:٢. وقوله تعالى**: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا ﴾ **المائدة: ٣٨، فإن هذا لم يُبْنَ على الفعل، ولكنه جاء على مثل قوله تعالى**: ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ **محمد: ١٥**[1]). **فقد أَخَّرَ الآيتين كما هو واضح.**

وفي: (باب ما ينتصب على التعظيم والمدح) يقعد القاعدة بقوله:

(وإن شئت جعلته صفة فجرى على الأول، وإن شئت قطعتَه فابتدأتَه.)

ثم يمثل بقولك: "الحمدُ لله الحميدَ هو"، و"الحمدُ لله أهلَ الحمد"، و"الْمُلكُ لله أهلَ الْمُلك".

ثم يورد بيتي الأخطل:

نفسي فداءُ أميرِ المؤمنين إذا ... أبْدَى النواجذَ يومٌ باسلٌ ذكَرُ

الخائضُ الغمرَ والميمونُ طائرُه ... خليفةُ الله يُستسقى به المطرُ

ثم يستشهد بقول مُهلهِل:

ولقد خبطن بيوتَ يشكُرَ خبطة ... أخوالنا وهمُ بنو الأعمامِ

ثم يقول:

(وسمعنا بعض العرب يقول: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ الفاتحة: ٢، فسألت عنها يونسَ فزعم أنها عربية.

(1) الكتاب:1/ 142-143.

ومثل ذلك قول الله عز وجل: ﴿لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ النساء: ١٦٢. فلو كان كله رفعًا كان جيداً. فأما ﴿وَالْمُؤْتُونَ﴾ فمحمولٌ على الابتداء[1]).

فقد قعَّد القاعدة ثم مثَّل لها بالنثر، ثم أتبعه ببيتي الأخطل والمهلهل، وأخَّر قراءة نصب ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ وهي قراءة زيد بن علي وأبي زيد والكسائي وأبي العالية وعيسى بن عمر وابن السميفع[2].

❖ الحالة الثالثة: الاحتجاج للقراءات وتخريجها.

إن الناظر في الكتاب يلحظ أن أبا بشر كان في بعض الأحيان حريصا على بيان وجه القراءة في العربية، حتى يحسب القارئ أنه يقرأ كتابا في توجيه القراءات، ومن ذلك أنه كان حريصا على سؤال شيوخه عن وجه القراءة، فكثيرا ما يطالع القارئ في الكتاب (وسألته عن قوله عز وجل)، ومنه ما جاء في: (بابٌ من أبواب أنَّ) أنه سأل الخليل عن قوله تعالى: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ إِنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ الأنعام: 109، ما منعها أن تكون كقولك: ما يدريك أنه لا يفعل؟ فقال: لا يحسن ذا في ذا الموضع، إنما قال: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾، ثم ابتدأ فأوجب فقال: ﴿إِنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾. ولو قال: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، كان ذلك عذراً لهم[3]).

فقد سأله عن قراءة الكسر فوجهها الخليل بأنها محمولة على الاستئناف، وفي قول الخليل: (ولو قال: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، كان ذلك عذراً لهم). معناه: لو فَتَحتَ (أنَّ) هنا وجعلتَها بمنزلة التي في نحو: بلغني أن زيدا منطلق، لكان عذرا لمن أخبر عنهم أنهم لا يؤمنون، لأنه إذا قال القائل: إن زيداً لا يؤمن،

(1) المصدر نفسه: 2/ 63.

(2) عبد اللطيف الخطيب، معجم القراءات: 1/ 6.

(3) الكتاب: 3 / 123.



فقلتَ: وما يُدريك أنه لا يؤمن، كان المعنى: إنه يؤمن، وإذا كان كذلك كان عذرًا لمن نفى الإيمان عنه.

وهنا يظهر سيبويه اطلاعه على القراءات، ويخبر شيخه بأن أهل المدينة[1] يقرؤون: مِن أَنَّهَاشَهِيدَيْنِ . فقال الخليل: هي بمنزلة قول العرب: ائت السُّوق أنك تشتري لنا شيئًا، أي: لعلَّكَ، فكأنه قال: لعلَّها إذا جاءت لا يؤمنون[2].

فقد بين سيبويه وجه القراءتين معا، أما كسر الهمزة من: مِن إِنَّهَاشَهِيدَيْنِ فمحمولة على الاستئناف، وأما فتح الهمزة ﴿ أَنَّهَا﴾ ف(أنَّ) هنا بمعنى (لَعَلَّ).

ومن أمثلة الاحتجاج للقراءات عند الإمام، قوله:

(وسألت الخليل عن قوله عز وجل: ﴿فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ المنافقون:10 . فقال: هو كقول زهير:

بَدَا لِيَ أَنِّي لَسْتُ مُدْرِكَ مَا مَضَى ... وَلاَ سَابِقٍ شَيْئًا إِذَا كَانَ جَائِيَا

فأنت ترى أن سيبويه استشكل قراءة الجمهور بالجزم في ﴿وَأَكُنْ﴾ فسأل عنها الخليل، فبين له أنها موافقة لسَنَن العربية، ومثَّلَ له بقول زهير المتقدم، وحاصل توجيهه أن الفعل مجزوم على توهُّم جزم ﴿ فَأَصَّدَّقَ﴾ لو لم يكن فيه فاء.

قال: (فإنما جروا، لأن الأول قد يدخله الباء، فجاءوا بالثاني، وكأنهم قد أثبتوا في الأول الباء، فكذلك هذا لما كان الفعل الذي قبله قد يكون جزما ولا فاء فيه تكلموا بالثاني، وكأنهم قد جزموا قبله، فعلى هذا توهَّموا هذا [3]، ومما يندرج ضمن هذا

---

(1) قرأ بفتح "أنها" نافع وأبو جعفر المدنيان، وابن عامر الشامي، وحفص عن عاصم، وحمزة، والكسائي، وخلف في اختياره. ينظر: ابن الجزري: النشر في القراءات العشر، تحقيق، علي محمد الضباع، المطبعة التجارية الكبرى،: ج2/ 261.

(2) الكتاب:3/ 123.

(3) الكتاب:3/، 100-101.

النوع قوله:(وسألت الخليل عن قوله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾، فزعم أن النصب محمول على (أَنْ) سوى هذه التي قبلها[1]). ويقف عند القراءاتين الواردتين في قوله: ﴿أَوْ يُرْسِلَ﴾ رفعا ونصبا ويحتج لهما من كلام العرب.

❖ الحالة الرابعة: الاحتجاج بالقراءة لتوكيد القاعدة.

نجد سيبويه في بعض المواطن لا يكون اهتمامه منصبا على القراءة نفسها، وإنما يأتي بها في سياق سوق الأدلة والشواهد على القاعدة التي قررها.

ومن ذلك ما جاء في: (باب اشتراك الفعل في أَنْ وانقطاع الآخِر من الأول الذي عمِل فيه أنْ) وفيه يذكر أن الحروف التي تُشرِك هي: الواو، والفاء، وثم، وأَوْ.

ثم ذكر جواز الرفع في هذه الحروف في مثل قولك: أريد أن تأتيني فتشتِمُني، ويذكر قول رؤبة:

.... يريـــــدُ أن يُعْرِبَـــــهُ فيُعْجِمُـــــهْ

أي: فإذا هو يُعجِمُه.

ثم يذكر آيتين، أما الأولى فهي مرفوعة اتفاقا وهي قول الله عز وجل: ﴿لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ﴾ الحج: ٥، أي: ونحنُ نقر في الأرحام، لأنه ذكر الحديث للبيان ولم يذكره للإقرار.

والآية الثانية هي: قوله عز وجل: ﴿أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾ البقرة:٢٨٢، فانتصب لأنّه أمرَ بالإشهاد لأن تُذَكِّر إحداهما الأخرى ومن أجل أن تذكر، وقرأ أهل الكوفة: ﴿فَتُذَكِّرُ﴾ رفعــًا.وهي قراءة حمزة، ويلحظ القارئ أن

(1) المصدر نفسه:3/ 49.



سيبويه لم يكن همه أن يوجه القراءتين في: ﴿فَتُذَكِّر﴾ كما رأيناه في أمثلة الحالة الثالثة، ولكنه أراد بها تقوية القاعدة.

وهذا النوع كثير في الكتاب، ففي: (باب ما يكون الاسم فيه بمنزلة الذي في المعرفة) نجده يذكر جملة من القراءات، ولكنه لا يقف عندها، وهي: ﴿هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ ق:٢٣، و ﴿وَهَذَا بَعْلِي شَيْخٌ﴾ هود: ٧٢، و ﴿تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنُ﴾ الأنعام: ١٥٤، ويدلك أنه كان مشغولا بالمسألة التي كان يقررها، أنه لم ينسُب القراءتين الأخيرتين.

ونجده يقيس القراءة على شاهد شعري ويحمِلُها عليه، فبعد أن ذكر قول الحارث بن نهيك:

لِيُبْكَ يَزِيدٌ ضَارِعٌ لِخُصُومَةٍ وَمُخْتَبِطٌ مما تُطِيحُ الطَّوائحُ

قال: (ومثل: ليُبكَ يزيدُ قراءةُ بعضهم[1]: ﴿زُيِّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلُ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ﴾ الأنعام: ١٣٧ ، رفع الشركاء على مثل ما رفع عليه (ضَارِعٌ)[2]).

المصطلحات التي وصف بها القراءة:

كان سيبويه بعد أن يورد القراءة يُعَلق أحيانا عليها ويصنفها في مستوى الفصاحة، وقد استعمل عدة مصطلحات في الحكم على القراءة منها:

- لغة جيدة:

يقول: (وحدّثنا هارون أن ناسًا، وهم الكوفيون يقرؤونها: ﴿ثمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيّاً﴾ مريم: ٦٩، وهي لغة جيدة[3]).وقد استعملها مرة واحدة فقط.

---

(1) هي قراءة أبي عبد الرحمن السلمي والحسن ا لبصري وأبي عبد الملك قاضي الجند وعلي بن أبي طالب في رواية. انظر: معجم القراءات:2/ 552.

(2) الكتاب:1/ 290.

(3) المصدر نفسه:2/ 399.

❖ قليلة:

يقول: (وزعموا أنّ بعضَهم قرأ: ﴿وَلَاتَ حِينُ مَنَاصٍ﴾ وهي قليلة[1]).

ويقول أيضا في كسر الواو التي هي ضمير من أجل التقاء الساكنين (وقد قال قوم: ﴿وَلَا تَنْسَوِا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ البقرة: ٢٣٧، جعلوها بمنزلة ما كسروا من السواكن، وهي قليلة[2]).

❖ رديء:

وقد وصف به سيبويه قراءة الذين يحققون الهمزتين من كلمة، نحو: ﴿أَأَنْذَرْتَهُمْ﴾، قال: (وزعموا أن ابن أبي إسحاق كان يحقق الهمزتين وأناسٌ معه. وقد تكلم ببعضه العرب وهو رديءٌ، فيجوز الإدغام في قول هؤلاء. وهو رديء[3]).

وقد استند سيبويه في تضعيفه لتحقيق الهمزتين إلى أمرين:

❖ السماع، فهو يرى أنه قليل الاستعمال، لأنه لم يبلغه إلا من طريق عبد الله بن إسحاق الحضرمي(ت117هـ) وأناس معه.

❖ القياس، فهو يرى أن العرب تحامت النطق بهمزتين مجتمعتين في كثير من كلامها.

وعذر سيبويه أنه حين كان يقرر هذه المسألة كان يستحضر ما هو مشهور في بيئته البصرية، ومن المعلوم أن قارئ البصرة المشهور أبو عمرو بن العلاء شيخ سيبويه، كان من مذهبه تسهيل الهمزتين[4].

---

(1) المصدر نفسه:1/ 58.

(2) الكتاب:4/ 155.

(3) المصدر نفسه:4/ 434.

(4) غانم قدوري الحمد، ظواهر لغوية في القراءات القرآنية، دار عمار الأردن،ط،1، 1427-2006،:ص 33.



❖ قليل رديء:

وقد استعمله في وصف قراءة التحقيق في: (النبيء) و(البريئة) قال:

(وقد بلغنا أنَّ قوماً من أهل الحجاز من أهل التحقيق يحققون (نبي) و(بريئةٌ)، وذلك قليلٌ رديء. فالبدل ههنا كالبدل في مِنساةٍ وليس بدل التخفيف، وإن كان اللفظ واحداً[1]).

وسيبويه هنا إنما يتحدث عن لهجة أهل الحجاز، وليس عن قراءتهم بدليل قوله: "أنَّ قوماً من أهل الحجاز من أهل التحقيق يحققون"، ولم يقل: يقرؤون.

والملاحظ أنه استعمل مصطلح (رديء) في الموضعين معا، في تحقيق الهمز، وهو ضد (جيد).

❖ ضعيف في الكلام:

وقد استعمله تلميحا في وصف قراءة النصب في ﴿كُن فَيَكُونَ﴾ وهي قراءة ابن عامر الشامي في المواضع الستة[2]، ووافقه الكسائي في موضعي النحل ويس، قال رحمه الله: (واعلم أن الفاء لا تُضمَر فيها (أنْ) في الواجب، ولا يكون في هذا الباب إلا الرفع... ومثله: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾، كأنه قال: إنما أمرنا ذاك فيكونُ. وقد يجوز النصب في الواجب في اضطرار الشعر... وهو ضعيف في الكلام[3]).

وسيبويه هنا لم يشر إلى قراءة النصب في مِن كُن فَيَكُونَشَهِيدَيْنِ، وإن كان مقتضى كلامه أنها ضعيفة، ولكن لا ينبغي التحامل على سيبويه، فلم يذكر كعادته القراءة

(1) الكتاب:3/ 555.
(2) في البقرة، وآل عمران، وموضع النحل، ومريم، ويس، وغافر.
(3) الكتاب:3/ 38-39.

ولا القارئ، فكيف يسوغ أن يتهمه الدكتور: أحمد مكي الأنصاري بأنه ضعف قراءة ابن عامر، ويقول:

(ومع التوثيق الكامل لقراءة الكسائي وابن عامر فإن سيبويه رحمه الله يقرر ضعف النصب في هذه الحال[1]).

ولا أدري عن أي توثيق يتكلم الدكتور، فإنه يتعامل مع سيبويه وكأنه كان عارفا بتواتر القراءة وأنها سبعية وخالفها، وهذا ليس بصحيح، فسيبويه لم يطلع على قراءة ابن عامر، إذ إننا نظرنا في الكتاب فلم نجد ذكرا لابن عامر ولا لأهل الشام فيه، مع أنه في نسبة القراءات استعمل مصطلح: (أهل المدينة)، و(أهل مكة)، و(أهل الكوفة)، و(أهل الحجاز)، ولا وجود للشام ولا لابن عامر في الكتاب، وهذا يدل على أن سيبويه لم تصله قراءة عبد الله بن عامر الشامي (ت118هـ)، ومن الْمُسَلَّم عند أهل القراءات أنه لا يحيط بها أحد، فكيف نُلزم سيبويه بأنه عندما كان يقرر هذه القاعدة كانت قراءة ابن عامر في خَلَده.

❖ لغة رديئة:

وقد وصف به قراءة نصب ﴿سَوَاءً مَحْيَاهُمْ﴾ على رأي بعض الباحثين الذين يتهمون سيبويه بتضعيف القراءات، وهي قراءة حفص عن عاصم وحمزة والكسائي[2].

قال رحمه الله:(واعلم أن ما كان في النكرة رفعا غير صفة فإنه رفعٌ في المعرفة. من ذلك قوله جل وعز: ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا

(1) أحمد مكي الأنصاري، سيبويه في الميزان، مجلة مجمع اللغة العربية، ج 34، شوال 1394-1974،: ص 106.

(2) الشاطبي القاسم بن فيرُّه، حرز الأماني ووجه التهاني في القراءات السبع، تحقيق، محمد تميم الزعبي، مكتبة دار الهدى ودار الغوثاني للدراسات القرآنية،ط،4، 1426-2005: ص 71.



وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾الجاثية: ٢١. وتقول: مررت بعبد الله خيرٌ منه أبوه. فكذلك هذا وما أشبهه. ومن أجرى هذا على الأول فإنه ينبغي له أن ينصبه في المعرفة فيقول: مررتُ بعبد الله خيراً منه أبوه. وهي لغةٌ رديئة). وأنت تلحظ أن سيبويه وصف اللغة بالرداءة، ولم يصف القراءة.

❖ لغة ضعيفة:

وقد وصف به قراءة إبدال الهمزة ياء في: (يَا صَالحُ يْتِنَا)، قال:

(وزعموا أن أبا عمرٍو قرأ: (يا صالح يْتِنَا) جعل الهمزة ياءً ثم لم يقلبها واواً.

ولم يقولوا هذا في الحرف الذي ليس منفصلاً. وهذه لغة ضعيفة، لأن قياس هذا أن تقول: يا غُلاَمُوجَلْ[1]).

وإبدال الهمزة ياء في: (يَا صَالحُ يْتِنَا) قراءة شاذة تنسب لأبي عمرو البصري وعاصم في رواية والأعمش.[2]، والقراءة المتواترة هي إبدال الهمزة واوا " يا صالح اوتِنَا" وهي قراءة ورش عن نافع، والسوسي عن أبي عمرو، وأبي جعفر المدني[3].

ومع أن القراءة التي أوردها سيبويه شاذة، والشذوذ قد يلحق القراءة من جهة اللغة، ولكن سيبويه وجَّهَ نقده للغة التي وردت عليها القراءة، ولم يوجهه للقراءة نفسها، وهذا من أدبه الجمِّ مع القراءات القرآنية بأنواعها.

وهنا لا بد أن نطرح سؤالا بعد أن تتبعنا المصطلحات التي عقَّب بها سيبويه على القراءات، وهو: هل كان سيبويه يضعف القراءات؟

---

(1) الكتاب: 4/ 338.

(2) معجم القراءات: 3/ 97.

(3) عبد الفتاح القاضي، البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة من طريقي الشاطبي والدرة، دار الكتاب العربي بيروت: ص 119.

يرى بعض الباحثين أن سيبويه يضعف القراءات ويصفها بالقبح والرداءة، وأن سيبويه كان يقدم القياس على ما سمعه من القراءات.

وممن ذهب هذا المذهب الدكتور: عبد الفتاح شلبي، الذي يقول: (ذلك لأن الملاك العام في احتجاجه للقراءات أنه أراد أن يُجري القراءات على مقاييس العربية، ومن هنا رأيناه لا يتحرج أن يصف كلا من القارئ والقراءة بالضعف(1)).

وقد سبق معنا في دراسة مصطلحات سيبويه في وصف القراءة أن أبطلنا هذا الرأي، وبينا أن سيبويه لم يصف القراءة بالضعف، وإنما وجه نقده للغة والأسلوب الذي وردت عليه القراءة. ويرى الدكتور: أحمد مكى الأنصاري أن سيبويه وقف من القراءات موقف المعارضة الصريحة حينا، والمعارضة الخفية حينا آخر(2). وهذا التهجم على سيبويه مبنى على زعم: أن البصريين لهم منهج متحد، وأن مذهبهم قائم على الاستشهاد بالقراءات فيما وافق أقيَستهم وأصولهم المقررة، فإن خالفتها ردوها. حتى قال الدكتور مهدي المخزومي: (والقراءات مصدر هام من مصادر النحو الكوفي، ولكن البصريين كانوا قد وقفوا منها موقفهم من سائر النصوص اللغوية، وأخضعوها لأصولهم وأقيستهم، فما وافق منها أصولهم – ولو بالتأويل – قبلوه، وما أباها رفضوا الاحتجاج به، ووصفوه بالشذوذ، كما رفضوا الاحتجاج بكثير من الروايات اللغوية وعدوها شاذة تحفظ ولا يقاس عليها(3)).

ولكن تعميم القول على جميع البصريين لا يصح، وخصوصا المتقدمين منهم الذين عاشوا قبل تصنيف القراءات وتنويعها، ولم يكن البصريون على منهج واحد في التعامل مع الشاهد القرائى، إذ إنه لا يمكن أن نقارن منهج سيبويه في التعامل مع القراءات بمنهج من جاء بعده، من أمثال: محمد بن يزيد المبرد (ت285هـ) الذي

(1) أبو علي الفارسي حياته ومكانته بين أئمة التفسير والعربية وآثاره في القراءات والنحو: ص 166.
(2) انظر: أحمد مكي الأنصاري، سيبويه في الميزان، مجلة مجمع اللغة العربية، ج 34، شوال 1394-1974: ص 105.
(3) مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو: ص 384.



كان يتهجم على القراءة والقارئ معا، أما سيبويه فلم يتعرض للقارئ أو اتهامه باللحن، كما فعل المبرد مرات كثيرة.

وسيبويه حينما يعقب على القراءات بالنقد نجده يقول: وهذه لغة ضعيفة، أو هي لغة قليلة، فهو لا يوجه الضعف إلى القراءة مباشرة، إنما يحمل القراءة على إحدى لغات العرب الموصوفة بالضعف أو بالقلة، ومع ذلك فهي لغة تصح القراءة بها، فالضعف والشذوذ أو القبح والرداءة ليس في القراءة نفسها إنما في اللغة التي قرأ بها القارئ[1].

وقد وقع الذين تحاملوا على سيبويه، وزعموا أنه يضعف القراءات، في مزالق في المنهج، ومن أشهرهم الدكتور أحمد مكي الأنصاري، الذي نسوق نموذجا من كلامه، يقول: (وسيبويه لا يحفل بالقراءة السبعية أو غيرها من القراءات إذا ما اختلفت مع القواعد النحوية البصرية بالذات[2]).

والذي يعني البحث من هذه المقولة هو أنَّ منطوقها ومفهومها يدلان على أنَّ سيبويه يعرف القراءة السبعية، وهو قول غير صحيح، وليس بمستقيم. والذي يتعين القول به هنا، هو أن سيبويه لم يكن لديه تصنيف للقراءات، بل كان ينظر للقراءات على اختلاف أنواعها نظرا واحدا، يدل على ذلك أمران:

أولا: قوله: (إلاَّ أنّ القراءة لا تُخالَفُ، لأنّ القراءة السُّنَّةُ[3])، ولم يحدد نوعا معينا من القراءات، مما يدل على أن له منهجا في قَبول القراءة، ومن ضمن شروطه: موافقة رسم المصحف، كما نجد ذلك في قوله:

---

(1) خديجة الحديثي، الشاهد وأصول النحو في كتاب سيبويه، طبع جامعة الكويت، 1394-1974،: ص 52.

(2) أحمد مكي الأنصاري، سيبويه في الميزان، مجلة مجمع اللغة، ص، 106.

(3) الكتاب:1/ 148.

(وقال أيضـًا: ﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ﴾ **الحديد: ٢٩**. وزعموا أنَّها في مُصحف أُبَيٍّ: ﴿أَنَّهُمْ لا يَقْدِرُونَ﴾[1]).

ويقول: (ومثلُ ذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿مَا هَذَا بَشَرًا﴾ يوسف: ٣١، في لغة أهل الحجاز. وبنو تميم يَرْفعونها إلاَّ من دَرى كيف هي في الْمُصحَفِ[2]).

ومراعاة رسم المصاحف من ضوابط قبول القراءة عند علماء القراءات، مما يدلنا على أن سيبويه أخو الحِذْق بالقرآن والنحو والشعر، كما سبق أن أثبتنا شخصيته القرائية في ترجمته.

ثانيا: صنيعه في كتابه من أوله إلى آخره الذي لم يصرح فيه بمصطلح واحد من المصطلحات المتداولة في عصرنا من: متواتر، وشاذ، وقراءة السبعة، والعشرة، والأربعة عشر، وغيرها، وأخص بالذكر المتواتر والشاذ والسبعة لكثرة دورانها دون غيرها.

وكل ذلك دليل قاطع على أنه عند الحديث عن القراءات في كتاب سيبويه، ينبغي أن نأخذ بعين الاعتبار أن المصطلحات التي نتداولها اليوم في أنواع القراءات وأقسامها ليس لها في كتاب سيبويه أو فِكْر سيبويه أي وجود. وصف القراءة بالضعف أو الشذوذ لكونها تمثل أسلوبا من أساليب العرب، والنقد إنما يتوجه إلى اللغة التى وردت عليها القراءة، وليس إلى القراءة نفسها، بدليل أنك تجده بعد أن يورد القراءة يقول: وهذه لغة ضعيفة، وتارة يحذف لفظة اللغة، ويكتفى بقوله: رديء...نقد القراءات عند سيبويه ليس بدْعا، ولكنه منهج سار عليه كثير من الأئمة، مثل: يحيى بن زياد الفراء (ت207هـ)، وابن قتيبة (ت276هـ)، وأبى إسحاق الزجاج (ت310هـ)، وابن جرير الطبري(ت310هـ)، وابن مجاهد(ت324هـ)،، وغيرهم.

---

(1) المصدر نفسه:3/ 166.

(2) المصدر نفسه:1/ 59.



فهذا ابن قتيبة رحمه الله جاء بعد سيبويه، ولكنه يضعف القراءة، بل وفوق ذلك يتهجم على بعض القرأة كالإمام حمزة، ويقول: (منهم رجلٌ - يعني الإمام حمزة - رحمه الله - ستر الله عليه عند العوام بالصلاح، وقرَّبَه من القلوب بالدين، لم أر فيمن تتبعت وجوه قراءته أكثر تخليطًا، ولا أشد اضطرابًا منه، لأنه يستعمل في الحرف ما يدعه في نظيره، ثم يؤصل أصلًا ويخالف إلى غيره لغير ما عِلَّةٍ، ويختار في كثير من الحروف ما لا مخرج له إلا على طلب الحيلة الضعيفة[1]).

ولسنا بصدد الإجابة عن تضعيف القتبي لحمزة، ولكننا نبين أنه جاء بعد سيبويه من ضعفوا القراءات صراحة، ولكن العلماء لم يُهاجموا القُتَبِي، بل اعتذروا له لكون القراءات لم تنضَج في زمنه بعد.

وهذا ابن جرير الطبري (ت310هـ) يعتبر من القراء، وله اختيار في القراءة، كما أن له كتابا في القراءة سماه (الجامع) ذكر فيه بضعا وعشرين قراءة، ومع ذلك وجدناه يضعف القراءة بصريح العبارة، بل وينكر قراءة ابن عامر الشامي[2]، ومع ذلك لا يمكن أن نحاكم ابن جرير بمقياس الداني وابن الجزري وهما بعده بقرون.

بل إن منهج نقد القراءات وتضعيفها يلمسه القارئ عند مسبع السبعة، وهو الإمام: ابن مجاهد(ت324هـ)، فقد حكم على بعض القراءات بالغلط في نحو ثلاثين موضعا[3]، ووصف بعض القراء بالوهم في مواضع[4]. وقال في قراءة ابن عامر الشامي ﴿كُن فَيَكُونَ﴾ بالنصب: وهذا خطأ في العربية[5].

---

(1) ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، تحقيق، السيد أحمد صقر، دار التراث القاهرة، ط،2، 1393-1973، (ص59-60).

(2) انظر: أبو عمرو الداني، جامع البيان في القراءات السبع، تحقيق، مجموعة من الباحثين، جامعة الشارقة الإمارات،ط،1، 1428- 2007،:1/ 246 وما بعدها.

(3) السبعة: ص 262-396-420.

(4) المصدر نفسه: ص 480-522.

(5) المصدر نفسه: 409.

وإذا كان ابن مجاهد إمام القراء وشيخ الصنعة يضعف بعض القراءات، -وهو من كبار القراء- ولم ينكر عليه الناس، لكونه جمع ما اختاره من القراءات، واقتصر على سبعة لأسباب ذكرها في مقدمته، ومع ذلك فلم يكن مصطلح التواتر قد ظهر في زمنه، ولذلك لا تجد ذكرا لإجماع الأمة على تواتر السبعة في كتابه، فكيف ينكر بعضهم على سيبويه، وهو قد كان حكيما في تعليقه على القراءة.

ومجمل القول: إنَّ سيبويه كان وفيـًا للحروف القرائية، لا يبخل عن وصف بعضها بالقوة إنْ توفَّرت لها شروط القوة أو الحُسن، إنْ وافَقت الذّائع المَعروف مِن كلامِ العربِ الّذي يتوخَّى فيه ضبط لغة القرآن وصونها من التّحريف.

المطلب الرابع: أثر أحكام سيبويه على القراءات في كتب الخالفين

لسيبويه أثر كبير فيمن جاء بعده في مختلف العلوم والمعارف، ومن جملة ذلك تأثيره في علم القراءات وفي توجيه القراءات. ويمكن أن ننوع هذا التأثير إلى ثلاثة جوانب:

1- تأثيره في طريقة عزو القراءات.

سبق أن درسنا المصطلحات التي استعملها سيبويه في نسبة القراءات، وقد لقيت بعض مصطلحاته حظوة لدى من جاء بعده، ومن جملة هذه المصطلحات: (أهل الكوفة)، (الكوفيون)، وقد تبعه في استعماله للدلالة على قراءة أي قارئ كوفي



متقدم، كل من: يحيى بن زياد الفراء[1]، وأبي الحسن الأخفش[2]، وابن جرير الطبري[3]، وأبي إسحاق الزجاج[4].

وبعد أن وضع ابن مجاهد (ت324هـ) كتابه "السبعة"، واختار ثلاثة قراء من الكوفة، وهم عاصم وحمزة والكسائي تقيد هذا المصطلح بهؤلاء الثلاثة[5]، وصار مقصورا عليهم لا يجاوزهم إلى غيرهم.، وزاد هذا المصطلحَ رسوخا في كتب القراءات قولُ الإمام أبي عمرو الداني في مقدمة "التيسير":

(وإذا اتفق عاصم وحمزة والكسائي قلت: قرأ الكوفيون طلبـًا للتقريب على الطالبين ورغبة في التيسير على المبتدئين[6]).

وكذا مصطلح (أهل المدينة) فقد استعمله بإطلاقه العام من جاء بعده من أمثال: الفراء[7]، وأبي الحسن الأخفش[8]، وابن جرير الطبري[9]، وأبي إسحاق الزجاج[10]، الزجاج[10]،

وفي السبعة يطلق هذا المصطلح على الإمام نافع وحده، ولكن عند مَنْ توسعوا في جمع القراءات كالإمام الهذلي الذي يطلقه على ما اجتمع عليه: أبو جعفر، وشيبة بن نصاح القاضي، ونافع، والمسيبي، وورش[11].

(1) معاني القرآن:1/ 338،2/ 240.

(2) الأخفش الأوسط، معاني القرآن، تحقيق: الدكتورة هدى محمود قراعة، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة: الأولى، 1411هـ/ 1990م:1/ 49.

(3) جامع البيان في تأويل القرآن:1/ 284-2/ 388.

(4) معاني القرآن وإعرابه:1/ 354-2/ 124.

(5) انظر: كتاب السبعة: ص 386-456.

(6) أبو عمرو الداني، التيسير في القراءات السبع، تحقيق، أوتو تريزل، دار الكتاب العربي، بيروت،ط،2، 1404-1984،: ص 3.

(7) انظر: يحيى بن زياد الفراء، كتاب فيه لغات القرآن، ضبطه وصححه، جابر بن عبد الله السريع، 1435: ص 68-76-105.

(8) انظر: معاني القرآن:1/ 49-281.

(9) انظر: جامع البيان في تأويل القرآن:2/ 388-473-558.

(10) انظر: معاني القرآن وإعرابه:2/ 118-124.

(11) الكامل في القراءات العشر والأربعين الزائدة عليها: ص 164.

ويطلق مصطلح "المدنيان" عند المصنفين في العشر على نافع وأبي جعفر المدنيان[1]. وأما (أهل الحجاز) فقد استعمله القراء فيما اتفق عليه ابن كثير المكي والمدنيان، قال أبو محمد الواسطي: (وإن اتّفق ابن كثير المكي والمدنيان على حرف قلت: قرأ الحجازيون[2]).

وأما (أهل مكة) فقد كان يطلق عند سيبويه ومن تبعه من المتقدمين على القَرَأَة المتصدرين بمكة، وهم: مجاهد بن جبر (ت103هـ)، وعبد الله بن كثير المكي (ت120هـ)، ومحمد بن عبد الرحمن بن محيصن السهمي (ت123هـ)، وحميد بن قيس الأعرج (ت130هـ)، ثم استقر عند المصنفين في السبعة والعشرة على أن يراد به: عبد الله بن كثير المكي فقط.

وأما في الكتب التي جمعت القراءات الأربع عشر مثل: (لطائف الإشارات لفنون القراءات) للإمام أبي العباس أحمد بن محمد القسطلاني (ت923هـ)، و(إتحاف فضلاء البشر) لأحمد بن محمد بن أحمد بن عبد الغني الدمياطيّ، شهاب الدين الشهير بالبناء (ت 1117هـ) فيشمل: عبد الله بن كثير، ومحمد بن عبد الرحمن بن محيصن السهمي.

2- تأثيره في أحكامه النقدية على القراءات

لقد كان للقواعد التي قعَّدها سيبويه في الكتاب، أبلغ الأثر في الحكم على القراءة في كتب المتأخرين عنه، وإن كنا نجد في بعض الأحيان تقويل سيبويه بأنه ضعف القراءة أو قبحها ولا أثر لذلك في الكتاب، ومرد ذلك في نظر البحث أنهم كانوا يفرضون أن سيبويه عندما وضع القاعدة كان مطلعا على القراءة التي تندرج تحت القاعدة، وسنسوق بعض الأمثلة على هذا الأمر.

---

(1) انظر: النشر في القراءات العشر: 2/ 393.

(2) أبو محمد الواسطي، الكنز في القراءات العشر، تحقيق، خالد المشهداني، مكتبة الثقافة الدينية القاهرة، ط1، 1425-2004، 1/ 163.



- **تقبيح قراءة حمزة وتضعيفها: مِنوَالأَرْحَامِشَهِيدَيْنِ بالخفض من قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامِ﴾، وقد وصف هذه القراءة بالقبح الإمام الفراء[1]، وأما المبرد فقال: (وهذا مما لا يجوز عندنا إلا أن يضطر إليه شاعر[2]). وقال أيضا: (لو صليت خلف إمام يقرأ: ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيِّ﴾، و﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامِ﴾ لأخذت نَعْلي وَمَضَيتُ[3]).وأما ابن جرير الطبري فلا يستجيز غير قراءة النصب[4].**

وأما الزجاج فاعتبر أن الجر في: مِن وَالأَرْحَامِشَهِيدَيْنِ خطأ في العربية لا يجوز إلا في اضطرار شعر، وخطأ أيضا في أمر الدين عظيم[5].

وقال الأزهري: (وأما خفض مِن وَالأَرْحَامِشَهِيدَيْنِ على قراءة حمزة فهي ضعيفة عند جميع النحويين، غير جائزة إلا في اضطرار الشعر[6]).

واعتبر الفارسي أن هذه القراءة ضعيفة في القياس، قليلة في الاستعمال. وطعن فيها جماعة من المفسرين كالزمخشري[7]، وابن عطية[8].

---

(1) معاني القرآن:1/ 252.

(2) المبرد، الكامل في اللغة والأدب، تحقيق، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي القاهرة،ط،3، 1417-1997،:3/ 30.

(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق، أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية القاهرة،ط،2، 1383-1964،:5/ 3.

(4) جامع البيان:7/ 523.

(5) معاني القرآن:2/ 6.

(6) أبو منصور الأزهري، معاني القراءات، مركز البحوث في كلية الآداب جامعة الملك سعود المملكة العربية السعودية،ط،1، 1412ه/ 1991م:1/ 290.

(7) الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار الكتاب العربي - بيروت، ط، 3، 1407 ه:1/ 462.

(8) ابن عطية الأندلسي، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق، عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية - بيروت، ط،1، 1422ه:2/ 5.

وتضعيف هذه القراءة وتقبيحها عند هؤلاء الأئمة في نظر البحث مبني على القاعدة التي قعدها سيبويه في الكتاب، يدل على هذا قول مكي بن أبي طالب القيسي(ت437هـ) (ومن خفضه عطفه على الهاء في به وهو قبيح عند سيبويه لأن المضمر المخفوض بمنزلة التنوين) وإذا رجعنا إلى كتاب سيبويه نجد الإمام يقرر ضرورة إعادة حرف الجر عند العطف على الضمير المخفوض في موضعين، يقول:

(وتقول: مررتُ بزيدٍ وبِكَ، وما مررتُ بأحد إلا بِكَ، أعَدْتَ مع المضمَر الباء من قبل أنهم لا يتكلمون بالكاف وأخواتها منفردة، فلذلك أعادوا الجارَّ مع المضمَر[1]).وجعل العطف على الضمير المجرور من دون إعادة حرف الجر قبيحا فقال: (واعلم أنه قبيح أن تقول مررتُ به وبزيدٍ هما، كما قبُح أن تصف المظهر والمضمَر بما لا يكون إلا وصفا للمظهر. ألا ترى أنه قبيح أن تقول: مررتُ بزيدٍ وبه الظريفين[2]).

والملاحظ من هذين النصين أن سيبويه قرر القاعدة ولم يذكر قراءة حمزة، فلا دليل في كلام سيبويه على تقبيح قراءة حمزة، مع أن القاعدة تنطبق عليها، ولكن يحتمل أن يكون سيبويه لم يطلع على هذه القراءة، وهو الاحتمال الراجح عندنا، وهو إنما يضع القواعد على ما توافر لديه من الشواهد، ولا يمكن أن يطلع المقرئ على جميع القراءات، فكيف نطالب إمام النحاة بأن لا يُغفل قراءة من القراءات في زمن لم تُجمع فيه القراءات بعد، ولكن كما رأينا فإن البصريين ضعفوا قراءة حمزة على ما فهموه من كلام سيبويه، وهو معذور إذ لم تبلغه هذه القراءة.

(1) الكتاب:2/ 363.
(2) المصدر نفسه:2/ 387.



- تضعيف قراءة ابن عامر بنصب ﴿فَيَكُونَ﴾ من قوله تعالى: ﴿كُن فَيَكُونَ﴾ في ستة مواضع[1]، فقرأ ابن عامر فيها كلها بنصب نون فَيَكُونَ، ووافقه الكسائي في موضعي النحل ويس، وقرأ الباقون برفع النون في المواضع الستة.

وقراءة ابن عامر هنا من القراءات التي أسالت أقلام القراء والمفسرين والْمُعْربين، وتعددت آراؤهم فيها ما بين مُغلط، ومُوَهِّم، ومخطئ، كما فعل ابن مجاهد[2]، ومستشكل كما عند أبي شامة[3]، ومستبعد[4]، ومُلَحن[5]، ومضعف[6]، ومرجح قراءة الجمهور على ابن عامر[7].

وجميع هؤلاء عولوا على قول سيبويه رحمه الله: (واعلم أن الفاء لا تُضمَر فيها "أنْ" في الواجب، ولا يكون في هذا الباب إلا الرفع... ومثله: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾، كأنه قال: إنما أمرنا ذاك فيكون.وقد يجوز النصب في الواجب في اضطرار الشعر... وهو ضعيف في الكلام[8])، وسيبويه هنا لم يشر إلى قراءة النصب في فَيَكُونَ، وإن كان مقتضى كلامه أنها ضعيفة.

---

(1) في البقرة، وآل عمران، وموضع النحل، ومريم، ويس، وغافر.

(2) انظر: السبعة: ص 169-207-409.

(3) انظر: أبو شامة، إبراز المعاني من حرز الأماني، تحقيق، إبراهيم عوض،ط، دار الكتب العلمية: ص 339.

(4) انظر: أبو العباس المهدوي، شرح الهداية، تحقيق، حازم حيدر، مكتبة الرشد، الرياض، ط،1415،1ه1995،:1/ 179.

(5) انظر: المحرر الوجيز: 1/ 202.

(6) انظر: أبو البقاء العكبري، التبيان في إعراب القرآن، تحقيق، علي محمد البجاوي، طبع عيسى البابي الحلبي وشركاه:1/ 109.

(7) انظر: الكامل في القراءات العشر والأربعين الزائدة عليها: ص 491.

(8) الكتاب:3/ 38-39.

وقد سبق أن أشرت إلى أن قراءة عبد الله بن عامر الشامي (ت118ه)، لم تصل سيبويه. ومن المسلم عند القراء أن القراءات لا يحيط بها أحد، فكيف نُلزم سيبويه بأنه عندما كان يقرر هذه القاعدة كانت قراءة ابن عامر في ذهنه.

- <u>توجيه قراءة الجزم في</u> ﴿وَأَكُنْ﴾، من قوله تعالى: ﴿ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾، المنافقون:10

وجه سيبويه الجزم في هذه القراءة بالعطف على التوهُّم، أي: تَوَهَّمَ القارئ سقوط الفاء من ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾ فجَزَمَ ﴿وَأَكُنْ﴾ عطفا على ﴿ فَأَصَّدَّقَ﴾ لو لم يكن فيه فاء.

وتبعه في هذا التوجيه الإمام الفراء[1]، والأخفش أبو الحسن[2]، وابن قتيبة[3]، ومحمد بن يزيد المبرد[4]، وابن جرير الطبري[5]، وابن النحاس[6]، وجار الله الزمخشري[7]، وابن مالك الأندلسي[8]، وتبعهم السمين الحلبي لكنه لم يرتض هذا هذا المصطلح النحوي، وقال: ((وهذه عبارة فيها غلط على القرآن فينبغي أن يقال:

(1) معاني القرآن:1/ 87.
(2) معاني القرآن:1/ 69.
(3) تأويل مشكل القرآن: ص 41.
(4) محمد بن يزيد المبرد، المقتضب، تحقيق،محمد عبد الخالق عظيمة، عالم الكتب بيروت:2/ 339.

(5) جامع البيان:23/ 412.
(6) أبو جعفر ابن النحاس، إعراب القرآن،، تعليق، عبد المنعم خليل إبراهيم، دار الكتب العلمية بيروت،ط،1، 1421ه:4/ 288.
(7) الكشاف:4/ 544.
(8) ابن مالك الأندلسي، شرح تسهيل الفوائد، تحقيق، عبد الرحمن السيد ومحمد بدوي المختون، هجر للطباعة والنشر والتوزيع، ط،1، 1410-1990،:4/ 47.



فيها مراعاة للشبه اللفظي، ولا يقال للتوهم[1]). وسماه ابن هشام العطف على المعنى، قال: ويقال له في غير القرآن العطف على التوهم[2].

وهذا التوجيه سبق إليه الخليل فيما نقله عنه سيبويه حيث قال: (وسألت الخليل عن قوله عز وجل: ﴿فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ المنافقون:10

فقال: هو كقول زهير:

بَدَا لِيَ أَنِّي لَسْتُ مُدرِكَ مَا مَضَى   وَلَا سَابِقٍ شَيْئًا إذا كَانَ جَائِيَا

فإنما جَرُّوا، لأن الأول قد يدخله الباء، فجاءوا بالثاني، وكأنهم قد أثبتوا في الأول الباء، فكذلك هذا لما كان الفعل الذي قبله قد يكون جزما ولا فاء فيه تكلموا بالثاني، وكأنهم قد جزموا قبله، فعلى هذا توهموا هذا [3]، وأغلب من جاء بعده اعتمد على هذا الرأي في هذه توجيه هذه القراءة.

- اختيار قوله في توجيه قراءة فتح ﴿أَنَّهَا﴾

اختلف القراء في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ الأنعام: ١٠٩ فقرأ ابن كثير وأبو عمرو البصري وشعبة بخلف عنه بكسر همزة ﴿إِنَّهَا﴾، وقرأ الباقون بفتحها[4].

وفي توجيه قراءة الفتح اختلاف كثير، وأشهر الأقوال وأرجحها الذي يصدر به في كتب الموجهون والمعربون والمفسرون:

---

(1) السمين الحلبي، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، تحقيق: أحمد محمد الخراط،ط: دار القلم، دمشق، ط،1، 1408-1987،6/ 553.

(2) ابن هشام الأنصاري، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق، مازن المبارك ومحمد علي حمد الله، دار الفكر دمشق، ط،6، 1985،: ص 553.

(3) الكتاب: ج، 3 ص، 100-101.

(4) انظر: السبعة: ص 265.

أن تكـون ﴿أَنَّهَا﴾ بمعنـى لَعَـلَّ، وهـذا الوجـه سـبق إليـه الخليـل، وذلـك في جوابـه لسيبويه عندما قال له: (وأهل المدينة يقولـون[1]: ﴿أَنَّهَا﴾. فقـال الخليـل: هـي بمنزلـة قول العرب: ائت السُّوق أنك تشتري لنا شيئًا، أي: لعلَّك، فكأنـه قـال: لعلهـا إذا جاءت لا يؤمنون[2])، ونظرا لجلالة الخليل وسـيبويه فقـد قـدَّمَ هـذا الوجـه جماعـة، واعتبروه أجود ما قيل في توجيه قراءة الفتح.

قال الفراء: (وهو وجه جيد أن تَجعل (أَنّ) فِي موضع لعل[3]).واختـاره الأخفـش أيضا[4]، وكذا ابن جرير الطبري[5].

وقال الزجاج في هذا الوجه أيضا: (والقول الأول أقوى وأجود في العربية[6]).

واقتصر على هذا الوجه ابن خالويه في الحجة[7]، ومكي في مشكله[8]، وأبـو العـلاء العلاء الكرماني[9]. وصَدَّرَ بـه أبـو القاسـم الأصـبهاني الملقـب بقـوام السـنة[10]، كمـا صَدَّرَ به السمين الحلبي في الـدر[11]. وكـل هـذا يبـين لنـا تـأثير آراء سـيبويه في كتـب التوجيه والتفسير وإعراب القرآن الكريم.

(1) قـرأ بفـتح "أنهـا" نـافع وأبـو جعفـر المـدنيان، وابـن عـامر الشـامي، وحفـص عـن عاصـم، وحمـزة، والكسائي، وخلف في اختياره. ينظر: النشر لابن الجزري: ج2/ 261.

(2) الكتاب، ج،3 ص،123.

(3) معاني القرآن:1/ 350.

(4) معاني القرآن:1/ 310.

(5) جامع البيان:12/ 43.

(6) معاني القرآن وإعرابه2/ 283.

(7) ابن خالويه، الحجة في القراءات السبع، تحقيق، عبد العال سالم مكرم، دار الشروق بيروت،ط،4، 1401ه،: ص 147.

(8) مكي بن أبي طالب، مشكل إعراب القرآن، تحقيق، حاتم صالح الضامن، مؤسسة الرسالة بيروت، ط،2، 1405:1/ 265.

(9) محمد بن أبي المحاسن الكرماني، مفاتيح الأغاني في القراءات والمعاني، دراسة وتحقيق، عبد الكريم مصطفى مدلج، دار ابن حزم بيروت،ط،1، 1422-2001،: ص 169.

(10) أبو القاسم الأصبهاني قوام السنة، إعراب القرآن، تحقيق، فائزة بنت عمر المؤيد،ط،1، 1415-1995،: ص 121.

(11) الدر المصون:5/ 102.



3- <u>تأثيره في فرض اختياراته كما في:</u> ﴿ بَارِئِكُمْ ﴾ ونظائرها.

قرأ السوسي عن أبي عمرو بإسكان الهمزة ومثله الدوري إلا أنه زاد وجه الاختلاس، وقرأ الباقون بالكسر التام(1).

وفي قراءة الإسكان إشكال معروف عند النحاة، لأنه حذفَ حركة الإعراب في الوصل، وروى سيبويه وجه الاختلاس عن أبي عمرو، كما نص عليه أبو حيان(2).

وقال أبو بِشْر:

(وأما الذين لا يُشبِعون فيَخْتَلِسُون اختلاساً، وذلك قولك: يضربُها، ومِنْ مَأْمَنِكَ، يُسْرِعُونَ اللفظَ. ومن ثم قال أبو عمرو: (إِلَى بَارِئِكُمْ)(3)).

ولم يرو سيبويه عن أبي عمرو وجه الإسكان، وجاء من بعده من النحاة فرأوا أن سيبويه لم يذكر رواية الإسكان فضعفوها، سواء القراء والنحاة، حتى إن ابن مجاهد لم يذكر في سبعته رواية الإسكان، وَنَقَلَ عن سيبويه نصّاً ليس في كتابه، يُبَيِّن فيه أن الرواة أخطئوا عن أبي عمرو، قال: (فقد كان أبو عمرو يختلس الحركة من ﴿بَارِئِكُمْ﴾، و﴿ يَأْمُرُكُم ﴾ وما أشبه ذلك مما تتوالى فيه الحركات، فيرى من سَمِعَهُ أنه قد أَسْكَنَ ولم يكن يُسْكِنُ(4)). ولكن رواية الإسكان ثابتة عن أبي عمرو من رواية اليزيدي عنه، وهي قراءة متواترة(5).

والذين ضعفوا قراءة الإسكان احتجوا بكلام سيبويه، مع أنه لم يطعن في قراءة الإسكان، ولكنه ذكر الوجه الذي تلقاه عن شيخه أبي عمرو البصري، وهو الاختلاس، ولم يشر إلى ضعف غيره.

---

(1) التيسير في القراءات السبع: ص 73.
(2) البحر المحيط:1/ 333.
(3) الكتاب:4/ 202.
(4) السبعة في القراءات: ص 156.
(5) انظر: التيسر في القراءات السبع: ص 73.

وقد غلَّط الأخفش[1] وجه الإسكان في ﴿ بَارِئِكُمْ ﴾، وأما الزجاج فيرى أن الإسكان في مثل هذا لا يقع إلا في ضرورة الشعر[2]. وزعم المبرد أن الإسكان هنا لَحْنٌ، لا يجوز لا في كلام ولا شعر[3]. ويرى مكي أن الإسكان ضعيف مكروه[4].

وهذا الصنيع منهم يدل على مكانة سيبويه ومنزلته عند القوم، فقد رجحوا رواية الاختلاس التي رواها سيبويه، ولم يكتفوا بذلك بل طعنوا في رواية الإسكان واتهموا الرواة الذين رووها بعدم الضبط لما سمعوه، حتى قال ابن جني:

(وكذلك قوله عز وجل: ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ﴾ البقرة: ٥٤، مختلَسًا غير ممكَّن كسر الهمزة، حتى دعا ذلك من لطُف عليه تحصيل اللفظ إلى أن ادَّعى أن أبا عمرو كان يُسكن الهمزة، والذي رواه صاحب الكتاب اختلاس هذه الحركة لا حذفها البتة، وهو أضبط لهذا الأمر من غيره من القراء الذين رووه ساكنًا. ولم يُؤْتَ القوم في ذلك من ضعْف أمانة، لكن أُتُوا من ضعف دراية[5]).

فانظر إلى كلام ابن جني كيف ينتصر لقراءة الاختلاس، ويتهم رواة الإسكان بأنهم لم يضبطوا الرواية عن أبي عمرو.

(1) معاني القرآن:1/ 89.

(2) معاني القرآن:1/ 136.

(3) انظره رأيه في: أبو جعفر ابن النحاس، إعراب القرآن،، تعليق، عبد المنعم خليل إبراهيم، دار الكتب العلمية بيروت،ط،1، 1421هـ:1/ 54.

(4) مكي بن أبي طالب، الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها، تحقيق، محي الدين رمضان ط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط،1418،5-1997،:1/ 241.

(5) ابن جني، الخصائص، تحقيق، علي النجار، دار الكتب المصرية القاهرة،1/ 73.



خاتمة

تبيَّنَا بعد هذا التطواف الماتع في ظلال الكتاب أمورا مهمة، نسطرها هنا على سبيل الإيجاز.

❖ كشفنا عن شخصية سيبويه القرائيةِ وأثبتنا أخذه عن الإمام أبي عمرو بن العلاء المازني البصري (ت154هـ) أحد البدور السبعة.

❖ دقة سيبويه في نسبته للقراءات، ودرايته بالقراءات التي أوردها في كتابه ولمن تنسب، وإن لم يصرح بأسماء القراء إلا قليلا.

❖ اهتمام سيبويه بعزو القراءات إلى أهل بلد (مكة، المدينة، الكوفة) أو إقليم من الأقاليم (الحجاز)، دليل على إلمامه بقراء تلك البلدان.

❖ توثيق القراءات في (الكتاب) بالاعتماد على مصادر القراءات المتداولة المشهورة، سيؤدي إلى خلل وقصور في فهم مراد سيبويه، كما وقع لمحقق الكتاب الأستاذ: عبد السلام هارون –رحمه الله– في مواضع نبهنا على بعضها.

❖ تعامل سيبويه مع القراءات وطريقة إيراده لها ليس له منهج واحد، بل وجدنا أن لها أربعة صور، فتارة يقدمها على الشواهد الشعرية والنثرية، وتارة يؤخرها، وتارة يكون غرضه الاحتجاج للقراءة، وتارة يكون مقصده الاحتجاج بالقراءة.

❖ طرق عزو القراءة عند الإمام تتنوع إلى ثلاثة أنواع.

❖ وَصَفَ القراءات بجملة من المصطلحات، مثل: جيدة، وقليلة، ورديئة، وضعيفة...

❖ حاولنا أن نرد الفرية التي ألصقها بعضهم بالإمام، وأنه يضعف القراءات المتواترة.

❖ وقع الذين اتهموا سيبويه بتضعيف القراءات في مزالق في المنهج، كقولهم: إن سيبويه كان يضعف القراءة السبعية المتواترة، وأيُّ تواتر كان في زمنه؟ وكتحميلهم لكلام الإمام ما لا يتحمله.

❖ نقد القراءات عند سيبويه ليس بدْعا، ولكنه منهج سار عليه كثير من الأئمة، مثل: يحيى بن زياد الفراء (ت207هـ)، وابن قتيبة (ت276هـ)، وأبي إسحاق الزجاج (ت310هـ)، وابن جرير الطبري(ت310هـ)، وابن مجاهد(ت324هـ)، وغيرهم.

وقد كان سيبويه أكثرهم تورعا في نقده، ومن ثم وجدناه يوجه نقده للغة التي وردت عليها القراءة، لا القراءة نفسها.

❖ تأثيره في علم القراءات من خلال ما يلي:

1- إنشاء مصطلحات في نسبة القراءات حظيت بقبول لدى المتأخرين، منها: أهل الكوفة، أهل المدينة، أهل مكة، أهل الحجاز.

2- تأثيره في الحكم على القراءة بالضعف أو القبح، فقد تبع حكمه على القراءات عدد من المفسرين والمعربين والموجهين. وقد ذكرنا بعض الأمثلة التي تجلي هذا الأمر وتكشفه.

3- تأثيره في توجيه بعض القراءات، واتباع الخَلَف له.